جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان

MA G-353-82

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم الثقافة الشعبية

معهد الثقافة الشعبية
330
رقم الجرد
تاريخ الوصول
ATM.78.2
رقم الترتيب
G5

الأوضاع السياسية و الثقافية للدولة العبد الوادية

منذ قيامها حتى نهاية عهد أبي تاشفين الأول

633 هـ/1236 م - 737 هـ/1337 م

تقديم

مكيوي محمد

لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية

تحت إشراف

الدكتور عبد الحميد حاجيات

السنة الجامعية 2000 ـ 2001

Bibliothèque Sciences Sociales

مقدمة

الإشكالية :

لقد حاول بعض المؤرخين الأوروبيين، طمس معالم الشخصية العربية الإسلامية للمغرب الأوسط، و تزييف تاريخه بطرق ملتوية وأساليب مختلفة.

وما أن استرجعت الجزائر استقلالها حتى هب الرعيل الأول من مؤرخيها إلى المكتبات، للإطلاع على المصادر والبحث والتنقيب وهذا بهدف إعادة كتابة التاريخ بأسلوب علمي نزيه، بعيد عن كل ضغط أو إكراه، ورغم تعدد الدراسات والأبحاث فإن تاريخ هذه المنطقة من المغرب الإسلامي ما يزال في حاجة ماسة إلى تحليل الحقائق واستنطاق الأحداث وخاصة ما يتعلق بتاريخ الدولة العبدالوادية.

و يكاد المتأمل في حال الدولة العبدالوادية أن يجزم بأنها قد تعرضت لمؤامرة صمت بقيت أسبابها مجهولة، ومع ذلك فإن المتمعن في المراحل التاريخية لهذه الدولة قد يستشف من أحداثها الأسباب الحقيقية لعدم وصول نصوصها كاملة إلى هذا العهد.

فكل المحن والخطوب التي تعرضت لها الدولة العبدالوادية عبر أدوارها كافية لإتلاف وثائقها، ومحو آثارها، وطمس معالمها. وبطبيعة الحال ينعكس ذلك كله على أعمال الباحثين، حيث يصعب عليهم في ظروف شحيحة كهذه إبراز معلومات جديدة وافية.

هذا ما دفعني وعزز رغبتي أن أقوم بهذه الدراسة المتواضعة للمساهمة في إثراء المكتبة التاريخية بمعلومات تتناول جوانب سياسية وثقافية للدور الأول من حياة هذه الدولة.

صعوبات البحث :

يعتبر الخوض في الوضع السياسي والثقافي للدولة العبدالواية في دورها الأول من المهام الصعبة والمتعبة في نفس الوقت وذلك لقلة المصادر المختصة من جهة، واقتضاب ما تيسر منها من جهة أخرى. وهذا بطبيعة الحال يعسر مهمة الباحثين.

ومع ذلك كله ورغم الصعوبات التي ظهرت خلال إعداد هذا البحث فقد وجدت التشجيعات والمساعدات مما خفف عني ثقل المهمة وأنساني ويلات البحث وصعوباته ودفع بي نحو العمل الجاد. لهذا فإني حريص على تقديم جزيل الشكر والامتنان للأستاذ المشرف على هذا البحث الدكتور عبد الحميد حاجيات، نظرا لما قدمه إلي من مساعدة ونصح وتوجيه في هذا العمل.

المنهج المتبع في البحث :

أما المنهج المتبع الذي سرت عليه في الكتابة فإنه يجمع بين عرض الحقائق بعد تمحيصها واستنتاجها، وبين التحليل الذي يعلل الوقائع ويتعرض إلى تفسير دوافعها بقدر الإمكان.

وقد تم تصنيف البحث إلى مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة. تعالج المقدمة في قسمها الأول إشكالية الموضوع، والصعوبات التي واجهت الباحث، والمنهج المتبع. وفي قسمها الثاني تتعرض بالنقد لأهم المصادر والمراجع المعتمدة.

وقد بدأت البحث بمدخل تمهيدي، يعالج الإطار الجغرافي للمغرب الأوسط من حيث إقليم وحدود الدولة و التضاريس و الخصائص السكانية و النشاط الاقتصادي.

الفصل الأول ويدرس الأوضاع السياسية لمنطقة المغرب الإسلامي قبيل ظهور الدولة العبدالوادية وكذا أصل بني عبد الواد ومواطن سكانهم، ثم عوامل نشأة الدولة العبدالوادية ودور يغمراسن بن زيان في قيام الدولة العبدالوادية، والعلاقات العبدالوادية المرينية في عهد يغمراسن بن زيان.

أما الفصل الثاني فيتناول العلاقات العبدالوادية المرينية وتطورها بعد يغمراسن، وكذا العلاقات العبدالوادية الحفصية وعلاقة الدولة العبدالوادية بالقبائل الزناتية والعربية.

في حين يعالج الفصل الثالث الجانب الثقافي في هذا الدور من حياة الدولة العبدالوادية من حيث التعليم ومؤسساته والعلوم التي ازدهرت في هذه الفترة.

ذلك هو الشكل العام الذي روعي في إعداد البحث. وقد تم ذلك بالطبع بتوجيه من الأستاذ المشرف.

ومع هذا فإني على ثقة بأني لم أقدم من الجديد إلا يسيرا، لا تكاد معالمه تظهر أمام ما قدمه أساتذتي الأجلاء من بحوث وافية ودراسات مفيدة، لذا فلا يسعني في هذا المجال سوى الاستسماح مسبقا، لما قد يبدو في بحثي هذا من تقصير وسهو وأخطاء.

أهم مصادر ومراجع البحث :

اعتمدت في هذا البحث على مجموعة كبيرة من المصادر الأصلية، كما استفدت من المراجع الحديثة التي تناولت موضوع البحث من قريب أو بعيد. وسوف أقصر حديثي على تلك التي لها أهمية خاصة في استيفاء مادة البحث مراعيا ترتيبها تاريخيا وهي :

1- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

وقد اختلف المؤرخون حول مؤلف هذا الكتاب فالبعض ينسبه إلى أبي العباس أحمد بن أبي زرع والبعض ينسبه إلى صالح بن عبد الحليم الغرناطي وكلا المؤرخين عاشا وماتا بالمغرب في النصف الأول من القرن الثامن 14م.

والكتاب يتناول تاريخ المغرب الأقصى من سنة 145هـ إلى 724هـ و اعتمد ابن أبي زرع كثيرا فيما كتب على عدة مصادر اغفل ذكر معظمها كما اعتمد فيما يظهر على وثائق رسمية وخاصة عند كلامه على حكام الأسرة المرينية.

2- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكرياء يحيى بن خلدون ل حوالي 734هـ/1333م 780هـ/1378م :

نشره ألفردبل في ثلاثة أجزاء في مجلدين بالجزائر 1904-1911م والجزء الأول حققه الدكتور عبد الحميد حاجيات بالجزائر 1400هـ/1980م.

وبدأت حياة يحيى بن خلدون السياسية في عام 757هـ/1356م في خدمة الحفصيين ثم انتقل لخدمة بني عبد الواد واتخذه أبو حمو كاتبا للإنشاء ثم التحق

بالبلاط المريني ثم عاد لخدمة أبي حمو الذي رحب به وأعاده لمنصبه القديم إلى أن قتل في رمضان عام 780هـ/1378م.

ورغم أن حياته السياسية كانت أقصر من حياة أخيه عبد الرحمن ابن خلدون وأقل خطرا، فإنها مع ذلك أتاحت له فرصة كتابة مؤلف غزير المادة في التاريخ هو « بغية الرواد »اعتمد عليه كل من كتب عن تاريخ تلمسان والمغرب الأوسط.

وأهمية هذا الكتاب ترجع إلى تناول فترة حكم أبي حمو الثاني وصلته بالقبائل العربية والزناتية والإمارات المغربية.

وبحكم منصبه ككاتب سر أبي حمو الثاني استطاع أن يطلع على الوثائق الرسمية بل وأن يذكر بعضها كاملة في مصنفه. ورغم أن يحيى لم يتناول في كتابه موضوعا متشعبا كموضوع أخيه عبد الرحمن و لم يظهر سموا في التفكير ولا براعة في النقد مثل ما فعل أخوه في كتابه، فإنه يمتاز بجودة أسلوبه و بلاغته.

و لم يكن مجرد بسط للتاريخ السياسي للمغرب الأوسط فحسب بل أورد فيه كذلك كثيرا من قصائد شعراء البلاط الذين عاصروه وكذا الذين سبقوه والتي كثيرا ما احتوت على مادة تفوق في قيمتها المادة التاريخية.

والكتاب يعطينا لمحة صادقة عن الحياة العقلية في عاصمة بني عبد الواد في القرنين السابع و الثامن للهجرة.

3- كتاب روضة النسرين في دولة بني مرين لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر النصري الأمير الغرناطي الشاعر الكاتب المتوفى سنة 807هـ/1404م :

نشره الأستاذ عبد الوهاب بن منصور بالرباط سنة 1962. ورغم صغر حجمه فإنه تناول تاريخ بني عبد الواد من جانب خاص فهو سجل يتضمن أسماء ملوكها وألقابهم وأنسابهم وتواريخ ميلادهم وولايتهم ووفاتهم، مع وصف ملامحهم الخلقية وذكر رجال دولتهم من وزراء وحجاب وقضاة وكتاب وما خلفوه من بنين وبنات فهو قريب الشبه بسجلات الحالة المدنية في أيامنا هذه.

ويلاحظ على ابن الأحمر أنه نقل كثيرا من فقرات الذخيرة السنية والقرطاس فأوردها برمتها دون إسناد إلى مصدر.

4- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و العجم والبربر لعبد الرحمن بن خلدون 732هـ-808هـ-1332م-1406م :

طبع هذا الكتاب في بيروت سنة 1961 في سبعة أجزاء والجزء الأول منه هو المقدمة المشهورة التي ينظر فيها للتاريخ على أنه فرع من الحكمة أي الفلسفة، وفي نفس الوقت تتضمن نظرية ابن خلدون حول القبائل العربية ودورها السلبي في المناطق التي انتقلت إليها، كما أنها تحتوي على معلومات هامة عن دور العرب الحضاري في المغرب والأندلس وأنظمة الحكم فيها.

أما بقية أجزاء التاريخ فهي تتناول أخبار العرب وأجيالهم منذ بدء الخليقة. ثم أخبار البربر وأجيالهم ودولهم بديار المغرب، وأهم هذه الأجزاء بالنسبة لموضوع هذه الرسالة، الجزءان السادس والسابع و يتضمن كتاب عبد الرحمن

ابن خلدون المادة اللازمة لتوضيح العلاقات التي كانت قائمة بين دول بلاد المغرب العربي ومن حالفهم من القبائل العربية أو البربرية.

وقد ساعد ابن خلدون على ذلك كفاءة سياسية فائقة و ثق صلتها مع العلماء والرجال المبرزين في عهده واتصاله بالقبائل العربية المختلفة لنصرة أرباب نعمته، ولهذا فهو ثمرة خمسين عاما قضاها المؤلف في مشاهدة الحوادث عن كثب وفي دراسة ما سبقه من كتب التاريخ ووثائق عصره السياسية والرسمية، دراسة واسعة.

5- تعريف الخلف برجال السلف لأبي القاسم الحفناوي :

هو الحفناوي بن الشيخ بن أبي القاسم، يرجع نسبه إلى سلالة سيدي محمد ابن عروس، وسيدي المازاري بن يطو زعيم الخلوية بمدينة بوسعادة، وقد ولد الحفناوي سنة 1852 ومات سنة 1942 في الديس وهي بلدة تبعد عن مدينة بوسعادة بحوالي 20كلم. وأبوه هو الشيخ المعروف بمحمد أبي القاسم الهاملي، وقد كانت له شهرة كبيرة في الهامل، ويعتبر من أشهر المدرسين بزاويتها – زاوية الهامل –

- شب الحفناوي في بيئة كلها علم ودراسة، فدرس على أبيه حيث حفظ القرآن الكريم، ويمكن القول إن الحفناوي تثقف ثقافة واسعة، فدرس أصول الفقه والتوحيد، وتفسير القرآن وإلى جانب ذلك أكمل معلوماته بدراسة اللغة الفرنسية، حيث سمحت له بالتوظيف كمحرر في جريدة

المبشر التي كانت تصدر باللغتين العربية والفرنسية أي من سنة 1884 إلى 1926.

ساهم الحفناوي في النهضة الجزائرية في بداية هذا القرن، وكان من مظاهرها انتعاش الصحافة العربية، وتأسيس النوادي الثقافية والجمعيات/ وأهم ما ساهم به الحفناوي في النهضة الجزائرية، تأليفه لموسوعة تراجم في جزئين تناول فيها مشاهير الجزائريين الذين ساهموا في التاريخ السياسي والثقافي لبلادهم، وقد نشر هذه الموسوعة تحت عنوان: (تعريف الخلف برجال السلف).

- تناول الحفناوي في كتابه هذا حياة شخصيات عاشت بين القرن العاشر وبداية القرن العشرين وقد نشرته مطبعة فونتانا 1907.

لقد ساعدت الحفناوي مكانته في الوسط الثقافي على جمع المصادر التي أخذ عنها، وهي مصادر هامة، وقد ترجم للعلماء والفقهاء والأدباء والقضاة، وبعض السياسيين كما ترجم للمتقدمين عنه ولمعاصريه، وقد ساعده على ذلك اتصاله بهؤلاء.

مصادر تعريف الخلف :

اعتمد الحفناوي في كتابه على ثلاثة أنواع من المصادر وهي :

أ. الكتب القديمة بالنسبة للتراجم القديمة.

ب. الاتصال المباشر بمعاصريه.

ج. المراسلات وتشمل: مراسلة العلماء لمده بالمعلومات التي تنقصه.

ورغم النقائص الموجودة بالكتاب، فإن (تعريف الخلف) يعتبر من أهم الكتب، وهو تكملة لأعمال ابن مريم، والغبريني وغيرهما.

6- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم الشريف الميلتي المديوني التلمساني، وقد نشره محمد بن أبي شنب.

- ترجم ابن مريم في -البستان- لاثنين وثمانين ومائة عالم وولي ولدوا بتلمسان أو عاشوا بها.

ورتب ابن مريم تراجمه حسب حروف الهجاء مبتدئا بمن اسمه أحمد ومنهيا تراجمه بمن اسمه يحيى، وقد تفاوتت تراجمه في الطول تفاوتا كبيرا، فبعضها لا يزيد على سطر واحد بينما خصص ابن مريم لبعض العلماء عدة صفحات من كتابه.

- ومثلما تفاوتت التراجم في الطول فإنها تفاوتت من حيث أهمية المعلومات المذكورة بها.

ويمكن استخراج عدة فوائد من -البستان- ومن أنواع الفوائد التي يمكن استخراجها من كتاب ابن مريم، المعلومات التاريخية.

- ومن الفوائد التاريخية المتعلقة بالعمران، ذكر أسماء بعض الأمكنة الموجودة بتلمسان وضواحيها من مساجد و مدارس و أبواب و أحياء ومقابر.

كما يستخرج من -البستان- فوائد خاصة بالحياة العلمية والثقافية في المغرب الأوسط في العهد الزياني إذ ذكر المؤلف أكثر العلماء والأدباء الذين عاشوا في ذلك العهد وأشار إلى آثارهم الفكرية وأورد في أغلب الأحيان أسماء شيوخهم وتلاميذهم، والكتب المتبادلة في زمانهم.

وهذه الفوائد المتنوعة التي يتضمنها «البستان »تجعل من كتاب ابن مريم مصدرا هاما لتاريخ الدولة العبد الوادية وتاريخ المغرب الأوسط إذ هو مكمل للكتب التاريخية التي عنيت فقط بالأحداث العسكرية والسياسية.

7- الذخيرة السنية في الدولة المرينية لمؤلف مجهول :

محتوى الكتاب وقيمته :

قسم المؤلف الكتاب إلى عشرة أبواب، أولها في ذكر بني مرين وقبائلهم ونسبهم، وخص الأبواب الأخرى لذكر أمرائهم مبتدئا بجدهم عبد الحق ثم تلاه الكلام على أبي سعيد عثمان فمحمد بن عبد الحق فأبي يحيى بن عبد الحق، فأبي يوسف فأبي يعقوب فأبي ثابت، فأبي الربيع سليمان، فأبي سعيد الذي خص له الباب العاشر.

غير أن محمد بن أبي شنب لم ينشر من الكتاب إلا الأبواب الستة الأولى، وختم طبعته بهذه العبارة : "هذا ما وجد من هذا الكتاب والحمد لرب الأرباب".

وزيادة على الأبواب العشرة، قسم المؤلف كل باب إلى فصول تتفاوت في الطول، ولم يعط نفس الأهمية للأخبار كلها فبجانب الخبر المطول المجاوز للصفحة، يوجد الخبر الذي لا يأخذ إلا بضع كلمات.

كما جاءت الذخيرة السنية مشحونة بالأخبار السياسية والأخبار العلمية وبعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية كغلاء المعيشة وأسعار المواد الغذائية والحالة الصحية، ومما يزيد الكتاب أهمية في نظرنا هو اعتناء المؤلف الكبير بالعلاقات بين ملوك فاس وملوك تلمسان، بل أضاف إليها معلومات تخص بني

عبد الواد ومملكة تلمسان ولو لم تكن لها علاقة بفاس والدولة المرينية. وهذا لا يزيد الكتاب إلا أهمية بالنسبة لتاريخ بني عبد الواد وتاريخ المغرب الأوسط في عهدهم.

وبالإضافة إلى الشرح المفصل والطويل، امتازت الذخيرة السنية بالدقة في السرد. إنها أكثر دقة من روض القرطاس الذي جاء أكثر تفصيلا وأكثر تدقيقا للأحداث الخاصة بالعلاقات المرينية العبد الوادية من كل المصادر الأخرى حتى أهمها وهي زهر البستان في دولة بني زيان لمؤلف مجهول، وبغية الرواد في ذكر ملوك بني عبدالواد، وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون.

وقد فاق روض القرطاس بتفصيله للأخبار الخاصة بالعلاقات العبد الوادية المرينية، الكتب الثلاثة الأولى التي عاش أصحابها في ظل الدولة العبد الوادية، والتي لم تهتم اهتماما كبيرا بالوقائع وما أكثرها، التي دارت بين الدولتين وكانت الغلبة فيها في أكثرها لبني مرين وفاق روض القرطاس أيضا -العبر- الذي ذكر الأحداث لكنه لم يفصلها. وبهذه المقارنة نكشف أن الذخيرة السنية أكثر تفصيلا وأكثر تدقيقا حتى من روض القرطاس.

غير أن الكتاب رغم أنه وضع لتاريخ الدولة المرينية، فهو مصدر متمم للمصادر الأخرى الخاصة بتاريخ الدولة العبد الوادية.

8- نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان لمحمد بن عبد الجليل التنسي، مؤرخ بني زيان :

ذكر التنسي في مقدمة الكتاب، أنه عزم على تأليف هذا الكتاب "الملوكي" لشكر ولي نعمته معاصره السلطان الزياني محمد المتوكل.

وقد قسم الكتاب إلى خمسة أقسام ثم جزأ كل قسم إلى عدد من الأبواب.

- أما القسم الأول فهو في التعريف بنسبه وذكر بيان شرفه في الحديث والقديم يشتمل على سبعة أبواب وخص الباب السابع منها، بعرض تاريخ بني زيان، وهذا الباب هو الذي له علاقة بموضوعنا وأهم باب في الكتاب لا من حيث الطول فقط بل من حيث المحتوى أيضا.

واهتم القسم الثاني بما "يختص بالملك من الخصال" و القسم الثالث هو "في ذكر ملح ونوادر مستظرفة رويت عن أجناس مختلفة، والرابع والأخير ذكر المواعظ والحكم الوازدة عن مختلف الأمم.

القيمة التاريخية للكتاب :

- إن الميزة الأولى للقسم التاريخي «لنظم الدر »هي أنه جاء على شكل تاريخ مختصر شمل أهم مراحل الدولة العبد الوادية ما عدا ما يسيء بسمعتها من أخبار، وذلك من يوم أسس يغمراسن بن زيان الدولة العبد الوادية 633هـ-1236م حتى 868هـ-1464م في عهد السلطان محمد المتوكل.

إلا أن أكبر ميزة للكتاب هو أنه المصدر العربي الوحيد لتاريخ دولة بني زيان في فترة تزيد على سبعين سنة، أي مع نهاية أخبار السفر الثاني من "زهر البستان" و ذلك سنة 764هـ/1363م، وتاريخ توقف يحيى بن خلدون عن تدوين بغية الرواد" في سنة 777هـ/1376م وانتهاء أخبار كتاب"العبر" و ذلك حوالي سنة 796هـ/1393م. إلى أن يختم التنسي أخباره سنة 868هـ/1464م.

المدخل

الإطار الجغرافي :

1- إقليم الدولة :

- يشغل إقليم هذه الدولة رقعة من الأرض كانت تعرف سابقا بالمغرب الأوسط، ويمكن تحديد معالمها الآن – بما يسمى حاليا – وسط الوطن الجزائري وغربه.

حدودها :

- إنها مرت بحالات مد وجزر، فلم تعرف حدودها حالة واحدة، خاصة الشرقية منها، وهي التي عرفت تطورا ملحوظا منذ اعتلاء السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن عرش تلمسان.
- تطبيقا لوصية يغمراسن ركز معظم حكام الدولة العبدالوادية[1] اهتمامهم نحو توسيع إقليم دولتهم على حساب الحفصيين (الجار الشرقي لدولتهم) فامتدت بذلك الحدود الشرقية لدولتهم حتى جبال الزان[2] أكفادو) المتاخم لإمارة بجاية.

---

[1] انظر عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة: ج / 2ص: 472

انظر نفس المؤلف: العبر: ج: 7، ص: 175/156. يحيى بن خلدون بغية الرواد: ج: 1، ص10

[2] تنسي نظم الدر ص: 184

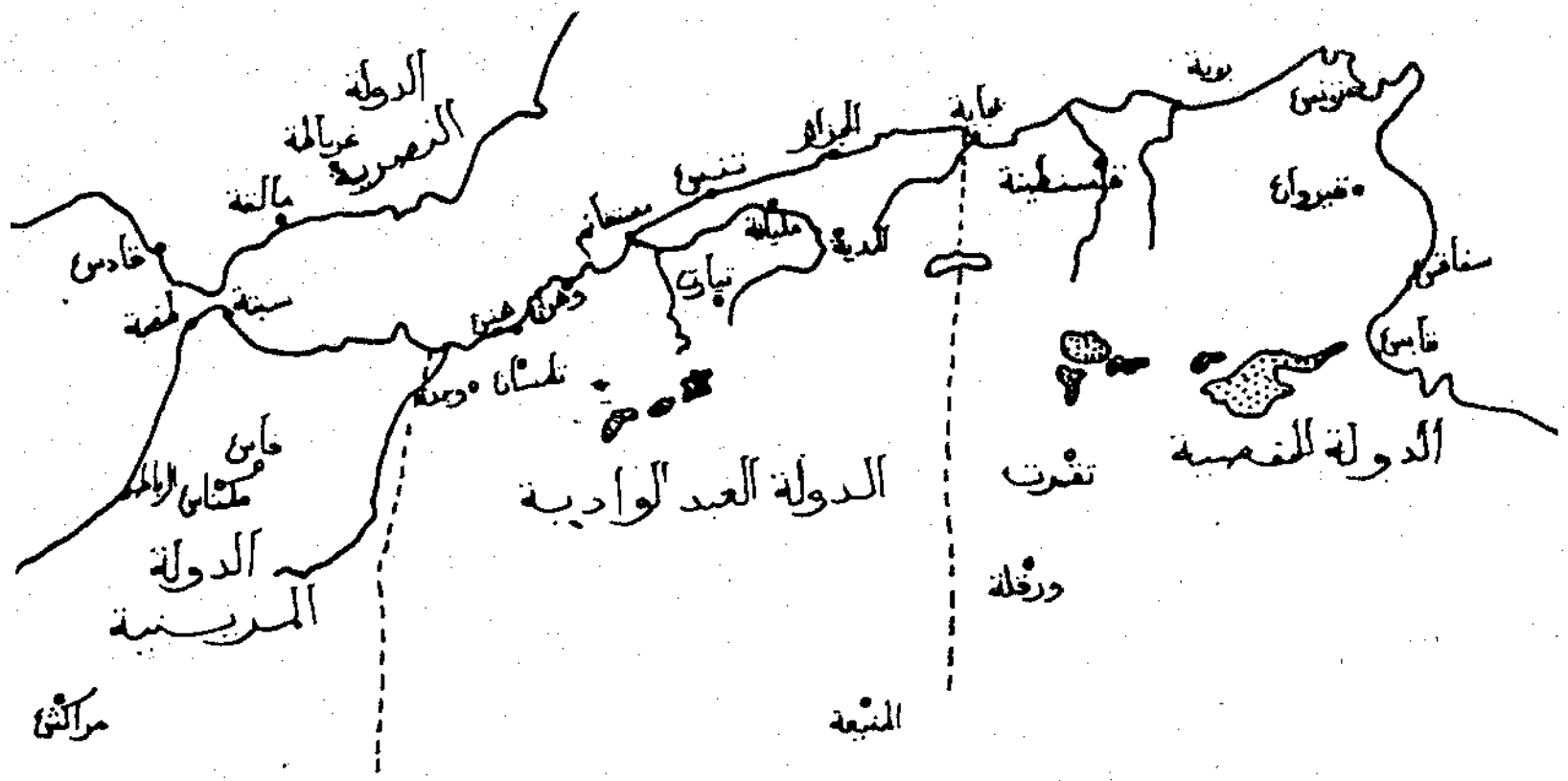

دول المغرب الإسلامي
ما بعد الموحدين.

---- حدود الدول
—— الأودية

- أما الحدود الغربية فامتازت بالثبات والاستقرار، منذ قيام الدولة العبدالوادية ثبتت حدودها الغربية عند مدينة تاوريرت[1].
- وحدود الدولة الجنوبية تنتهي عند سجلماسة - تافيلالت.
- أما الحدود الشمالية فترسمها سواحل البحر الأبيض المتوسط.

2- التضاريس :

أما بالنسبة للمظاهر التضاريسية لهذه المنطقة فإنها تتشكل كالتالي :

أ. **سلسلة جبال الأطلس التلي** : (جبال تلمسان، الضاية، جبال سعيدة، جبال بني شقران، جبال وانشريس، جبال بليدة، جبال جرجرة)

وتختلف هذه الجبال في محاذاتها للبحر من جهة لأخرى مخلفة بعض السهول الساحلية الضيقة من أهمها : سهل وهران، سهل متيجة[2].

ب. **الهضاب العليا**: وهي عبارة عن سهول عليا تمتد جنوب سلسلة الأطلس التلي من ناحية ملوية إلى منطقة الحضنة وتغطي مساحات شاسعة تستغل في مجالات الرعي وبعض الزراعات المعاشية، كالشعير، حيث توجد بها بعض السهول الصالحة للزراعة وخاصة زراعة القمح كسهل، تاهرت و سهل سعيدة[3].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق. ج: 7، ص: 454/227. وهذه المدينة توجد غرب مدينة وجدة ب 136كلم، أنظر أيضا الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص: 146

[2] حليمي عبد القادر: جغرافية الجزائر، دمشق، 1968، ص40.

[3] حليمي - المرجع السابق ص، 45، 46.

ج. **سلسلة الأطلس الصحراوي :** تتصل هذه السلسلة بين المناطق الشمالية الصالحة للزراعة والرعي والمناطق الجنوبية الصحراوية، وتشتمل من الغرب إلى الشرق : جبال القصور- جبال عمور ــ جبال أولاد نايل[1].

ومن الطبيعي أن ينتج عن هذا التنوع في السطح، اختلاف في أنماط المعيشة لدى السكان، حيث نلاحظ ازدواجية قديمة في المجتمع المغربي بين الفلاحين المستقرين والرعاة المتنقلين، كما يلاحظ أن هؤلاء كثيرا ما كانوا يسمحون لأنفسهم بتجاوز المناطق الرعوية الدائمة إلى المناطق الزراعية، الأمر الذي كان يثير حساسية لدى الفلاحين، فنما بين الطرفين نوع من السلوك السلبي في العلاقات أدى أحيانا كثيرة إلى صراعات بين القبائل الرحل والمستقرين، من أصحاب الأراضي التي كانت تداهمها تلك القبائل بمواشيها.

3- المناخ :

وبخصوص المناخ يمكن القول إن مناخ بلاد المغرب الأوسط عموما يمتاز بالازدواجية التي تتجاذب قوة التأثير في المنطقة حسب الفصول وهذه الازدواجية تتمثل في المناخ المتوسطي الرطب، والمناخ الصحراوي الجاف. ومعنى هذا أن منطقة المغرب الأوسط عبارة عن جبهة تلاقي المناخين المتباينين. فالمناخ المتوسطي المتصف بالرطوبة والاعتدال في حالة الطقس، والتهاطل الشتوي، يسود السواحل، ثم يأخذ في التناقص كلما اتجهنا جنوبا، لنترك المجال للمناخ

[1] حليمي عبد القادر – المرجع السابق – ص، 72.

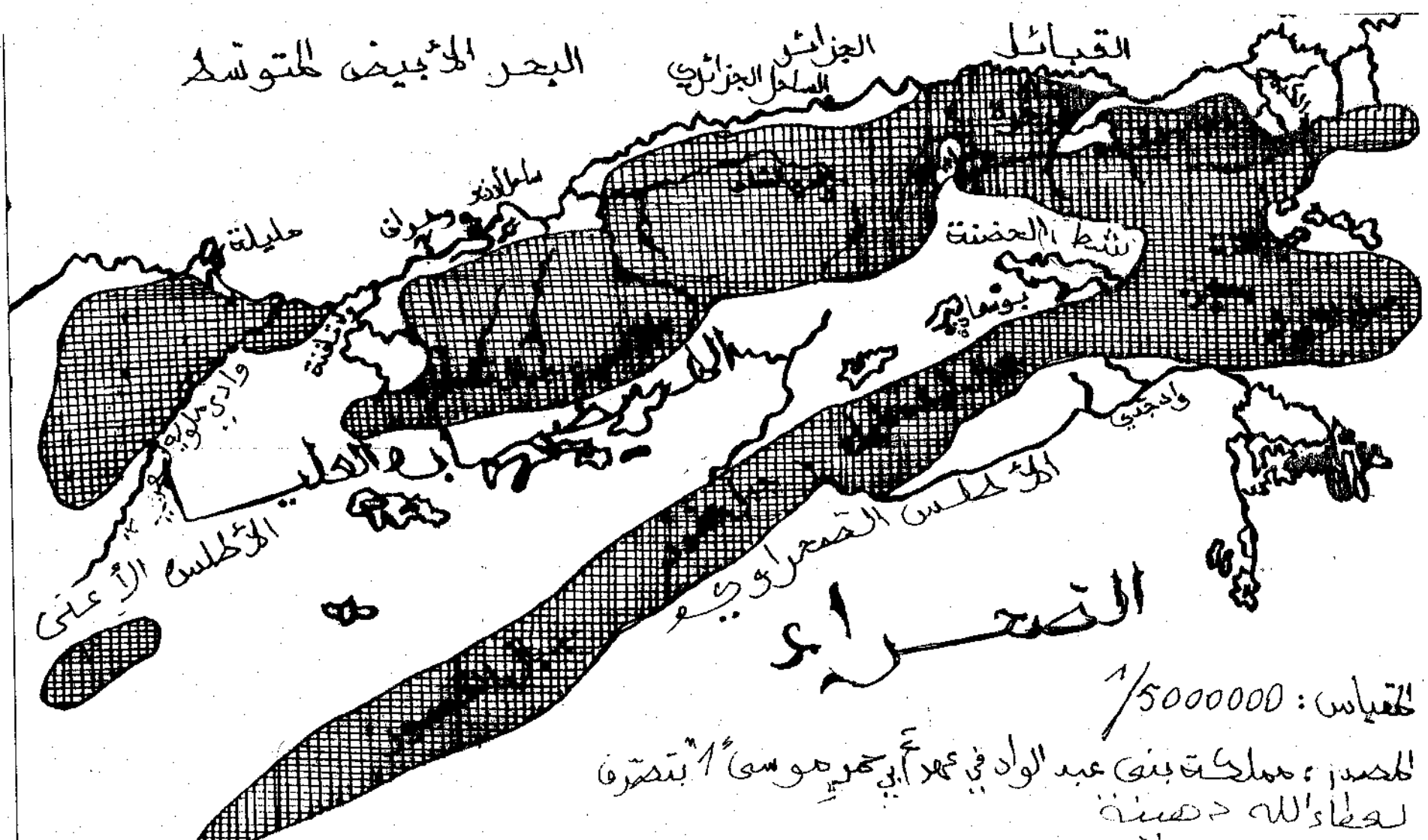

المقياس : 1/5000000

المصدر : مملكة بني عبد الواد في عهد أبي حمو موسى الأول بتصرف لعطاء الله دهينة

الصحراوي المميز بالجفاف، والتفاوت الحراري، وندرة التهاطل، و الزوابع الرملية.

وتعتبر السهول العليا الغربية في المغرب الأوسط أفضل مثال على المناطق الواقعة تحت تأثير المناخين معاً، ويلاحظ أن هذه التقلبات المناخية الضارة تقلل من أهمية المنطقة زراعيا ورعويا، الأمر الذي أصبغ عليها الفقر الدائم، فتحتم على سكانها أن يبحثوا لهم عن مجالات أرضية أخرى تساعدهم على كسب القوت، ومن ثم تعددت حركتهم الموسمية نحو الشمال عبر التاريخ[1].

«وقد نجم عن هذه الخصائص الطبيعية الهامة المتمثلة في اتساع منطقة الهضاب العليا بالمغرب الأوسط إلى اتساع الأراضي الصالحة للرعي، الشيء الذي أدى إلى تكاثر البدو بها حيث أصبحوا يشكلون في المغرب الأوسط قوة يحسب لها حسابها خلال العصر الوسيط، تؤثر بصورة ملحوظة في تطوره السياسي والحضاري[2]»

4- الخصائص البشرية :

يمكن تصنيف سكان الدولة العبدالوادية آنذاك إلى ثلاثة أصناف رئيسية: قبيلة الأسرة المالكة وبطونها، والقبائل الحليفة للأسرة المالكة، والقبائل الغارمة والخاضعة لسلطة الدولة.

---

[1] السلاوي: الاستقصا ج:2ص 145، عبد الرحمن ابن خلدون. المصدر السابق ج 6، ص 55، 61. ج7ص 85

[2] السلاوي. المصدر السابق ج2ص 36، 131، 132، 195.

1- قبيلة الأسرة المالكة :

وتسمى بطبيعة الحال ـ قبيلة بني عبد الـواد، وقـد ذكـر عبـد الرحمـن ابـن خلدون بأن لهذه القبيلة ستة بطون هي : "بنو ياتكين وبنو وللـو وبنـو وصطـف ومصوفة، وبنو تومرت، وبنو القاسم"[1].

وبنو القاسم هم أشد بطون بـني عبـد الـواد قـوة وأعظمهـم عصبيـة ولهـم بدورهم بطون كثيرة، منهم بنو يكثيمن بن القاسـم وكـانت لهـم الرئاسـة علـى القبيلة من قبل، وبنو مطهر بن يمن بـن يزكـن بـن القاسـم، أيضـا بنـو علـي بـن القاسم وهو جد الأسرة المالكة.»

وهذا البطن هو أشد بطون بني القاسم عصبيـة وأقواهـم سـاعدا وأكثفهـم جمعا، وهذا البطن بدوره ينقسم إلى أربعـة أفخـاذ : "بنـو طـاع ا لله وبنـو دلـول وبنو كمي وبنو معطى بن جوهر، والأربعة بنو علي"[2].

هذا وقد كانت زعامة القبيل بن طاع ا لله، وعلى الخصوص في بـني محمـد بن زيدان بن تيدوكسن بن طاع ا لله.

أما العلاقة بين هذا القبيل بجميع بطونه وبين الدولة فيمكن اسـتنتاجها مـن خلال بعض النصوص التي وردت في كتـاب السـلطان أبـي حمـو موسـى الثـاني واسطة السلوك، ومن ذلك قوله: "يا بني إنه ينبغـي لـك أن تكـون محافظـا علـى قبيلك، مواسيا لهم من كثيرك وقليلـك، ولا تمنعهـم مـن خـيرك، وتختـص منهـم لنفسك من يكون محبا ناصحا، ومخلصا صالحـا، ومـن تـراه لاختصـاصك أهـلا، ولتقريبك واصطفائك محـلا وتقـدم الأشـياخ علـى المجمـوع، فـإن التـابع يصلـح

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون. المصدر السابق، ج: 7، ص:149.

[2] عبد الرحمن بن خلدون. المصدرالسابق ، ج: 7،ص: 150.

بالمتبوع، فتحصل على كل جماعة منهم شيخا من كبارهم وأعيانهم وخيارهم، مما في جماعتك وسلطانك باذلا في خدمتك جهد استطاعته، مأمون الغاية من النميمة والغيبة، سالما من النقيصة والريبة، محرضا لجماعته على طاعة سلطانه إلا بالصدق"[1].

ومن خلال هذا النص تتجلى المكانة المعتبرة التي أعطاها السلطان العبدالوادي لأفراد قبيلته.

أي أن قبيل السلطان كان شريكا في الحكم، وشريكا في الفوائد بصورة مباشرة أو غير مباشرة. كما أن النكبات التي تعرفها الدولة تؤثر حتما على قبيل السلطان تأثيرا مباشرا أو غير مباشر.

2- الحلفاء :

اختلفت قائمة الحلفاء من وقت لآخر في الدولة العبدالوادية، نظرا لاضطراب الأمزجة واختلاف المصالح بين عهد وآخر.

مع بداية نشأة الدولة أحس يغمراسن بن زيان بضعف موقفه تجاه جيرانه، خاصة أعراب المعقل، فسارع إلى استقدام قبيلة بني عامر من أوطانهم في شرق البلاد وأقطعهم أراضي حول تلمسان لصد أعراب المعقل[2] والذود عن دولته.

فكانوا بذلك أحلافا له ضد خصومه وأعدائه من بني مرين وغيرهم، ويذكر عبد الرحمن بن خلدون بأن لبني عامر هؤلاء ثلاثة بطون هي : "بنو. يعقوب بن عامر، وبنو حميد بن عامر، وبنو شافع بن عامر". وكانت رئاستهم

---

[1] أبو حمو: واسطة السلوك، ص: 79.

[2] عبد الرحمن بن خلدون.المصدر السابق، ج: 6، ص: 116/105.

في عهد يغمراسن بن زيان "لداود بن هلال بن عطاف بن رداد بن ركيش ابن عياد بن منيع بن يعقوب"[1] ويأتي حميد بن عامر في الدرجة الثانية بعد بني يعقوب بن عامر وشيخهم في عهد يغمراسن بن زيان هو معروف بن سعيد بن رباب بن حامد بن جحوش بن حجاز بن عبيد بن حميد ويعتبر هذا الشيخ بمثابة نائب لداود المذكور آنفا.

«ويبدو أن القبائل الحليفة للدولة تقدم ولاءها - في الغالب - بدوافع نفعية أكثر منها عاطفية. ولهذا كان السلطان ملزما في هذه الحالة بإغداق الأموال وتخصيص الرواتب لرؤساء تلك القبائل حفاظا على ولائهم للدولة»[2]

3- القبائل الغارمة :

وهي جل القبائل الخاضعة للدولة العبدالوادية والتي ترزح تحت سلطانها قصرا وغلبة. وهذه القبائل مطالبة بدفع الغرائم.

وكانت هذه القبائل منذ قيام الدولة العبدالوادية عامل أرق وتعب لسلاطين الدولة العبدالوادية كافة، إذ كانت حياتهم كلها حروبا مع هذه القبائل الرافضة للسلطة كيفما كانت تلك السلطة - حبا في الاستقلال، ورغبة في الانفراد، وكرها لكل عوامل الوحدة والانتظام.

«وبين تلك القبائل على سبيل المثال: مغراوة، وتوجين و مليكش، وغيرها. وطبيعة العلاقة بين تلك القبائل والدولة، تتميز بطابع جبائي إذ كانت تلك القبائل مصدر ثروة الدولة وغناها.

5- النشاط الاقتصادي :

كان يقوم اقتصاد الدولة العبدالوادية على ثلاثة دعائم أساسية هي: النشاط الفلاحي، والحركة التجارية، والحرف والمهن التقليدية.

أ- النشاط الفلاحي :

يعتبر النشاط الفلاحي بدولة بني عبدالوادية بمثابة العمود الفقري لاقتصاد هذه الدولة، لأن هذا النشاط تحترفه نسبة كبيرة جدا من سكان تلك الدولة، بحيث يعتبر مجتمعا بكامله تقريبا فلاحيا.

ويتميز النشاط الفلاحي في هذه الدولة وكما هو الحال في دول المغرب الإسلامي - بطابعه الإقطاعي الواسع[1] إذ كانت جل الأراضي الزراعية والرعوية بالهضاب العليا وبالسهول الوسطى والساحلية - في تلك الدولة - عبارة عن إقطاعات للقبائل والعشائر: الأمازيغية، والعربية.

ومفهوم الإقطاع - هنا - يختلف عن المفهوم الحديث له، ذلك المفهوم الذي تشوبه روح الاستغلال والاستعباد.

فالإقطاع بالمفهوم الإسلامي - يمكن تسميته ب (الالتزام[1] لأن الغرض منه هو التشجيع على استصلاح الأراضي من جهة، ومواصلة خدمتها و الالتزام باستثمارها من جهة أخرى.

---

[1] الإقطاع قديم في الدول، وأصله أن الملك إذا فتح بلادا وأراد استبقاءها واستغلالها فرقها على قواده في مقابل حربهم واتيعابهم، انظر عبد الرحمن بن خلدون نفس المصدر ج:1، ص: 229/228.

والإقطاع في الإسلام يلزم المستفيد باستثمار أرضه وخدمتها، فإن لم يستثمرها المستفيد بالإقطاع وجب انتزاعها منه ثم إقطاعها للذي هو على استعداد لخدمتها واستثمارها[1].

ونظام الإقطاع عمل به في المغرب الإسلامي قبل قيام الدولة العبدالوادية وهذه الدولة بالذات تدرجت نحو الملك والسلطان من الوضع الإقطاعي الذي عرفته كقبيلة، حيث أقطع الموحدون قبيلة بني عبدالواد قبل ارتقائها إلى مرتبة السلطان ـ المغرب الأوسط: من ملوية إلى البطحاء، كما اقطعوا بني توجين، وبني راشد شرق البلاد التي منحت للعبدالواديين[2].

وأوّل من عمل نظام الإقطاع في دولة بني عبد الواد هو السلطان يغمراسن ابن زيان، مؤسس الدولة، حيث أقطع مشائخ قبيلة بني عامر بلاد البطحاء[3]. وتبعه في ذلك التقليد بنوه من سلاطين الدولة.

والذين استفادوا من نظام الإقطاع في عهد الدولة العبدالوادية قبائل كثيرة عبر عهود السلاطين العبدالواديين كافة[4].

هذا ويتم النشاط الفلاحي في دولة بني عبدالواد ضمن محورين رئيسين :

المحور الأول ويتحقق في الأعمال الزراعية. والمحور الثاني يعتمد على تربية المواشي والإبل.

---

[1] انظر حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ص 226/229.

[2] أنظر عبد الرحمن بن خلدون. المصدر السابق، ج: 7،ص: 150/151، 159

[3] عبد الرحمن بن خلدون. المصدر السابق ، ج: 6، ص: 95 – 96.

[4] انظر عبد الرحمن بن خلدون. المصدر السابق، ج: 6، ص 96، 107، 102، 103، 124، 133، 135.

1- الزراعة :

يتم النشاط الزراعي بصورة خاصة على شكلين من النشاط :

الشكل الأول تمثله الزراعة الفصلية غير الدائمة والتي تعمل بها القبائل الرحالة التي لا تستقر لكي تواصل الاعتناء بالأرض.

أما الشكل الثاني فيتم بصورة أكثر جدية وهي الزراعة المستقرة والدائمة ويقوم بها جل السكان عبر سهول البلاد. وهذا النوع من الزراعة له فوائد جمة وأصحاب أكثر خبرة وكفاءة في الميادين الفلاحية عامة.

والمجالات التي تتم فيها النشاطات الزراعية بدولة بني عبدالواد كثيرة ومنها على سبيل المثال: سهل تسالة، سهل وادي شلف، وسهل تيارت، وسهل متيجة، بالإضافة إلى السهول الساحلية الأخرى: كسهل تنس و سهل وهران والأراضي المحيطة بتلمسان.

والإنتاج الزراعي كان يتميز بتنوعه على سبيل المثال :

زراعة الأشجار وفلاحتها، زراعة الحبوب من قمح و شعير و ذرة، بالإضافة إلى أنواع الخضر والفواكه[1].

ولكن زراعة القمح والشعير كانت هي الغالبة على تلك الأنواع كلها تنتجها سهول المغرب الأوسط، ويلي ذلك الزيتون، ثم التين، والرمان[2].

---

[1] أشار يحيى بن خلدون إلى بعض المنتوجات الزراعية التي تنتجها تلمسان فقال: "ويوجد بخارجها خمائل الألفاف و الأدواح الأشبة والحدائق الغالب بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من فواكه، و رمان، والزيتون، والتين ...، تنصب إليها من كل جبلها أنهار من ماء غير آسن ... وبيض بساتينها خارجها ومغارس الشجر ومنابت الحب" أنظر يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج: 1، ص:10.

[2] يحيى بن خلدون. المصدر السابق، ج: 1، ص: 10.

ومن الفواكه والخضر التي كـان سـكان تلمسـان يعرفونهـا ويزرعونهـا في بساتينهم: الفول و الكرنب و البطيخ و الأجاص[1].

2- الرعي وتربية الماشية :

وهذا الميدان يكتنفه غموض لا يمكن - بسببه - استجلاء الحقائق الهامة غير أنه يبدو من خلال بعـض الإشـارات الخاطفـة أن سـكان المنـاطق الجبليـة كـانوا يمارسون في الغالب تربية المواشي[2]، كتوجين، ومغراوة.

أما القبائل الناجعة فأغلب حيواناتهم: الإبل[3].

أما تربية الخيل فيبدو أنها كانت تتم في رعاية سكان السـهول والهضـاب العليا. وتربية البغال في المناطق الجبلية.

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون. المصدر السابق، ج: 7، ص: 198.

[2] يحيى بن خلدون. المصدر السابق، ج: 1، ص 134 - 158.

[3] يصف عبد الرحمن بن خلدون حيـاة البربر بقولـه: "مـلأوا البسـائط، الجبـال مـن تلولـه وأريافـه وضواحيه وأمصاره، يتخذون البيـوت مـن الحجـارة والطين ومـن الخـوص والشـجر ومـن الشـعر والوبر. وألفين أهل العز منهم والغلبة لإنتجـاع المراعـي فيمـا وب مـن الرحلـة،لا يتجـاوزون فيهـا الريف إلى الصحراء والفقر الأملس ومكاسبهم الشاء والبقر والخيل في الغـالب لـلركوب والنتـاج. وربما كانت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شأن العرب، ومعـاش المسـتضعفين منهـم بـالفلح ودواجن السائمة، ومعاش المعتزين أهل الإنتجاع والأطفال في نتـاج الإبـل وظـلال الرمـاح وقطـع السابلة ولباسهم وأكثر أثاثهم من الصوف، يشـتملون الصمـاء بالاكيسـة المعلمـة، ويزغـون عليهـا البرانس الكحل، ورؤوسهم في الغالب حاسرة وربما يتعاهدونها بالحلف"

انظر عبد الرحمن، ج: 6، ص: 175 - 176.

ب- النشاط التجاري :

هذا الموقع الجغرافي جعل من السوق العبدالوادية همزة وصل بين أسواق أوروبا، وأسواق إفريقيا السوداء وهذا بطبيعة الحال يساعد على ازدهار أسواق المغرب الإسلامي اقتصاديا.

وكانت السلع الواردة من أوربا تنحصر في بعض المنسوجات والأسلحة من رماح وسيوف وخناجر، أما السلع الواردة من إفريقيا السوداء فتتلخص في العبيد، والذهب.»

أما السلع الصادرة من السوق العبدالوادية إلى إفريقيا السوداء فأهمها : المنتوجات المحلية أو الأوروبية التي يعاد بيعها، ثم الأسلحة بأنواعها المذكورة آنفا، والمصنوعات الزجاجية. ثم بعض المنتوجات الزراعية، أما السلع المصدرة من الدولة العبدالوادية إلى أوروبا فيمكن حصرها ضمن ما يلي: المنتوجات الفلاحية من قمح وشعير وفواكه وعسل، وزيت ...إلخ وكذلك الصوف والجلود، ثم السلع التي يعاد بيعها بالواسطة، الواردة من إفريقيا السوداء.

وقد كانت المسالك البرية تصنف إلى صنفين من الطرق :

الصنف الأول وتمثله الشبكة التي تربط بين أسواق الدولة ومدنها كافة، وأهم ما في تلك الشبكة الطريق الذي يربط غرب البلاد بشرقها.

ويمكن التعرف على ذلك المسلك من خلال الرحلة التي قام بها ابن بطوطة ـ معاصر الدولة العبدالوادية ـ من طنجة إلى تونس، ومنها إلى مصر.

هذا وقد ذكر ابن بطوطة المدن التي مر بها مع القافلة التي يرافقها وهي كالتالي: طنجة، تلمسان، مليانة، الجزائر، بجاية، قسنطينة، بونة، تونس[1].

و لم يكن بطبيعة الحال هذا المسلك وحيدا، بل ثمة مسالك أخرى جنوبه[2]. كما أن ابن بطوطة عندما عاد من رحلته بحرا ونزل بتنس اتجه منها إلى مازونة، ثم مستغانم، ثم تلمسان، ثم ندرومة، ثم تازة، ثم فاس[3].

ومن جهة أخرى فإن محمد العبدري البلنسي قد سلك نفس الطريق الذي سلكه ابن بطوطة تقريبا، وإن كان أدق في التفاصيل من الأول، فعبر في مسلكه بالمدن التالية: تلمسان، ومليانة، والجزائر، وبجاية، وميلة، وقسنطينة، وبونة، وباجة وتونس.

أما الطريق الواصل بين تلمسان وإفريقيا السوداء، فهو كذلك عبارة عن شبكة من المسالك التي تصل أهم المدن في الشمال الإفريقي بوسط القارة السوداء.

وقد ذكر ابن بطوطة جميع القرى والنقاط المائية التي مرت بها قافلتهم عبر تلك الرحلة المضنية. والقرى التي مر بها في ذهابه منها التي اندثرت وقامت في مكانها قرى أخرى عرفت الآن بأسماء غير الأولى.

---

[1] ومن أهم تلك الرحلات رحلة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي، المعروف بابن بطوطة 704هـ / 779هـ - 1304م / 1377م

[2] ذكر العبدري في رحلته (الرحلة المغربية) بأنه تجنب طريقا يتجه إلى المدية وسار نحو اليسار حتى وصل إلى مليانة. (ص: 22)

[3] الرحلة ج: 2، ص: 757/755.

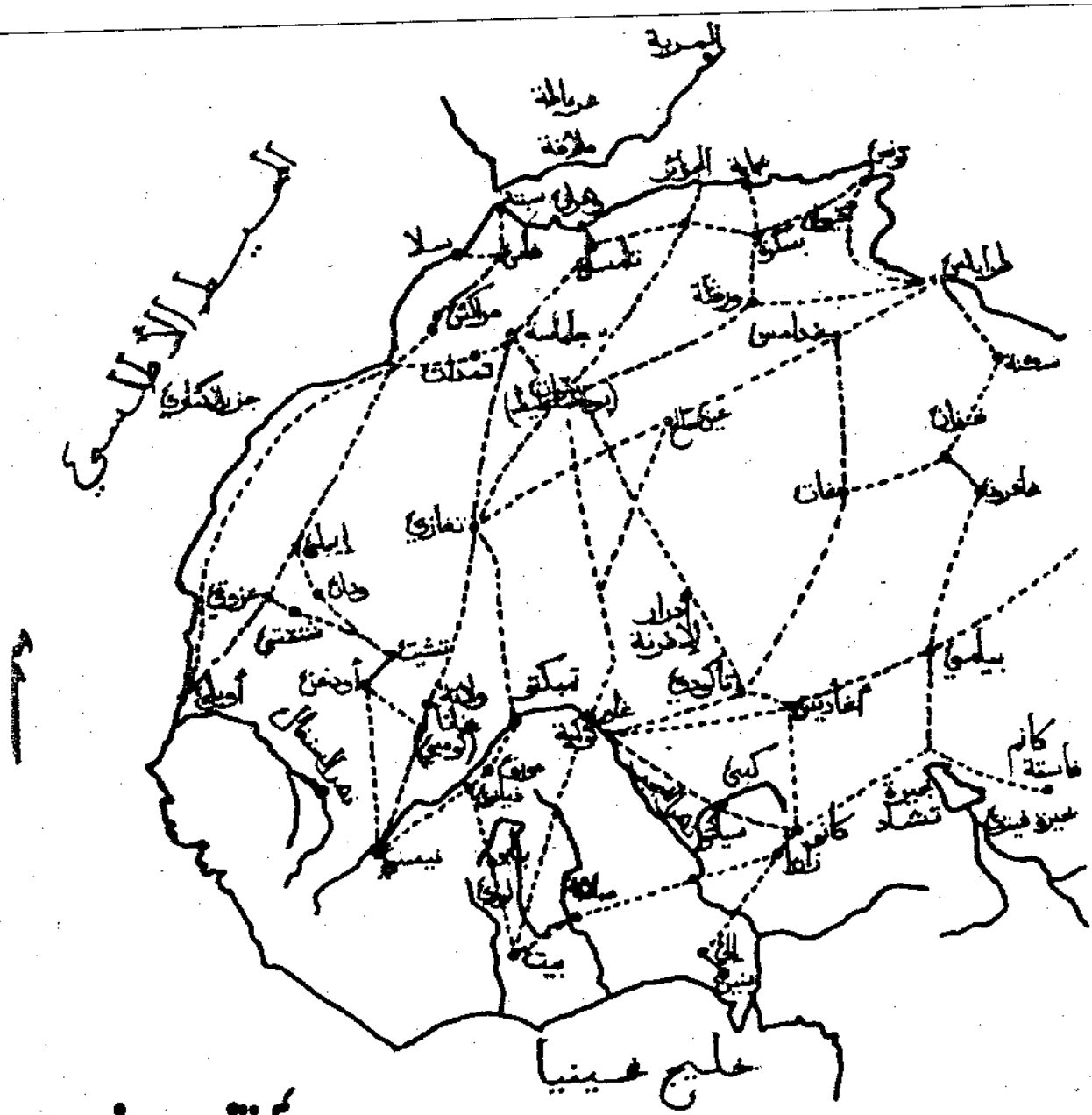

الطرق التجارية عبر الصحراء في القرون الوسطى.

نقلا عن كتاب "les états de l'occident musulman"
لعطاء الله د هسنة.

وهي كالتالي: سجلماسة[1]، وتغازي[2]، وزاغري[3]، وكارسخو[4]، ثم مالي[5]. (وباسم هذه القرية سميت الدولة فيما بعد).

أما الطريق الذي سلكه عند عودته فكان غير الذي ذهب فيه. وعند رجوعه رافق بعض القوافل التجارية الأخرى. حيث مر بالقرى التالية: قرى منسا، ثم ميمة[6]، ثم تمبوكتو، ثم كوكو، ثم تكدا، ثم الهقار، ثم توات، ثم سجلماسة.

هذه بعض المسالك التي كانت تقطعها القوافل التجارية، ناقلة للبضائع المتبادلة بين جنوب القارة وشمالها، وبالتالي بين القارة الإفريقية الممثلة بالمغرب الإسلامي وأوروبا، فكان هذا المغرب أو شمال إفريقيا همزة وصل بين القارتين (أوروبا وإفريقيا).

أما الموانئ العبدالوادية التي تتعامل مع أوروبا عبر البحر المتوسط فهي : هنين، ووهران، وأرزيو، وتنس، وبرشك، وشرشال، والجزائر.

ج- الصناعات التقليدية :

كما أن الصناعات التقليدية لم تتعرض لها مصادر الدولة العبدالوادية إلا عرضا موجزا. الأمر الذي يضع الباحث أمام فراغ كبير. وكل الذي يمكن

---

[1] شيدت على أطلال سجلماسة الآن قرية تدعى الريصالي.

[2] وهي الآن في تراب مورطانيا، وتدعى ولاته.

[3] تدعى الآن ديورة

[4] تقابلها قرية نكوكورو.

[5] قامت على أطلالها قرية تسمى نيامي.

[6] لم تعد هذه القرية الآن حيث اندثرت.

الاستناد إليه في هذا الموضوع هو أن يحيى بن خلدون تكلم عن صناعة المنسوجات الصوفية بتلمسان فاثنى عليها بقوله: "وغالب تكسبهم الفلاحة وحوك الصوف، يتفانون في عمل أثوابه الرقاق، فتلقى الكساء، والبرنوس عندهم من ثماني أواقي، والأحرام من خمس، وبذلك عرفوا في القديم والحديث ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا[1]".

ولم تكن عاصمة الدولة مقتصرة بطبيعة الحال على هذا النوع من الصناعة والحرف فقط، بل تنوعت الصنائع في تلك الحضرة وذلك بفضل ما جمع السلاطين من صناع وحرفيين مسلمين، ومسيحيين أسرى، وربما يهود من الزميين. وقد تضمنت إحدى رسائل أبي تاشفين إلى ملك الأرغون معلومات تفيد بوجود أسرى فنيين وصناع وحرفيين بتلمسان[2].

وفي موضع آخر من كتاب بغية الرواد أشار يحيى بن خلدون إلى إنشاء مصانع للأسلحة وغيرها في عهد أبي حمو موسى الثاني فقال: "إن دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف أصنافهم وتباين لغاتهم وأديناهم، فمن دارق، ورماح، وذراع، ولجام، ووشاء، وسراج، وخباء، ونجار، وحداد، وصائغ، ودباج، وغير ذلك فتستك لأصواتهم وآلاتهم الأسماع، وتحار في أحكام صنائعهم، الأذهان، وتوقف دون بصرهم الهائل الأبصار"[3].

---

[1] انظر يحيى بن خلدون. المصدر السابق، ج: 1، ص: 22.

[2] مجلة تاريخ وحضارة المغرب، العدد: 10، ص: 11.

[3] يحيى بن خلدون. المصدر السابق، ج: 2، ص 161.

ومن خلال هذا النص يتضح أن بتلمسان كان من أنواع الصنائع ما جعل السلطان أبا حمو موسى الثاني يخصص لها دارا بمثابة المصنع المختلف الاختصاصات والصنائع.

الفصل الأول

ظروف نشأة الدولة العبد الوادية

1- الأوضاع السياسية لمنطقة المغرب الإسلامي قبيل قيام الدولة العبد الوادية :

لقد ظلت الدولة الموحدية متحكمة في زمام السلطة ووحدة الشمال الإفريقي طيلة فترة قوتها وقد اكتسب المغرب الإسلامي بهذه الوحدة قوة تمكن بها من نشر نفوذه السياسي على بلاد الأندلس واثبت أن بقاء الأندلس، رهين ببقاء هذه الدولة عظيمة قوية[1]. ولما بدأ الضعف يتسرب إلى دولة بني عبد المؤمن من الموحدين، ظهر المنشقون في المغرب والأندلس، يتناولون أطراف الدولة ثم قواعدها بالاستيلاء والاستقلال[2].

ويعود تصدع شمل هذه الدولة بصفة خاصة إلى معركة العقاب(1212/609) هذه المعركة التي تعتبر من أهم العوامل التي أدت إلى تفكك الدولة الموحدية التي شيد صرحها عبد المؤمن ومن بعده كبار أمراء هذه الدولة[3].

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق ج، 6، ص، 233، 234، ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص. 122، 123، 125.

[2] بن أبي زرع: المصدر السابق، ص، 143، الزركشي: تاريخ الدولتين، ص، 10، عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق ج، 6 ص190، 191، 243.

[3] هي المعركة التي نشبت بين جيش الموحدين بقيادة الخليفة محمد الناصر لدين الله وجيش قشتالة وحلفائها بقيادة الفونسو الثامن ملك قشتالة. ففي يوم الإثنين 15 صفر 16/609 يوليو 1212م. بدأت المعركة بالقرب من أبرة، واسفرت عن هزيمة نكراء بالمسلمين كانت خاتمة الوجود الموحدي بالأندلس كما كانت بداية النهاية للوجود الإسلامي بتلك الربوع اتفق كل من المراكشي في المعجب في تلخيص أخبار المغرب نشره محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـــ القاهرة 1949 ص. 322، ومؤلف روض القرطاس، ص، 238 على التاريخ المذكور، بينما يجعل ابن خلدون تاريخ نشوبها في أواخر صفر 609هـ / - ج: 6، ص 249 أنظر تفاصيل المعركة في: مؤلف عبد الله عنان

هذا بالإضافة إلى وجود عوامل أخرى كان من بينهـا ظهـور عصيـان مـن طرف رؤساء القبائل[1]. وخروج ولاة النواحي عنها، حيث استبدوا بالإدارة ونما فيهم شعور القوة الفردية، كما تأزم الوضـع السياسـي بـين سـادة أمـراء الأسـرة الموحدية وقد اشتدت هذه الأزمة بعد وفاة العادل سـنة (624هـ) وتـولى العـرش إدريس المأمون، حيث ظهر له منافس يدعى يحيـى المعتصـم وكـان ذلـك حـوالي سنة 633هـ[2]. فساد في البلاد هدوء نسبي، وعاد الناس إلى حياة الأمن والاستقرار فحرثوا الأرض ونظموا شؤونهم بعد مدة طويلة.

وفي هذه الآونة كان بنو مرين يرسخون أقدامهم ببوادي المغـرب الأقصـى فأطاعتهم معظم القبائل كتسولة ومكناسة[3].

= – عصر المرابطين والموحدين – الجـزء الثـاني، ص282 – 326، وفي مؤلـف الدكتـور عبـد العزيـز سالم: المغرب الإسلامي القاهرة 1966. ص، 826.

[1] من بين الثورات التي خرجت على دولة الموحدين ثورة بني غانية ويعود أصله إلى أسرة بني غانيـة الصنهاجية، ويقال أنهم عرفوا ببني غانية نسبة إلى اسم أمهم غانية.

لقد طرق يحيى بن غانية أبواب حواضـر المغـرب الكـبرى نعـبر أن يسـطر علـى طرابلـس وقـابس، وأحدث تدميرا وتخريبا من أجل إحياء الدولة المرابطية المنقرضة كما تسبب بحركتـه هـذه تشـويش الرأي العام بربوع المغرب الإسلامي كله.

-أنظر عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7، ص: 149/150.

[2] الزكشي: المصدر السابق، ص21، 22، 24، 26، 30 وراجـع كذلـك السـلاوي، المصـدر السـابق ج:2 ص244 ويحيى بن خلدون: المصدر السابق، ص200.

[3] مكناسة: قبيلة مشهورة من قبائل زناتة وإليها نسـبت مدينـة مكنـاس اليـوم والـتي كـانت تسـمى "مكناسة الزيتون". وقد شادت هـذه القبيلـة مدنـا زاهـرة منهـا "مكناسـة الأندلـس" الـتي وصفهـا الإدريسي في رحلته وهي مدينة تقع في منطقة الثغر الأعلى سرقسـطة عنـد ملتقـى نهـر الإبـرة ولا يزال مكانها يعرف باسم "مكناسة". على أن أشـهر المـدن الـتي تنسـب إلى قبيلـة مكناسـة مدينـة

وفي يوم الخميس 9 جمادى الثانية سنة (640هـ/1242م) توفي الخليفة الرشيد[1] وتقلد زمام الأمور بعده أخوه الخليفة أبو الحسن علي بن أبي العلاء الملقب بالسعيد وكان بطلا مقداما ذا عزيمة قوية لا تلين وإرادة لا تقهر[2].

وكان أول عمل قام به هو القبض على أشياخ الموحدين وسجنهم، كما سجن حبابة الرومية أم أخيه الرشيد اتقاء شرها ودسائسها ثم أخذ في مصانعة زعماء العرب وتنظيم هياكل الدولة، وغادر مراكش إلى سجلماسة الثائرة عليه مكتسحا كل الأقاليم القريبة منها[3].

ثم زحف على بني مرين في حشود تقدر بعشرة آلاف مقاتل أو يزيد وسمع بنو مرين بزحفه فاستعدوا أشد الإستعداد، وتم اللقاء بين الطرفين في معركة عنيفة قرب فاس سنة 642هـ/244 سقط فيها قتلى من الجانبين و هزم فيها المرينيين وقتل أميرهم فارتبكت صفوفهم وولوا الأدبار فارين تحت جنح الظلام

= مكناس الحالية وهي تقع جنوب غرب فاس وعلى مقربة من جبل زهرون وقد سماها المرينيون وتركوا بها آثار ما تزال قائمة إلى اليوم عاصمة الإقليم الذي يحمل إسمها، كما تعتبر من الحواضر المغربية الهامة ـ أنظر كتاب- أعمال الأعلام- القسم الثالث للسان الدين بن الخطيب نشره العبادي أحمد مختار ومحمد ابراهيم الكتاني تحت عنوان: المغرب العربي في العصر الوسيط- ص،169.

[1] جاء في روض القرطاس أن الخليفة الرشيد مات غرقا عندما كان يتنزه ببحريه قصره على متن قارب صغير انقلب به – ص، 255، ويقول بن عذاري في البيان المغرب أنه أصيب بنزلة برد شديدة توفي على إثرها بقصره، البيان المغرب – ص، 55.

[2] تولى الخليفة السعيد الموحدي الحكم من سنة، 640هـ – 1242م إلى سنة 646هـ/1248م. وهو الذي لقي حتفه في معركة مع يغمراسن، راجع: يحيى بن خلدون : المصدر السابق ج. 1ص، 206.

[3] ابن عذاري: البيان المغرب ص359، عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق ج:6 ص 256، 257.

تاركين محلتهم وما فيها من متاع وذخيرة وأموال نهبا للموحدين وكانت هزيمة ثقيلة على بني مرين حدت من عزائمهم وقتا طويلا[1].

وفاوض الخليفة السعيد يغمراسن بن زيان، فانضم إليه طائعا في جماعة من فرسان بني عبد الواد، ولكن محاولة الخليفة السعيد باءت بالفشل، فبنو عسكر[2] نكثوا عهدهم واحتجزوا بعض الجنود من الحشم والروم واشترطوا لإطلاق سراحهم الإفراج عن رهائنهم، وكان يغمراسن بن زيان زعيما لا تؤمن نياته وخططه، فلم يلبث أن توجس من تصرفات الخليفة السعيد فحذا حذو بني عسكر وعاد مسرعا بجنده إلى تلمسان[3]، واضطر الخليفة السعيد بدوره إلى العدول عن حرب بني مرين والعودة إلى مراكش.

أمّا بنو مرين فقد شددوا الخناق على مكناسة ومنعوا عنها الماء والغذاء حتى يئس سكانها من جدوى المقاومة فثاروا على عامل الموحدين بها وقتلوه،

---

[1] أمير بني مرين في هذه المعركة هو أبو معرف محمد بن عبد الحق ووقع اللقاء في أحواز فاس في مكان يسمى "أغلان" ويقال أن قاتله هو فارس من فرسان الروم يدعى "خوان جايتان" راجع الدخيرة السنية ص، 66، 67، ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، 17، ابن أبي زرع، المصدر السابق ص 193، ابن عذاري في البيان المغرب ص 366.

[2] بنو عسكر إخوة بني عمامة وكلاهما من بني مرين، كانت الرئاسة في بني عسكر بن محمد، ولما قتل المخضب بن عسكر سنة 540هـ/1145م في اشتباك مع الموحدين، انتقلت الزعلمة إلى ابن عمه أبي بكر بن حمامة بن محمد، وبذلك أصبح بنو حمامة سادة الموقف وأصحاب القيادة في بني مرين، ولم يكن بنو عسكر راضين على ذلك خاصة بعد استفحال أمرهم فحاولوا القضاء عليهم وتأمروا مع عرب ريح أولياء الموحدين في تلك المناطق، غير أن الدائرة كانت عليهم - راجع: الدخيرة السنية، ص23. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج:7، ص 342، 349.

[3] ابن خلدون: المصدر السابق ج-7-ص 353، ابن أبي زرع، المصدر السابق ص 292.

فسلمت المدينة وفتحت أبوابها للمرينيين فدخلوها في شهر ربيع الأول سنة 643هـ/1245م وكانت أول حاضرة يستولون عليها[1].

وكان لذلك الانتصار وقع سيئ في البلاد الموحدية، وقد بدا للناس عندئذ ما آلت إليه الإمبراطورية الموحدية الكبرى من التفكك والتمزق بعد انفصال تونس، والأندلس، وتلمسان. وتوغل بنو مرين في أعماق المغرب عدا الجهات الجنوبية، واستولوا على مكناسة وهي لا تبعد عن فاس العاصمة الثانية سوى مسافة قصيرة فكان لزاما على الخليفة السعيد أن ينهض بقوة وعزم لتدارك ذلك الصدع الذي ينذر بالانهيار، فاستنفر الموحدين والمصامدة وكل القبائل الموالية له، ولحق به عرب سفيان ووافته جشم وغيرها من طوائف العرب واجتمعت له حشود عظيمة يضيق لها الفضاء[2].

وخرج السعيد من مراكش في شهر ذي الحجة 645/ أفريل 1248 يريد مكناسة وبني مرين أولا ثم تلمسان ويغمراسن بن زيان ثانيا ثم افريقية و بني أبي حفص.

فسار حتى عسكر بتانسيفت[3] وقد اهتزت بلاد المغرب لحركته فانتشر الرعب والهلع في أوساط مناوئيه، فسارعت القبائل إليه تجدد البيعة وتطلب

---

[1] الدخيرة السنية ص68، 70، ابن خلدون: المصدر السابق ج7ص، 171، 172 ابن عذاري: المصدر السابق ص373، 378.

[2] الدخيرة السنية ص76، 77، ابن عذاري: المصدر السابق ص386، 387

ابن خلدون : المصدر السابق ج : 7، ص 172

[3] تانسيفت: نهر من أنهار المغرب، تسقي مياهه حوز مراكش في طريقه إلى مصبه من آسفي، الصويرة بالمحيط الأطلسي ويبلغ طوله حوالي؛ 25كلم.

الصفح، وتقدم سعيد إلى مكناسة، فتلقاه أهلها خاضعين مستشفعين إليه بشيوخهم[1] وصبيانهم، فعفا عنهم ثم تابع سيره إلى فاس فنزل بظاهرها واستقبله أشياخها و فقهاؤها يؤدون له البيعة ويجددون له الطاعة والولاء فأكرم و فادتهم. وتابع طريقه حتى نزل وادي ملوية ورباط تازا و قبالة منازل بني مرين. ورأى الأمير أبو بكر تلك الحشود فلجأ إلى بلاد الريف المنيعة وراسل الخليفة السعيد في شأن الهدنة بينهما ملتزما له بالتنازل عن الجهات التي فتحها بنو مرين وعرض عليه مساعدته ليحارب يغمراسن "يا أمير المؤمنين، لا تتعب نفسك في أمر يغمراسن، أنا أكفيك أمره. فارجع إلى حضرتك"[2] لكن الخليفة السعيد رفض هذا العرض بعد استشارة كبار مساعديه وطلب منه أن يبعث له بخمسمئة فارس من بني مرين لينضموا إلى صفوف جيشه فبعثها له[3].

ولما وصل على مقربة من تلمسان، بعث إلى يغمراسن يدعوه للمثول أمامه وتقديم البيعة والدخول في طاعته، فاعتذر يغمراسن عن القدوم وأكد طاعته واستعداده لإرسال بعض الفرسان ليحاربوا في صفوف الموحدين أثناء زحفهم على إفريقية ولجأ في قلة من انصاره إلى قلعة تيمزجزجت[4] جنوب مدينة وجدة

---

[1] بعث أهل مكناسة فقهاءهم وعلماءهم يحملون كتابا من انشاء ابن عبدون يطلبون فيه من الخليفة السعيد الصفح عما صدر منهم في حقه وقد نقل لنا ابن عذاري نص هذا الكتاب في البيان – ص378–379.

[2] ابن أبي زرع المصدر السابق – ص 210، 211.

[3] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق ج7: ص169، ابن أبي زرع : المصدر السابق – ص210. التنسي : المصدر السابق ص 170

[4] هي قلعة حصية تقع جنوب وجدة، قرب جبل العصفور في الحدود الجزائرية المغربية، أنظر روض القرطاس بن أبي زرع–ص، 187، عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ص 168، 169.

وألح الخليفة السعيد على وجوب مقدم يغمراسن لكن يغمراسن أصر على موقفه، فعزم الخليفة السعيد على مطاردته وسار إلى القلعة التي امتنع بها يغمراسن[1].

وبينما كان ليلة الثلاثاء آخر صفر سنة 646هـ/23 يونيو 1248م يخرج صحبة وزيره ابن عطوش رغم نصيحة مساعديه له بعدم التوغل في تلك الشعب والأغوار فلما توسط كمائن بني عبد الواد فانقضوا عليه بمنتهى العنف فقتل وزيره ابن عطوش وتلاه هو بعد أن سقط من فرسه ومزق الموحدون شرق ممزق وارتد ت فلولهم صوب المحلة الموحدية، فساد الرعب والفزع في صفوف الموحدين.

ففروا مسرعين نحو مراكش تاركين محلتهم نهبا مستباحا ليغمراسن[2].

و يمكن أن نحلل أسباب فشل الدولة الموحدية في فرض سلطانها وقوتها على تلك القبائل الثائرة عليها من بربرية وعربية كالأتي :

---

[1] البيان المغرب – ص، 387–388، وراجع كذلك تاريخ الدولتين للزركشي، ص، 30، 31 وكذلك الاستقصا للناصري، ص247، 248 وكذلك تفح الطيب للمقري، ص606، يحيى بن خلدون : المصدر السابق ج1، ص، 206.

رجع التنسي : المصدر السابق ص170، ابن أبي زرع : المصدر السابق – ص292، عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ج: 7–ص353.

[2] دفن في مقبرة أبي مدين أبو الحسن السعيد من خلفاء الموحدين بن عبد المؤمن المتوفي سنة 646هـ/1248 جاء إلى تلمسان لمحاربة يغمراسن الزياني فاعتصم هذا بقلعة تيمزجزجت قرب وجدة وحاصره أبو الحسن السعيد بها ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع خرج السعيد في وقت القيلولة على حين غفلة من الناس فعرفه رجال يغمراسن فانقضوا عليه وقتلوه وبادر يغمراسن إلى السعيد فنزل إليه وهو صريع على الأرض فحياه وفداه وأقسم له على البراءة من دمه.

إن موقعة العقاب الحاسمة، جاءت لتعزز عوامل خطيرة أخرى، كانت تجتمع تباعا، لتحدث آثارها المخربة الماديةوالأدبية، في صرح الدولة الموحدية.

وقد كانت هذه العوامل تعمل عملها حتى في ظل عصر النهضة، وعصر الخلفاء الأقوياء، وقد كان في مقدمة هذه العوامل، نظام الحكومة الموحدية ذاته وأسلوب الحكم الموحدي. فقد كانت الحكومة الموحدية تقوم على أساس العصبية القبلية والأسرة، وكان الخليفة الموحدي وهو رأس الدولة يجعل من أقطار الدولة وعمالاتها اقطاعات قبلية وعائلية، فلا يتولى الحكم في الأقطار والعمالات سوى السادة من أبناء الخليفة، وأبناء عمومته وقرابته، إلا في أحوال نادرة، وكانت هذه القاعدة تطبق في المغرب والأندلس في وقت واحد. ولم يكن أولئك السادة أو الزعماء القبليين، الذين يتولون الحكم، في المقاطعات والمدن يتمتعون بمستوى عال، من الكفاءة والحزم والنزاهة، وإن كان منهم في أحيان كثيرة، رجال من ذوي المقدرة، والنباهة والعفة وقادة من أقدر رجال الحرب. ولاشك أن هذا الأسلوب الإقطاعي الضيق، في حكم العمالات والمدن، لم يكن

= ولما سكنت الفتنة نظر يغمراسن في شأن الخليفة فحمله على أعواده ودفنه بالعباد بمقبرة الشيخ أبي مدين ثم نظر في شأن حرمه، جاءها واعتذر لها ثم أصبحهن جملة من مشيخة بني عبد الواد إلى مأمنهن بدرعة، فكان يغمراسن بذلك مضرب حديث جميل في الإبقاء على الحرم ورعي حقوق الملك، واستولى يغمراسن على فسطاط السلطان والذخيرة التي كانت فيه ومنها مصحف عثمان الذي يزعمون أنه المصاحف التي انتسخت في عهد خلافته وأنه كان في خزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ثم صدر إلى خزائر الموحدين.

أنظر بتفصيل في البغية ليحيى بن خلدون ج: 1ص، 206، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7ص 170، 171، التنسي المصدر السابق ص170، ابن أبي زرع : المصدر السابق ص 293، ابن عذاري: المصدر السابق، ص 387، 388.

دائما كفيلا بتحقيق النظام والأمن والرخاء، أو بالدفاع عن مختلف أقطار الإمبراطورية وثغورها وقد كشفت حوادث الأندلس وإفريقية من ضعف هذا النظام وقصوره.

وإذا تركنا العوامل المادية جانبا فإن العوامل الأدبية قد لعبت أيضا، دورا في هذه المأساة التاريخية. ذلك أن الدولة الموحدية، قامت على أساس الإمامة المهدوية، والعقيدة الموحدية، وكانت هذه الأسس بغض النظر عن حقيقة أمرها، توثق أواصر الزعامة الموحدية وتجمع كلمة الموحدين القبلية والعقيدية، حول إمامة واحدة، فلما تحولت الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية، وانحصرت في بني عبد المؤمن ضعفت هذه الأواصر العقيدية التي كانت توثق بين الزعامة الموحدية .

و لم يظهر الخلفاء الموحدون من بعد عبد المؤمن أية حماسة ظاهرة في تمجيد الإمامة المهدوية. وكان الخليفة المنصور بالعكس، يبدي ريبه في صحة إمامة المهدي، وفي عصمته، ولكنه لم يجرأ على أن يحدث أي تغيير ظاهر، في رسوم الإمامة المهدية، فلما تولى ولده أبو العلاء إدريس المأمون الخلافة، كان في ذلك أشد منه جرأة وإقداما، فأصدر مرسومه الشهير بإلغاء الإمامة المهدوية ومحو رسومها وآثارها سنة 627هـ وأقام بذلك ثورة حقيقية في كيان العقيدة الموحدية.

وكان من أثر هذا الاجتراء على محو تراث المهدي ووصيته الدينية، أن خرج معظم الأشياخ الموحدين على خلافة بني عبد المؤمن، ولجأوا إلى منازلهم في جبال المصامدة. وبالرغم من أن هذا الانفصام لم يكن له أثر مباشر من الناحية المادية فقد كان له من الناحية الأدبية اعمق وقع، وفقدت خلافة مراكش من جرائه كثيرا مما كانت تتمتع به، من التأييد الروحي والقبلي، ولا سيما في منطقة جبال المصامدة وبلاد السوس.

فلما كان عهد الرشيد ولد المأمون، وقع التقرب بين الزعماء الموحدين وبين الخلافة الموحدية، وأعاد الرشيد رسوم الإمامة المهدية، وتقاليدها السابقة، ارضاء لهؤلاء الزعماء، و جمعا للكلمة. ولكن الخلافة الموحدية لم تبرأ من ذلك الصدع الذي أصابها، و لم يكن ذلك التقرب الجديد بينهما وبين أوليائها القدماء، وثيق العرى، بل كانت تفشاه الريب المتبادلة والحذر الدائم. و نتيجة هذه العوامل كلها التي سبق ذكرها، لقد فشل الموحدون في ذلك الوقت في نشر مفهوم مضمون الدولة والحياة الحضرية بين القبائل البربرية العديدة وخصوصا أنهم كانوا دائبين على التمييز في جميع مجالات النشاط بين قبائل مصمودة وزناتة من جهة وبين باقي البربر من جهة أخرى. وكان الفشل معناه ضعف مقاومتهم لتهديد البدو المستمر من جهة ولإضطراد زيادة القوة الأسبانية من جهة أخرى، ولتفادي ذلك قسم الموحدون حكومة إمبراطوريتهم مع أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر إلى قسمين شرقي وغربي حيث أعطوا للحفصيين حكم الجزء الشرقي من الإمبراطورية من تونس[1].

وقد استطاع الموحدون أن يصدوا تيار الجماعات البدوية المتدفقة إليهم ونجحوا في ذلك نجاحا كبيرا، ولكن الحروب ضدهم زادت حدتها، بعد تحطيم وحدة المغرب العربي، و أخذ الجزء الغربي من المغرب الإسلامي يقاسي من جراء هزيمته مع إسبانيا عام 1212م و من جراء سيطرة قبائل زناتة على المداخل الشرقية لمراكش في حين أصبحت تونس تحت حكم الحفصيين كجزيرة مستقلة عن بقية أجراء المغرب الإسلامي[2].

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون – المصدر السابق ج: 6 ص 264.

[2] ابن خلدون ـ المصدر السابق ج: 6 ص 270، 271.

على أي حال انفرط عقد المغرب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي وغابت شمس إمبراطورية الموحدين إذ اضمحلت وحل محلها بالتدريج دول ثلاث، دولة الحفصين في تونس وبني عبد الواد في المغرب الأوسط وبني مرين في المغرب الأقصى.

كما أن هذه الدول لم تعترف بعضها لبعض بالاستقلال، فاستمرت الحروب بينها وتقاربت قواتهم الحربية والسياسية فلم ينحسم النزاع. وكان ملوك تلك الدول في حاجة إلى العرب[1] لكن اضطربت سياستهم معهم. فإذا احتاجوا إليهم أقطعوهم الأراضي الواسعة وجباية القبائل المستضعفة وأغدقوهم بالهدايا والأموال وقربوهم بالصهر والاستشارة وإذا استغنوا عنهم بالسلم قلبوا لهم ظهر المجن وحاولوا تجريدهم من امتيازاتهم.

---

[1] العرب: العرب المستوطنون بالجزائر إنما هم الهلاليون وأحلافهم وأحلاف الهلاليين هم عرب المعقل. لقد تجند المعقل لبني هلال منذ أمر قديم ن ودخلوا معهم المغرب وانتشروا في الصحاري وكثروا بمن اندمج فيهم من غير نسبهم من فزارة وبني سليم وبين هلال أحياء مع المعقل أيضا من مسلم، وسعيد، والعمور، وكرمة، والمهاية وحصين مواطنهم تمتد من قبلة تلمسان إلى المحيط إلى سجلماسة.

أما ذوو عبيد الله فمواطنهم بين تلمسان ووجدة إلى مصب وادي ملوية ومنبع وادي "صا" من القبلة ويبلغون في رحلتهم تراث ويجاورهم شرقا بنو عامر من بني هلال وبني القبلتين حروب.

انظر بتفصيل عبد الرحمن بن خلدون: العبر: ج-6، ص82 - معجم القبائل العرب القديم والجديد ج2 تأليف عمر رضا كحال ص714.

ذوي عبد الله من المعقل كانت مواطنهم بين تلمسان وتاوريرت في التل وكانت بينهم وبين عامر وزعبة فتنة وحروب وكان لهم مع بني عبد الواد مثلها - انظر بتفصيل عبد الرحمن بن خلدون العبر ج6 - ص.58 - 61 معجم قبائل العرب القديم والحديثة ص746.

وكان العرب يحسنون الاستفادة في أمثال هذه الظروف لتقوية حريتهم وتوسيع مجلات تنقلهم في الشمال والجنوب. وكانوا يفترقون حسب افتراق مصالحهم على الدول والملوك وقد نتج عن هذه السياسة ضعف الدول وفقدان الأمن وقلة الإنتاج و اشتداد العداوة بين القبائل.

وكثيرا ما تكون الحروب بين قبيلتين متجاورتين لأسباب أهمها النزاع على وسائل الحياة.

لكن الظاهرة التي تستحق التسجيل فيما يتعلق بهذه المحاولات، هي أنها لم تنطلق من منطلق انفصالي، بل أن كل واحد من الذين ثاروا على السلطة المركزية كان يحاول أن يحقق تحت ظله، نفس الوحدة التي كانت موجودة في عهد الموحدين، لكن هناك عوامل أخرى تبين بعضا من مظاهرها وجزئياتها هنا، هي التي حالت دون تحقيق هذه الوحدة، وابرز هذه العوامل هو التكتل الذي قد تم بين بعض الفرق الهلالية، وبين بعض القبائل البربرية التي لم تستقر في المدن أو حولها، مما حال دون أن يتحقق التوازن بين الريف والمدينة، كما منع المدينة من أن تنجح في بسط نفوذها على الريف والمدينة لمدة طويلة.

وزاد في أهمية هذا العامل أن الثورات التي نجحت بعد ضعف وانهيار دولة الموحدين، خلفت خرائب، مما ضاعفت من نسبة الاختلال في التوازن بين المدينة والريف، وضعف سلطان المدينة بحيث أصبحت عاجزة عن أن تفرض احترام السلطة المركزية.

وقد تأثر المغرب الأوسط بهذا الوضع أكثر من غيره، بحيث أن هذه الظروف هي التي مكنت قبيلة من القبائل الرحل، هي قبيلة بني عبد الواد، من أن تفرض سلطانها على تلمسان.

وقد كان بنو عبد الواد من حلفاء الموحدين وكانوا مخلصين في حلفهم للموحدين.

لكن ضعف الموحدين، دفع أحد قادتهم، يغمراسن إلى ادراك ما في هذا الضعف من خطر على بني عبد الواد، إذ أن تدهور وانحلال الموحدين يؤدي إلى ضياع السلطة المحلية من حلفائهم.

وقد عرف يغمراسن كيف يختار الوقت المناسب لإعلان استقلاله وإيجاد مملكة مستقلة استمرت من سنة 633/1235 إلى سنة 962/1554.

2- أصل بني عبد الواد :

بنو عبد الواد فرع من فروع الطبقة الثانية من قبيلة زناتة الكبيرة التي كانت تقطن المراكز الانتقالية بين التل والصحراء وكانوا موالين للدول التي كانت تبسط نفوذها على المنطقة ولهذا كان لهم وزن في الميدان السياسي والعسكري، الشيء الذي جعل الدول تسعى إلى مسالمتهم وبالتالي التقرب منهم، حتى انتصرت دولة الموحدين، فبدأوا يتطلعون إلى السلطة وحب الملك[1].

وكان العدد الأكبر من هذه الطبقة يرجع إلى بني واسين ابن يصليتن إخوة مغراوة وبني يفرن[2].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7ص، 120، يحيى بن خلدون: المصدر السابق – ج:1، ص 198.

[2] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، 7، ص، 120 – 147.

وهذه الطبقة تحتوي على بطون عديدة: فمنهم بنو مرين وهم الأكثر عددا والأقوى سلطة، ثم يليهم بنو عبد الواد الذين يحتلون المرتبة الثانية من حيث المكانة والقوة وأخيرا بنو توجين[1].

لقد كان بنو واسين هؤلاء ومن تشعب منهم من القبائل الشهيرة قد ملكوا الصحراء ما بين ملوية وأرض الزاب[2].

و قد منعت عنهم الأرياف من المغربين وكانت تحت ملك قبائل زناتة مثل: بني ومانو، وبني يلومي بالمغرب الأوسط، وبني يفرن ومغراوة بتلمسان[3].

وكانت هذه القبائل تقدم المساعدات لبني واسين من أسلحة ومال وحبوب، مقابل وقوف بني واسين إلى جنبهم إذا ما زاحمتهم أو هاجمتهم ملوك صنهاجة وغيرها من الأخطار[4].

وعندما نزح بنو هلال إلى الشمال الافريقي قضوا على دولة صنهاجة بالقيروان، ثم زحفوا إلى المغرب الأوسط، فدافع بنو حماد عن دولتهم وطلبوا مدّ

---

[1] ابن أبي زرع: المصدر السابق، 1973، ص، 278، ابن خلدون: المصدر السابق، ج:7، ص: 334. عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس – القاهرة 1964. القسم الثاني، ص335.

[2] الزاب: هي المنطقة الواقعة جنوب الأوراس وعاصمة ولاية بسكرة اليوم وكانت أهم قواعدها في العصر الوسيط وبهذه المنطقة وبالقرب من بسكرة استشهد العربي الفاتح (عقبة بن نافع الفهري) للتفصيل أنظر: البكري – المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب، ص328، دائرة المعارف الإسلامية، ص34.

[3] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7، ص: 148، 149، يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج:1، ص: 179، 180.

[4] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7ص: 120–147.

يد المساعدة في الدفاع عن بلادهم فاجتمع لذلك بنو يعلى ملوك تلمسان من مغراوة وجمعوا من كان حلفهم من بني واسين وهم على التوالي كل من بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين وبني راشد، وعقدوا على حرب الهلاليين لوزيرهم أبي سعدي خليفة من بني يفرن غير أن الهلاليين استطاعوا التغلب وبالتالي هزيمتهم لقبائل زناتة. وكان من نتائج هذه الهزيمة طردهم من بلاد المغرب الأوسط[1].

وعاد بنو واسين هؤلاء من: مرين وبني عبد الواد وبني توجين عن بلاد المغرب الأوسط إلى موطنهم بصحراء المغرب الأوسط من جبل راشد حتى ملوية وفكيك ثم إلى سجلماسة، ولاذوا ببني ومانو وبني يلومي ملوك الضواحي بالمغرب الأوسط، وبالتالي تقسيم تلك المنطقة الصحراوية بينهم.

فكان لبني مرين الناحية الغربية بتيكورارين ودبدو إلى ملوية وسجلماسة وابتعدوا عن بني ومانو وبني يلومي[2].

وكان بنو بادين من الناحية الشرقية، شرق المغرب الأوسط ما بين فكيك ومديونة إلى جبل راشد ومصاب، وكانت بينهم وبين بني مرين فتن متصلة نتيجة اتصالهم في المواطن وبحكم الجوار.

وكان بنو بادين أربعة بطون : بنو عبد الواد، بنو توجين، بنو زردال، بنو

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج7، ص: 128.

[2] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7ص: 129.

مصاب، وكان ينضم إليهم بطن وهم إخوانهم بنو راشد[1] وكان موطنهم الجبل المشهور باسم عمور، وينقسم بنو عبد الواد في نفس الوقت إلى عدة بطون قد ذكرها ابن خلدون وهي ستة :

بنو ياكين، بنو أولو، بنو وهطف، مصوحة، بنو تمرت، بنو القاسم، والفرع الأخير هو الذي كانت بيده الرئاسة خلال عهد الموحدين وذلك نظرا لقوتهم وتعدد بطونهم، فمنهم بنو يكثيمن بن القاسم، وكان منهم ويفرن بن مسعود بن يكمتين وأخواه يكميمن وعمر وكان أيضا أعدوى بن يكميمن الأكبر ويقال الأصغر، ومنهم أيضا عبد الحق بن منغفاذ من ولد ويغرن.

وكانت الرئاسة عليهم في عهد عبد المؤمن لعبد الحق بن منغفاذ من ولد أعدوى ابن يكميمن، وعبد الحق بن منغفاذ هو الذي استنقذ الغنائم من يد بني مرين، وقتل المخضب بمسوف حين بعثه عبد المؤمن مع الموحدين لذلك[2].

ومن بطون بني القاسم بنو مطهر بن يمل بن يزقن بن القاسم وكان حمامة بن مطهر[3] من شيوخهم في عهد عبد المؤمن، وأبلى في حروب زناتة مع الموحدين، ومن بطون بني القاسم أيضا بنو يعلى، وإليهم انتهت الرئاسة، وهم أشد عصية وأكثر عددا، وبالتالي فهم أربعة بطون: بنو طاع الله وبنو دلول،

---

[1] بنو راشد: كانوا أحلافا لبني عبد الواد وكانت رئاستهم في عهد يغمراسن لونزمار ابن إبراهيم ابن عمران، وذكر ابن خلدون في العبر: ج، 7، ص 121 "وفيها من غير أهل الملك: بنو راشد إخوة بادين" وكان موطن بني راشد الجبل المشهور بهم في الصحراء، راجع نفس المصدر ص129.

[2] يحيى بن خلدون: المصدر السابق، ج: 1ص، 186، 140، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ج: 7، ص، 149.

[3] بنو مطهر: من أبناء عمومة بني عبد الواد نظر ابن خلدون: المصدر السابق ج: 7 ص 149، 150

وبنو كمي وبنو معطي بن جوهر، ونصاب الرئاسة كانت في بني طاع الله بن محمد بن زقدان بن تيدوكسن بن طاع الله.

وهناك من المؤرخين من يريد أن يربط نسبهم بالأدارسة العلويين وبالتالي ينفي نسبهم البربري، غير أن هذا زعم لا سند له كما ذكر ابن خلدون.[1] وحتى يغمراسن عندما أبلغ الخبر لم يستنفعه وكان جوابه: "إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله وأما الدنيا فنلناها بسيوفنا" وقد اخلص هذا الفرع الأخير الطاعة للموحدين عندما قامت دولتهم وقد استطاعوا التأثير على الموحدين، الشيء الذي أدى بالموحدين إلى اقتطاع بلاد بني وامانو وبني يلومي وامتلكوها، في الوقت الذي سيطر فيه بنو مرين بعد دخول بني عبد الواد المغرب الأوسط على تلك الصحراء فتوسعوا فيها.

وهكذا بدأ بنو مرين وبنو عبد الواد من بطون واسين إعادة مكانة زناتة، وأعطوا لها طابع الدولة ذات السلطان في الأرض ونافسهم في ذلك إخوانهم

---

[1] لقد ذكر يحيى بن خلدون أن بني عبد الواد شرفاء وذلك لأن أحد الأدارسة من سلالة إدريس مؤسس الدولة الإدرسية بفاس واسمه القاسم، انضاف إلى بني عبد الواد وتزوج فيهم ونسل من ذرية صالحة. انظر يحيى ابن خلدون: المصدر السابق ج. 1–ص 102، 103. وقد وافقه الرأي التنسي في شرف بني عبد الواد حيث ذكر أيضا أن بني عبد الواد من ذرية القاسم الإدريسي، أما عبد الرحمن ابن خلدون فقد أنكر هذا النسب واعتبره زعما لا سند له – راجع عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق ج: 7، ص149.

مغراوة[1] وبنـو توجـين[2] فتطـاولوا إلى مقـاسمتهم الملـك والسـلطة ومسـاهمتهم في الأمر.

وقد ظل بنو عبد الواد متابعة هذه القبائل للقضاء عليها تدريجيا واخضاعها لسلطتهم حتى ضعفوا وكانت نتيجة ضعفهم تقوية جانب بـني عبـد الـواد وبـني مرين.

وقد حدثت الفتنة بين بني طاع الله وبني كمّي إلى أن قتل قندوز بن كمي

---

[1] يعود نسبهم إلى قبيلة زناتة البربرية مواطنهم شمال وانشريس ووادي شـلف إلى البر ينتهـي شـرقا إلى وادي السبت قرب متيجة وغربا إلى البطحاء ناحيـة نهـر مينـة، يشـتمل علـى جبـال، وسـهول خصبة ومدن عامرة منها: مليانة، مازونة، تنس، شرشال، المدية. لم تفارق مغراوة حياة البداوة وقد ظلت هذه القبيلة في ثورتها وعدائها طيلة ملك الزيـانيين. راجـع عبـد الرحمـن بـن خلـدون: العـبر ج7ص 50 حتى 57. يحيى بن خلدون :المصدر السابق ج: 1ص 169، 170، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - القسم الثالث- من كتاب أعمـال الأعمـال للوزيـر الغرنـاطي. لسـان الديـن بـن الخطيب تحقيق وتعليق د/أحمد مختار العبادي - الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ص 153-166.

[2] يعود نسب هذه القبيلة إلى زناتة البربرية وقد كان موطن سكانهم شرقي بني عبد الـواد وجنـوب مغراوة فيما بين سعيدة والمدية، وحياتهم البداوة كمغراوة وقد ظلت هذه القبيلة في عدائها وثورتها للزياشين طيلة ملكهم، ويروي بن خلدون أنه كانت توجد في بلاد بني توجيشـا قلعـة بـني سـلامة التي نزل بها أربع سنوات كاملة (776هـ - 780هـ)، وكتب فيهـا مقدمتـه المشـهورة وهـذه القلعـة تسمى أيضا تاغزوت، تقع في ولاية تهرت، تبعد بحوالي 6كلم إلى الجنوب الغربي من مدينة فرندة، أما سلامة التي تنسب إليه القلعة فهو سـلامة بـن علـي بـن نطـر أحـد شيوخ بـني توجـين، سـكن تاغزوت واحتفظ بها القلعة فنسب إليه وإلى أبنائه، للتفصيل انظر: عبد الرحمن بن خلدون المصـدر السابق، ج: 7، ص318، 333. المغرب العربي في العصر الوسيط للوزير الغرناطي لسـان الديـن بـن الخطيب، القسم الثالث من أعمال الأعلام ص- 167-170.

ابن زيان بن ثابت بن زقدان ومشيخته[1] وقام بأمرهم بعده جابر بن عمه يوسف بن محمد، فثأر من قندوز بن زيان بن عمه ويقال بعث برأسه ورؤوس أصحابه إلى يغمراسن بن زيان بن ثابت فنصبت عليها القدور نفاية لنفوسهم من زيان. وافترق بنو كمي وفر بهم عبد الله بن قندوز كبيرهم فلحقوا بتونس ونزلوا على الأمير الحفصي[2]. واستبد جابر بن يوسف بن محمد برئاسة بني عبد الواد. وظلت إقامة بني عبد الواد بضواحي المغرب الأوسط، حيث اكتسحها وانتهت بلاد زناتة وقتل أمراءهم ودخل تلمسان ووهران واستباحهما وغيرهما من بلاد المغرب الأوسط[3]. وفي هذه الفترة كانت تلمسان تحت ولاية أبي سعيد أخي المأمون وكان غافلا ضعيف التدبير. وتمكن الحسن بن حبون من مشيخة قومه كومية وكانت في نفسه عداوة وضغائن يكنها لبني عبد الواد، سببها تلك المكانة التي كانت لبني عبد الواد على الضاحية وأهلها، وبتدبير من ابن حبون أذى أبو سعيد جماعة مشيخة بني عبد الواد قد وفدوا عليه فاعتقلهم. وكان في مدينة تلمسان جماعة من بقايا لمتونة قد تجافتهم الدولة فأبقاهم عبد المؤمن في الديوان وجعلهم مع الحامية، وكان زعيمهم في ذلك العهد إبراهيم ابن إسماعيل بن علان، فشفع عندهم في المشيخة المعتقلين من بني عبد الواد غير أنهم ردوه بدون جدوى، الشيء الذي أدى به إلى الغضب وبالتالي الانتفاض والقيام بدعوة المرابطين وتجديد ملكهم، كما بايع يحيى بن غانية، فاغتال الحسن بن حبون

---

[1] يحيى بن خلدون: المصدر السابق: ج- 1ص 198-199.

[2] يحيى بن خلدون المصدر السابق ج:1، ص 199، عبد الرحمن بن خلدون:
المصدر السابق ج: 7، ص151.

[3] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق: ج: 7ص 151.

لحينه وألقى القبض على أبي سعيد وأطلق مشيخة بني عبد الواد ونقض طاعة المأمون. وفي سنة624 هـ، وصل الخبر إلى ابن غانية، فسار إليه في نفس الوقت الذي بدأ يفكر في الفتك بمشيخة بني عبد الواد الذين يعتبرون عائقا لنجاح مخططه[1].

غير أن جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد قد فطن وكان نتيجة افتضاح أمره اللقاء الذي نتج عنه الفتك بإبراهيم بن علان، وبادر جابر بن يوسف إلى البلد ونادى بدعوة المأمون وطاعته وكشف لأهلها القناع عن مكر ابن علان بهم وما أوقعهم فيه منّ ورطة ابن غانية، فحمدوا رأيه، وشكروه على صنيعه وجددوا البيعة للمأمون.

واجتمع لجابر كافة بني عبد الواد وأحلافهم من بني راشد وبعث إلى المأمون الطاعة و طلب تكليفه في القيام بدعوته، فخاطبه بالشكر وأقرّ له البيعة على تلمسان وسائر بلاد زناتة، فاضطلع بالأمر في المغرب الأوسط، وكانت هذه الولاية بمثابة المرحلة التمهيدية للوصول إلى صهوة الملك الذي عاشه العبد الواديون، ثم خرج عليه أهل ندرومة بعد ذلك فنازلهم وهلك في حصارهم.

وقام بالأمر من بعده ابنه الحسن وجدد له المأمون البيعة على الولاية غير أنه كان ضعيفا وغير قادر على ذلك،الشيء الذي جعله يتخلى عن الولاية لعمّه عثمان بن يوسف، الذي كان سيئ التصرف كثير الجور فثارت ضده الرعايا

---

[1] يحيى بن خلدون – المصدر السابق ، ج، 1ص 199.

بتلمسان وأخرجوه سنة 631هـ وأقاموا مكانه ابن عمه زقدان بن زيان من ثابت المقب بأبي عزة فاستدعوه لها وولوه على أنفسهم وبلدهم وسلموه أمرهم[1].

وكان من جهة مضطلعا بأمور زناتة مستبدا برئاستهم مستوليا على كافة الضواحي، فخرج عليه بنو مطهر وعلى قومه واتبعهم بنو راشد أحلافهم منذ عهد الصحراء. غير أن أبا عزة جمع سائر قبائل بني عبد الواد.

فكانت بينهم وبينه حروب قد هلك سنة 633 هـ وقام بالأمر من بعده أخوه يغمراسن[2] الذي رضيت القبائل عنه فأقرّ له الرشيد البيعة[3].

3- نشأة الدولة العبدالوادية :

أجمع كل من يحيى بن خلدون، وعبد الرحمن بن خلدون، والتنسي على رواية واحدة، حول الكيفية التي وصل بها قبيل بني عبد الواد إلى الحكم.[4]

وخلاصة روايتهم : أن السيد أبا سعيد عثمان شقيق المأمون سلطان

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ج: 7ص 151، 152. يحيى بن خلدون – المصدر السابق: ج :1 ،ص 199.

[2] عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق – ج –7 – ص153، يحيى بن خلدون المصدر السابق: ج:1 ص 200.

[3] تولى يغمراسن الحكم سنة 633هـ – 1236م –681هـ /1283م

[4] أنظر : يحيى بن خلدون : المصدر السابق، ج: 1، ص: 107/106، عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7. ص: 153/152، التنسي : المصدر السابق، ص: 112، 113.

الموحدين[1] كان واليا على مدينة تلمسان. فاعتقل بعض مشائخ بني عبد الواد. فسعى إليه إبراهيم بن اسماعيل بن علان الصنهاجي اللمتوني[2] متشفعا فيهم، فرد السيد أبو سعيد شفاعته، فغضب لذلك وثار عليه فاعتقله. ثم اطلق سراح مشائخ بني عبد الواد، ولكنه تمادى إلى أبعد من ذلك، إذ خلع طاعة الموحدين، وطمح في إعادة بعث الدولة اللمتونية، واعتقد أن ذلك لن يتم له إلا بالقضاء على العبد الواديين، فأراد أن يحقق مأربه بالتحايل على مشائخ القبيل، وقتلهم.

فأعد لأولئك المشائخ وليمة دعاهم إليها، بغرض اغتيالهم عند وصولهم، إلا أن خطته اكتشفت، ونتيجة لذلك وقع هو وأصحابه أسرى بين أيدي بني عبد الواد.

وكان على رأس قبيل بني عبد الواد حينئذ جابر بن يوسف (عم يغمراسن). فدخل تلمسان، وأعلن الدعوة للمأمون، وبعث إليه معلنا طاعته، فعهد له المأمون بتسيير أمور تلمسان وما يليها من بلاد زناتة وكان ذلك سنة 627هـ /1229م. وهكذا أصبح بنو عبد الواد سادة على تلمسان وضواحيها. وحاول جابر بن يوسف توسيع نفوذه، وإخضاع جيرانه، فأطاعه كثيرون، وأبت ندرومة طاعته، فخرج إليها. فقتل حول أسوارها فخلفه ولده الحسن، ثم تخلى عن الحكم لعمه عثمان بن يوسف. فكان هذا الأخير سيئ الحكم، فثارت عليه الرعية وأزاحوه عن مهامه، ثم أسندوها إلى أبي عزة زقدان بن زيان بن

---

[1] أبو العلى المأمون بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، حكم من سنة 1226/624م إلى سنة 630هـ/1232م.

[2] شيخ اللمتونيين ضمن حامية تلمسان.

ثابت بن محمد، غير أن بني مطهر[1] رفضوا مبايعته وحاربوه بمساندة بني راشد[2] وانتهت الفتنة بينهم بقتل أبي عزة زيدان.

ثم تولى أمر تلمسان أخوه يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، وذلك سنة 633هـ / 1235م فتمكن من اخضاع بني مطهر وبني راشد، وجمع كلمتهم في ظل الدولة العبدالوادية :

وسارع يغمراسن بن زيان بعد توليه أمر تلمسان إلى إعلان استقلاله عن دولة الموحدين، واستقل بالحكم دونهم[3].

4- عوامل نشأة الدولة العبدالواية :

كانت دولة بني عبدالواد في بداية أمرها ضعيفة، بحكم عدة عوامل منها : أولا: موقعها الجغرافي الذي كان وسطا بين دولتين هما: الحفصية، والمرينية فكان حالها كالمحور بين شقي الرحى، فما تنهي حربها مع أصحاب اليمين (الحفصيين) دفاعا عن كيانها، حتى تبدأ حربها مع أصحاب اليسار (المرينيين). وهكذا كانت حدود الدولة تتسع وتتقلص حتى آخر أيامها[4].

---

[1] أولاد عمومة عبد الواد وينتمون لمطهر بن يمل بن يزكن ابن القاسم بن عبد الواد. انظر ذلك في كتاب العبر، ج: 7، ص: 150.

[2] يلتقون ببني عبد الواد عند جدهم محمد بن شجيح، بن واسين ابن مسرا أو مسرى

[3] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7، ص: 163/162. التنسي: المصدر السابق، ص113.

[4] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج: 7، ص: 163/162. التنسي :المصدر السابق، ص 113.

ثانيا: قلة الأنصار في بداية عهدها[1].

وقد أصيبت الدولة العبدالوادية بكبوات، جعلها تختفي من خريطة المغرب الإسلامي ثم تعود إلى المسرح بعد كل مرة وهذا بفضل إرادة أصحاب الحكم فيها وبفضل عزيمة أنصارهم رغم قلتهم.

وهكذا يمكن حصر عوامل نشأة الدولة العبدالوادية كما يلي :

أ. العامل الاجتماعي:

لقد برزت هذه الدولة للوجود بفضل إرادة و تماسك أفراد تلك القبيلة[2].

وتدرجت القبيلة المذكورة نحو الملك والسلطان من طورها الأول[3] حتى وصلت إلى طور الرئاسة.

---

[1] ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن تعداد بني عبد الواد في بداية أمرهم لم يتجاوز الألف بينما بلغ عدد بني مرين ثلاثة آلاف. أنظر المقدمة، ج: 2، ص: 475. بغية الرواد ليحيى بن خلدون يقدر عدد الحفصيين الذين قاتلوا بني عبد الواد في بداية نشأة دولتهم باثنى عشر ألف من الراكبين. أما الزركشي فيقول: ان عدد الحفصيين كان "أربعة وستون ألفا من الفرسان" في غزوتهم ليغمراسن بتلمسان. (تاريخ الدولتين، ص: 29). وفي العبر قدر ابن خلدون أعداد بني مرين سنة 670هـ/1271م حين قاموا بغزو تلمسان، بثلاثين ألفا، ج:7، ص: 379 ومهما كان عددهم فإن الروايات جميعا اتفقت على تفوق الحفصيين والمرينيين عددا وعدة على بني عبد الواد.

[2] انظر ما كتبه ابن خلدون حول نشوء الدولة بواسطة العصبية القبيلية، المقدمة، ج: 2، ص439/440.

[3] وذلك باتحاد عدة أسر في إطار وحدة سياسية أولية، ترعى قبيلة ويتم اتحادها في الغالب بواسطة القوة والغلبة، فالأسرة ذات العصبية الأقوى هي التي تضم الأسر الأخرى، وهذا ما يحدث كذلك عند اتحاد القبائل في سبيل تشييد دولة ما.

ثم قفزت إلى طور الملك والسلطان[1] في عهد الموحدين بقيام الدولة العبدالوادية. فمنذ البداية استدعت الضرورة الاجتماعية جمع شمل تلك الأسر العبدالوادية ضمن عشائر. ثم اتحدت العشائر فأصبحت قبيلة. لقد استدعت الرغبة في الأمن والرغبة في التطلع إلى القوة من تلك الأسر والعشائر إلى توحيد صفوفها ضمن وحدة اجتماعية أكثر فعالية. وهكذا نشأت قبيلة بني عبد الواد كما تنشأ القبائل جميعا.

لقد ساعد الوضع الاجتماعي الجيد لتلك القبيلة على اكتساب احترام غيرها من القبائل، وبالتالي اكتساب تقدير الموحدين وعطفهم فبالإضافة إلى عدد عشائر وبطون تلك القبيلة، فإنها كانت تمتلك خبرات ومواهب عديدة أهلتها لذلك الاحترام، وذلك التقدير.

ب. العامل الاقتصادي :

كان للعامل الاقتصادي أهمية كبرى في انتقال تلك القبيلة إلى مرتبة السلطان، فبعد أن انتقلت هذه القبيلة من طور الرعي عندما كانت تضرب في الصحراء طولا وعرضا إلى طور الزراعة في عهد الموحدين الذين أقطعوهم "عامة بلاد بني يلومي وبني وامنو[2]" وبفضل الموارد الاقتصادية التي بين أيديهم قويت شوكة بني عبد الواد، فهيمنوا على القبائل الأخرى بعصبيتهم ـ اقتصاديا ـ فازداد

---

[1] يشرح ابن خلدون تطور الإنسان نحو السلطان والملك ـ بصورة عامة. المقدمة، ج: 2، ص: 513.

[2] تعود هاتان القبيلتان إلى زناتة وكانتا تحتلان جل ربوع المغرب الأوسط فبنو وامنو كانوا منتشرين شرق وادي شلف (من البحر إلى الصحراء). وبنو يلومي غربه، العبر ج: 7، ص: 119/114 – 151. 150.

تأثيرهم، واشتدت فعاليتهم، حتى على الدولة الموحدية نفسها. وبذلك تمهد الطريق نحو قيام الدولة العبدالوادية.

جـ. العامل السياسي :

بدأ هذا العامل يلعب دوره منذ أن أصبح قبيل بني عبد الواد يهتم ويعتني بالمواقف السياسة التي تقتضيها ضرورة الحفاظ على الموارد الاقتصادية، التي منحت له من قبل الدولة الموحدية.

فكان على هذا القبيل أن يلبي دعوة الدولة الموحدية كلما استدعت الضرورة ذلك. وهكذا أضحت السياسة تشغلهم، كما كانت تشغلهم المراعي، والغارات، والترحال. وفي أواخر حياة الدولة الموحدية تطلب الظرف السياسي من بني عبدالواد مواقف سياسية مغايرة وسريعة، حيث سارع شيخ القبيلة (جابر بن يوسف)، إلى اصطياد الفرصة الملائمة، و لم يدعها تفوته، فقفز بقبيلته نحو الملك والسلطان.

ولما تولى يغمراسن بن زيان الرئاسة أضاف إلى الصرح الذي شيده سلفه لبناته الأخيرة، فنشأت بذلك الدولة العبدالوادية[1].

5- يغمراسن بن زيان ودوره في قيام الدولة العبدالوادية :

« في سنة 1235م عهد الخليفة الموحدي الرشيد، بولاية العهد على تلمسان

---

[1] في الإمكان مراجعة ذلك بتوسع في – العبر ج: 7، ص: 148 /154 – 162 –163 وبغية الرواد، ج:1 ص: 104 /108. التنسي : المصدر السابق ص: 104، 108.

وإقليمها ليغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد العبدالوادي[1] رأس الأسرة الملكية الزيانية، ولد سنة603هـ/1206م وبويع يوم توفي أخوه الأمير أبو عزة 633هـ/1236م وكان معروفا عند قومه بالدهاء السياسي، والشجاعة والحزم، وحصافة الرأي، ومكارم الأخلاق وايثار ذوي الفضل والعلم» فكان ذلك كما قال ابن خلدون : "كان يغمراسن بن زيان بن ثابت بن محمد، من أشد بني عبد الواد بأسا وأعظمهم في النفوس، مهابة واجلالا وأعرفهم بمصالح قبيله وأقواهم كاهلا، اشتهر بحصافة الرأي وسداد التدبير وقوة العزيمة. معظما عند الخاصة والعامة، يرجعون إليه في كل الأمور عندما تداهمهم النوازل، والنوائب والعوادي"[2].

وقد قال ابن الخطيب : [3]

أول ملاك لهم يغمور ... ليث الثرى والبطل المشهور

تثني عليه حومة الميدان ... ما لا مريء ببأسه يدان

لاقى الجيوش من بني مرين ... كالليث يحمي جانب العرين

«وكان ما يزال شابا عندما بويع بالإمارة بعد مقتل أخيه أبي عزة فاضطلع بالأمر في عزم وقوة، واخضع إلى سلطانه كل الذين كانوا قد خرجوا عن طاعة أخيه، وأحسن السيرة في الناس تدبيرا وسياسة، واعتنى بتنظيم قواته العسكرية وتوفير الأسلحة، والذخيرة لها حتى تستطيع القيام بواجبها الدفاعي على البلاد، واستحدث مجلسا وزاريا، وكتبة ليساعدوه على تسيير شؤون الإمارة، واتخذ

---

[1] أصله عابد الوادي، صفة جدهم المتبتل بواد هناك. راجع هذا عند يحيى بن خلدون : المصدر السابق ج: 1 – ص186.

[2] عبد الرحمن بن خلدون. المصدر السابق، ج:7،ص 162.

[3] محمد بن عبد القادر الجزائري تحفة الزائر– 2ط، 1964، دار اليقظة العربية (ص85)

لنفسه مظاهر الملك، وألغى سيطرة الموحدين الفعلية، و لم يبق لهم سوى الارتباط الأدبي والروحي خاصة في عهد الخليفة السعيد والدعاء له على المنابر أيام الجمع والأعياد[1].

وهكذا بدأ يغمراسن عهده وأمر الرعية في اضطراب وقلق و لم يكن هذا بالأمر الهين كما كان يتوقع ويظن، لأن أوضاع المغرب العربي آنذاك كانت معقدة، حيث أن دولة الموحدين دخلت طور الانهيار وأصبح سقوطها أمرا مفروغا منه، وفي نفس الوقت الذي برزت فيه زعامة الحفصيين بتونس وزعامة بني مرين بالغرب الكل يدعي لنفسه أحقيه وراثة الموحدين، فوجد يغمراسن نفسه وإمارته بين نارين ونتيجة هذه الوضعية المعقدة وبحكم موقع دولة بن عبد الواد وظروفها الطبيعية بين مملكتين مرين غربا، والحفصيين شرقا حكم عليها أن تكون مسرحا وميدانا فسيحا للصراع بين هاتين الدولتين في جمع أقطار المغرب

---

[1] لم يذكر الأخوان يحيى وعبد الرحمن بن خلدون أن يغمراسن قطع كل علاقته مع الخليفة الرشيد الموحدي بمراكش، قال ابن خلدون: "العبر، ج7، ص162، 163 و محا يغمراسن آثار الدولة المومنية وعطل الأمر والنهي باسمها، و لم يترك من رسوم دولتهم و القاب ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش. وذكر يحيى بن خلدون (البغية، ج1- ص112 وابن خلدون المصدر السابق، ج7، ص164 أن تقرب خيفة مراكش من الأمير العبد الوادي واتحافه بالهدايا هو الذي شجع الأمير أبا زكرياء الحفصي : الاستقلال بأفريقية.

ومما قال ابن خلدون المصدر السابق ج7 ص164 عن توطد العلاقات بين تلمسان ومراكش، وكان يغمراسن منذ تقلد طاعة آل عبد المؤمن أقام دعوتهم متحيزا إليهم سلما وحربا على عدوهم وقد ذكر ابن خلدون أن سبب تقاربه هذا هو اتفاقهما على عداوة بني مرين الذين كانوا خطرا على كلا الدولتين وكان هذا التحالف بين الخليفة بمراكش والحكم الجديد بالمغرب الأوسط هو الحافز الحقيقي للأمير الحفصي لينازل تلمسان سنة 639هـ - 1242م.

الإسلامي والاستيلاء على طرفيه، وكانت هذه الوقائع المذكورة بين دول المغرب والحوادث السياسية المتجددة هناك درسا عمليا ليغمراسن،(حيث انتهج سياسة خاصة تتصف بالمرونة و ترتكز على الولاء لأواخر خلفاء الموحدين بمراكش ولأمراء بني نصر بالأندلس ليدعم بذلك مركز حكمه وعلى العداء لبني مرين الذين يحاولون القضاء على دولته ليتوسعوا بذلك على حسابه[1])

وكان يتظاهر بالمصاهرة والولاء للحفصيين عندما كانوا أقوياء وعندما ضعفوا بدأ خلفاؤه يوسعون رقعة دولتهم على حسابهم[2].(ثم تفرغ يغمراسن بعد ذلك لإخضاع القبائل المنشقة والمخالفة له من مغراوة وتوجين، فهاجمها عدة مرات حتى استقامت)(وهكذا تتجلى لنا بوضوح مساعي يغمراسن الجادة لتدعيم أركان دولته رغم ما كان يتهددها من أخطار في الداخل والخارج. وقد كللت هذه السياسة بالنجاح والانتصار، حيث لم ينته أجله سنة 1283 حتى كانت هذه الدولة مرهوبة الجانب عالية الشأن في المغرب الإسلامي.

ويؤكد هذا رسائل التعازي التي تقاطرت على عاصمته بعد وفاته[3])

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج: 1 ص116، انظر التنسي المصدر السابق، ص175/176، للزركشي المصدر السابق ص49.

[2] عبد الرحمن بن خلدون: العبر:7، ص 188-189.

[3] من رسائل التعزية التي وصلت بلاد الزيانيين من الملك النصري من بني الأحمر من الأندلس لأبي سعيد عثمان حول وفاة أبيه يغمراسن، وقد جاء في الجواب على تلك الرسالة بتحرير كاتب يغمراسن ابن أبي بكر بن الخطاب: (إن الصداقة التي تربط بين الملكين متينة لا تحيل صفاءها الأيام)، ولو حللنا مضمون بعض تلك الرسائل التي تبولدت بين مملكتي غرناطة وتلمسان فإنها توضح لنا مدى العلاقات السياسية الوحيدة التي كانت تصل بين مملكتي غرناطة وتلمسان في القرن

زيادة على ذلك توافد عدد كبير من رجالات الأندلس المشهورين على عاصمته للإستقرار بها وعلى رأسهم الكاتب الشاعر البليغ أبو بكر بن خطاب الذي أصبح كاتبا ليغمراسن يتولى تحرير رسائله إلى كل الجهات خاصة تونس والأندلس والمغرب وعندما بدأ يغمراسن يسعى إلى تحقيق الاستقرار لدولته لم يتخل عن ارتباطه بالبدو ولا استغنى عن مساندتهم، حيث واجه صف العرب وزناتة المتكون من ذوي عبيد الله وبنو مرين بصف آخر ويعتمد فيه على عرب سويد من قبيلة زغبة. حيث صار سويد أحلافا له، بل ذهب به الأمر إلى استقدام بطون أخرى من بني زغبة من بني عامر وبني حميان، وقد اقتطع الأراضي لبني عامر في نواحي وهران وتلمسان ليصد بهم خطر خصومه الثعالبة المقيمين بسهل متيجة[1]، أما قبيلة بني حميان فقد أقامها بالصحراء فكانت له حصنا منيعا من خطر بني مرين[2].

وقد تمكن يغمراسن بن زيان بفضل وحداته المتكونة من زغبة من قهر ذوي عبيد الله ومحاولته الهجوم على بني مرين لكن سرعان ما أدار ظهره لبني زغبة فتركهم يرحلون عن تلمسان وكذلك الأمر مع سويد[3].

= السابع للهجرة وقد تأكدت هذه العلاقة السياسية لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية في القرنين الثامن و التاسع للهجرة، وكانت تتصف بالصفاء والتعاون.

للتفصيل انظر: يحيى بن خلدون - المصدر السابق ج:1، ص116، التنسي : المصدر السابق ص175، 176، عبد الرحمن بن خلدون- المصدر السابق ج: 7ص193.

[1] ابن خلدون: المصدر السابق ج: 6، ص: 64، الميلي: تاريخ الجزائر، ج: 2ص: 159.

[2] ابن خلدون: المصدر السابق، ج: 6ص: 116/105.

[3] ابن خلدون: المصدر السابق، ج: 6، ص: 40، 46.

ويعود هذا إلى كون يغمراسن بن زيان أصبح يأنس في نفسه القوة، وبالتالي التخلي عنهم بعد أن اعتمد عليهم وقت الشدة!! وقد ظلت القبائل العربية في المغرب الإسلامي بهذا العصر تشكل قوة لها وزن على دول المغرب الإسلامي، حيث كانت حاجة تلك الدول إلى القبائل العربية شيئا ضروريا، فقربوا رؤساءهم بالمصاهرة والمجالسة والاستشارة واقتطاعهم الأراضي ومنحهم العطايا والهدايا والامتيازات!!

6- العلاقات العبدالوادية المرينية :

قامت على إنقاض الإمبراطورية الموحدية ثلاث دول :

الحفصيون بتونس، والعبدالواديون بتلمسان، والمرينيون بفاس، وادعت كل واحدة من هذه الدول أحقية وراثة ملك الموحدين، واختلفت لتبرير مواقفها حججا و براهين، واستطاع الحفصيون في الأيام الأولى بسط نفوذهم الأدبي على المنطقة خاصة بعد أن تم اقتحام تلمسان من طرف السلطان الحفصي أبي زكرياء يحيى الأول سنة 640هـ/1242م فبايعهم العبدالواديون ،و تصدر للدعوة باسمهم المرينيون بالمغرب الأقصى، غير أن تقلص نفوذ الحفصيين في الجهة الغربية ساعد بني عبد الوّاد على خلع الطاعة وحذا حذوهم المرينيون، فقطعوا الخطبة باسمهم بعد سقوط مراكش[1] بقليل، وأصبحوا آنذاك القوة الأولى بالمنطقة. وكان بنو عبد الوّاد يرون في ازدياد نفوذ بني مرين خطرا يهدد كيانهم، فاستعملوا كل

---

[1] سقطت مراكش على يدي الأمير أبي بكر يوسف يوم 9 محرم 668هـ/8 سبتمبر 1229 وذلك بعد أسبوع من مقتل أبي دبوس وتلقى بها البيعة وتوالت عليه الوفود للتهنئة، راجع الذخيرة السنية، ص، 118، روض القرطاس، ص، 303،العبر ج: 7، ص، 376. الاستقصا ج: 3- ص 27.

الوسائل المتوفرة لديهم لإضعاف جارهم القوي ونجم عن ذلك الشعور بالعداء إذ توترت العلاقات بينهم ودخلوا في تنافس مرير كانت الغلبة فيه دوما لفاس.

غير أننا لو حللنا بدقة وتعمق أسباب هذا التنافس لإستنتجنا أنه كان بين الحيين منذ كانوا متجاورين بالصحراء وكانت الحدود بين الفريقين من وادي (صا) إلى فكيك[1].

ولما بدأت دولة الموحدين في الانهيار وتغلب بنو مرين على عدة نواحي من المغرب، كان الموحدون يستعينون ببني عبد الواد على بني مرين. ولهذا فالضغائن التي وجدت بين بني مرين وبني عبد الواد قديمة، ناشئة عن الجوار في المواطن ثم الملك، والمنافسة في الإستقلال برئاسة زناتة. فكثرت الحروب بينهم وكان ملك مرين أعظم، فكان الفوز لها غالبا[2]، حيث أن دولة بني مرين الناشئة لم تكن لترضى بمجاورة قبيل بني عبد الواد المنافس وذلك لتأكدها من المكانة التي يتبوأها هذا القبيل في ميدان السياسة والحرب بالمغرب الأوسط، فنشأت عن ذلك عداوة بين القبيلين. كان مبعثها المنافسة على رئاسة زناتة والتطلع إلى السلطان على المغرب الإسلامي ونتيجة هذا لم ير المغرب الأوسط طيلة هذه المجاورة الحتمية مسالمة وقد زاد هذا التنافس في عهد يغمراسن الذي انتهج سياسة تهدف إلى بسط نفوذه على الجهات الغربية وبالتالي الاستيلاء على

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق 7، ص: 171، يحيى بن خلدون : المصدر السابق ج: 1، ص :187-188.

[2] ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن تعداد بني عبد الواد في بداية عهدهم كان ألفا بينما كان بنو مرين ثلاثة آلاف. أنظر المقدمة ج، ص: 475.

تاوريرت[1] حتى تازة، أي على الأقل امتلاك القسم الشرقي من المغرب الأقصى، غير أن هذا التنافس يشتد أكثر بعد مقتل الحسن السعيد الأمير الموحدي على يد بني عبد الواد بضواحي تلمسان حيث أن هذا الحادث كان بمثابة بداية التطلع إلى السلطة والملك والتوسع على حساب أملاك الموحدين الذين كانوا في مرحلة الاحتضار[2].

7- التنافس العبد الوادي المريني :

ويعود تاريخ هذا التنافس إلى ما بعد هزيمة الموحدين بضواحي تلمسان لما استولى الأمير أبو بكر المريني على مدينة فاس توجه في ربيع الأول 647هـ إلى فزاز[3]. وقد استخلف وراءه على فاس مولاه السعود بن خرباش من جماعة الحشم أحلاف بني مرين، وكان الأمير أبو بكر عند فتحه فاس قد استبقى من كان فيها من عسكر بني عبد المؤمن من غير نسبهم، وكان من جملتهم طائفة من النصارى نحو المائتين، ولى عليهم قائدا منهم يقال له شرير الزنجي. فوقع بينهم وبين شيعة الموحدين من أهل فاس تحالف، في الوقت الذي عزم فيه الفاسيون الفتك بالسعود وتحويل الدعوة إلى المرتضى. فاجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المغيلي وفاوضوه في ذلك، فوافقهم الرأي فاستدعوا شريرا وقالوا له : "تقتل هذا

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق ج: 7ص: 454/227، وهذه المدينة توجد الآن غرب مدينة وجدة بـ 136كلم. انظر أيضا الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، 2، ص: 146.

[2] في الإمكان مراجعة ذلك بتوسع في العبر، ج: 7، ص 148، 162/154 - 163، بغية الرواد، ج: 1، ص: 104، 108، التنسي : المصدر السابق، ص111-116.

[3] منطقة جبلية تشمل شمال تادلا.

الأسود وتضبط البلد حتى يكتب إلى المرتضى فيبعث لنا من يقوم بأمرنا[1]". فأجابهم إلى ذلك وكان ميله إلى الموحدين وهواه معهم. ولما كانت صبيحة الثلاثاء من شوال 647هـ طلع بعض الأشياخ كعادتهم إلى القصبة للسلام على السعيد، فدخلوا عليه بمجلس حكمه فهاجوه ببعض المحاورات فغضب فوثبوا عليه، ونادوا بشعارهم وكان شرير الزنجي واقفا أمام القصبة فاقتحم السعود وقتله وقتل معه أربعة من رجاله فاقتحموا القصر وانتهبوه[2] وسلبوا الحرم ونصبوا النصراني لضبط البلد.

وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضى صاحب مراكش. وقد وصل خطر هذا الحادث إلى الأمير أبي بكر وهو يحاصر بلاد فزاز. ففك عنها الحصار وأخذ السير إلى فاس فأطبق عليها الحصار وقطع عنها الماء والغذاء ومنع الداخل والخارج، وطلب أهل فاس النجدة من الخليفة الموحدى المرتضى.

ولكن المرتضى لم يبعث إلى فاس بالمدد وبقيت مغلقة تنتظر مصيرها غير أنه استنجد بيغمراسن على الأمير أبي بكر فأجابه يغمراسن إلى ذلك طامعا في أن يكون ذلك سببا له في تملك المغرب وسلما للصعود إلى ذروة ملكه فاستعد لذلك، فخرج من تلمسان لعرقلة جهود أبي بكر في فاس[3] ووصل خبر خروجه من تلمسان إلى الأمير أبي بكر، فجمع كتائبه و توجه إليه قبل وصوله إلى تخوم

---

[1] السلاوي: المصدر نسابق، ج : 3 ص 15-16-17، عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج : 7، ص 172.

[2] قدرت الأموال التي ستولى عليها المتمردون بثلاثمائة ألف دينار وفق ما جاء عند ابن عذاري – البيان المغرب – ص – 395.

[3] إبن أبي زرع، المصدر السابق ص– 305.

بلاده لقيه بوادي إسلي من بسيط وجدة فتزاحف القوم وكانت ملحمة عظيمة هلك فيها عبد الحق بن محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد[1].

في الوقت الذي فر يغمراسن في فلوله نحو تلمسان تاركا محلته بما فيها نهبا وسلبا لبني مرين وكانت هذه الواقعة في ذي الحجة سنة 647هـ وعاد الأمير أبو بكر إلى فاس ليحاصرها من جديد ودام ذلك الحصار الشديد أزيد من تسعة أشهر عرف خلالها أهل فاس جميع ألوان الحرمان والبؤس[2].

التنافس حول سجلماسة :

لما كانت سنة 655هـ استعد الأمير أبو بكر لمحاربة يغمراسن بن زيان وسمع به يغمراسن فاستعد هو أيضا، فكان اللقاء بينهما بأبي سليط[3] فاقتتلوا وانهزم يغمراسن، وأقر الأمير أبو بكر على متابعته فأوقفه عن رأيه في ذلك أخوه يعقوب بن عبد الحق لعهد تأكد بينه وبين يغمراسن فرجع[4] ولما قرب الوصول إلى أحواز فاس بلغه أن يغمراسن قصد سجلماسة ودرعة لتحالف كان بينه وبين أهلها أطمعه في ملكها. فشرع الأمير أبو بكر في السير في وسط جموعه إلى سجلماسة فدخلها قبل وصول يغمراسن إليها بيومين، ثم جاء يغمراسن حتى نزل خارجها فيئس من التغلب على الأمير أبي بكر وقد دارت بينهما حرب تكافأ فيها

---

[1] إبن أبي زرع، المصدر السابق ص – 305، عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق ج: 7، ص 172.

[2] إبن أبي زرع، المصدر السابق ص 309.

[3] اللقاء الثاني بين يغمراسن والمرنيين كان بوادي أبي سليط قرب وجدة 655هـ/1258م

[4] السلاوي، المصدر السابق ج:3، ص 18، 19.

الفريقان وهلك ابن عثمان بن عبد الحق بن أخي الأمير أبي بكر، ورجع يغمراسن إلى بلده وعقد الأمير أبو بكر على سجلماسة[1]. ودرعة[2] وسائر بلاد الجهة الشرقية ليوسف بن يزناسن واستعمل على الجباية عبد السلام الأوربي، وجعل تسليح الجند من نصيب القطراني، ورجع هو بدوره إلى فاس[3].

8- التحالف التبد الوادي الموحدي :

في شهر ذي القعدة من سنة 665هـ/1267م، بعث يغمراسن بن زيان إلى الخليفة الموحدي أبي دبوس بيعته قائلا: "إياك أن تطمع بني مرين فيما لديك، وأنا أكفيك شرهم وأنا وأنت يد واحدة في حربهم[4].

---

[1] سجلماسة: مدينة تقع جنوب المغرب الأقصى في مقاطعة تافيلالت، لعل الأطلال الموجودة بها هناك والتي يسميها العامة بالمدينة العامرة، هي أطلال هذه المدينة التاريخية ولقد وصفها الرحالة ابن حوقل (ص65) ثم البكري (ص148) وصفا مستفيضا فأشار إلى كثرة نخيلها وأعنابها وقصورها وأبوابها، ثم تحدثا عن غنى أهلها الذين كانوا يخرجون بالملح والنحاس إلى بلاد السودان ويرجعون بالذهب إلى بلادهم، ولهذا كانوا في سعة من العيش. كذلك كانت نساؤهم مهرة في غزل الصوف، ولقد جلبت سجلماسة عددا كبيرا من التجار اليهود لكونها مركزا لتجارة الذهب ولقد تعرض هؤلاء اليهود كثير من الاضطهاد في عهد الفاطميين. راجع يحيى بن خلدون المصدر السابق، ج: 1 ص 206، 207.

[2] مدينة في جنوب المغرب الأقصى وراء جبال الأطلس يخترقها نهر طويل يعرف بوادي درعة وكانت محطة تجارية مزدهرة في القرون الوسيطة.

راجع تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط - القسم الثالث - كتاب أعمال الأعمال - لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، محمد ابراهيم الكتاني. ص139.

[3] عبد الرحمن بن خلدون - المصدر السابق ج: 7ص: 175-176.

[4] الذخيرة السنية ص112.

وكانت هذه البيعة بمثابة حلف بينهما ضد بني مرين، وفي السنة التالية، حاصرت جيوش الأمير أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق عاصمة الموحدين مراكش، وشددت الخناق عليها فلم يجد الخليفة أبو دبوس مخرجا لتخفيف الحصار المضروب عليه سوى اللجوء إلى حليفه يغمراسن وبعث إليه برفد مصحوبا بهدية ثمينة يطلب منه العون والمساعدة وقال له: "كن معي يدا على حربهم[1]" يعني بني مرين، وشن يغمراسن غارات مكثفة على الحدود الشرقية لبني مرين، الشيء الذي أجبر الأمير أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق على رفع الحصار على مراكش مؤقتا واتجه صوب فاس حيث جهز الجيش وأعد العدة، وغادرها في 15 محرم سنة 666هـ/15 أكتوبر 1267م على رأس حشود ضخمة من المرينين مكتسحا أراضي يغمراسن. وعندما علم هذا الأخير بالزحف المريني، تأهب للقائه، وفي ضحى يوم الإثنين 12 جمادى الثانية 666هـ/ 28 فبراير 1268م التحم الجيشان في معركة ضارية بوادي تلاغ[2]، أبلى فيها الطرفان البلاء الحسن وبرز فيها نساء العبد الواديين سافرات يحرضن جيوش بني عبد الواد على الصمود والإستماتة في ميدان القتال[3]، غير أن التفوق الميرني عدة وعددا رجح الكفة لصالح بني مرين، فألحقوا هزيمة ثقيلة بجيش يغمراسن وقتلوا منه نخبة طيبة. كان من بين ضحاياها الأمير عمر كبير أبناء يغمراسن وولي عهده، هذا بالإضافة

---

[1] الذخيرة السنية ص 115، ابن أبي زرع: المصدر السابق ص، 305.

[2] الذخيرة السنية ص 116، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص305، ابن خلدون: العبر ج: 7، ص 371، السلاوي: المصدر السابق ج: 3ص 25.

[3] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 305، ابن خلدون المصدر السابق: 7، ص، 371، السلاوي المصدر السابق ج: 3 ص25.

إلى وجهاء عشيرته مثل: ابن عبد الملك بن حنيفة، وبن يحيى بن مكنن، وعمر بن ابراهيم ابن هشام.

وتمزقت بذلك صفوف بني عبد الواد، وقد فر يغمراسن إلى تلمسان منهار المعنويات، وكانت هذه الهزيمة ضربة قوية للعبد الواديين هزت من عزائمهم لمدة طويلة[1].

9- التنافس العبد الوادي المريني وأثره على الأندلس :

لما تغلب السلطان أبو يوسف على الموحدين، وفتح مراكش واستولى على ملكهم سنة 668هـ عاد إلى فاس وتحرك ما كان في نفسه من ضغائن يغمراسن وبني عبد الواد، وما قاموا به من تخذيل عزائمه وابعاده عن قصده وهدفه. كما رأى أن واقعة تلاغ لم تشف صدره ولا أطفأت ناره لذلك أجمع من جديد على غزوهم وبهذا يكون العبد الواديون كمنافسين أقوياء لبني مرين، دور كبير في تأخير سقوط مراكش سنة 668هـ/1269م، الشيء الذي أدى بالمرينيين إلى خوض غمار الحرب على الجبهتين الموحدية والعبد الوادية. وبسقوط مراكش أصبحوا وجها لوجه معَ العبد الواديين غير أن نداءات النجدة التي كانت تتوالى على فاس من الأندلس جعلت سلاطين بني مرين يهبون لشد أزر المسلمين بتلك الربوع، ففي سنة 670هـ/1271م طلب السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من يغمراسن ابن زيان الهدنة والصلح كي يتفرغ للجهاد بالأندلس إلا أن يغمراسن الذي كانت دموعه لم تجف بعد حزنا على ولده عمر تعنت ورفض العرض، و أساء في القول و قال : لرسول السلطان أبي يوسف يعقوب، "لا صلح بيني

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج: 7،ص، 176، 177.

وبينه أبدا ولو بلغت في حربه الردى، لقد قتل ولدي وقرة عيني وولي عهدي عمر. أ صالح وأهدر دمه؟ وا لله لا كان هذا أبدا، ولا أترك دم ولدي يمضي سدى حتى آخذ منه بالثأر وأضيق بلاده التبار[1].

وهكذا ترك السلطان أبو يوسف يعقوب الأندلس وشأنها وسار في قتال يغمراسن، وهزمه هزيمة شنعاء بوادي إسلي قرب وجدة في 15 من رجب 670هـ/فبراير 1272م.

وفي بداية الأمر عبأ السلطان يعقوب كتائبه وجعل ابنه عبد الواحد في الميمنة وابنه يوسف في الميسرة ووقف هو في القلب ودارت بينهم رحى الحرب وركدت مليا فهلك في هذه المعركة أبو عنان فارس يغمراسن بن عبد الواد في جماعة من بني عبد الواد ونجا يغمراسن في جموعه حاميا لهم ومدافعا عنهم خلفيا ومر في هزيمته بفساطيطة فأضرمها نارا تفاديا من استيلاء العدو عليها وانتهبت بنو مرين باقي معسكره واستبيحت حرمه وارتحل السلطان يعقوب من الغد في أثره حتى إذا انتهى إلى وجدة أمر بهدمها وتخريبها، ثم تقدم إلى تلمسان فنزل عليها وحاصرها أياما وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب وهلك في طريقه إلى تلمسان، وزيره عيسى بن مساي، وقدم عليه وهو محاصر تلمسان، محمد بن عبد القوي ابن العباس كبير بني توجين من زناتة في جيش كثيف من قومه مباهيا به وكان قدومه هذا بمثابة مد يد المساعدة للسلطان يعقوب نتيجة عداوة كانت بينه وبين يغمراسن، فأكرم السلطان يعقوب وفادته واستمر الحصار على

---

[1] الذخيرة السنية، ص 130، ابن زرع ، المصدر السابق ص، 309، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ج: 7. ص 307، السلاوي : المصدر السابق ج: 3ص 25.

تلمسان وعظمت نكاية بني توجين فيها بالتخريب وقطع الثمار وإفساد الزرع وإحراق القرى كرد فعل لما كان يقوم به يغمراسن بن زيان في بلادهم[1].

ولما امتنعت تلمسان على السلطان يعقوب ويئس من فتحها ما لحصانتها واشتداد شوكة حاميتها، عزم على الإفراج عنها وأشار على الأمير محمد بن عبد القوي بالعودة إلى مأمنه قبل أن ينهض هو من تلمسان، فرجعوا إلى مقرهم من جبال وانشريس، وبقي يعقوب أياما ريثما وصلوا خوفا عليهم من يغمراسن أن ينتهز الفرصة في اتباعهم، ثم اقلع السلطان عن تلمسان عائدا إلى الغرب محملا بالغنائم، والأسلاب، وقد نتج عن هذه الهزيمة تغيير في سياسة يغمراسن بن زيان تجاه فاس، حيث كف عن مناوءتهم بعض الوقت، وتوجه شرقا للتوسع في أراضي المملكة الحفصية وفي سنة 674هـ/1275م، تم عقد أول هدنة بين يغمراسن ابن زيان وأبي يوسف يعقوب بمبادرة من هذا الأخير التزم بمقتضاها يغمراسن بن زيان بعدم الاعتداء على الأراضي المرينية، كي يتسنى لأبي يوسف يعقوب تلبية نداء بني الأحمر والوقوف إلى جانبهم عسكريا لصد هجمات قشتالة المتتالية على أراضيهم، وكان لهذا الاتفاق صداه العميق في المغرب والأندلس ونتائج طيبة على الوجود الإسلامي بالأندلس، كما ساهم مساهمة فعالة في تعزيز التضامن الإسلامي[2].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق ج: 7ص 177، 178.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ج: 7، ص 178.

10- التحالف الثلاثي :

إثر الهزائم المتكررة التي أحقها الجيش المريني بجيوش قشتالة، و بعد اضطراب العلاقات بين فاس و غرناطة نتيجة مخاوف بني الأحمر، تحالف سلطان غرناطة و ملك قشتالة، وراسلا يغمراسن بن زيان ليكون معهما يدا واحدة على أبي يوسف، وأقنعاه بضرورة الإغارة على أراضي بني مرين ليعوق أبا يوسف من التوجه إلى الأندلس وأقدم بدورهما على محاصرة الجزيرة الخضراء لمنع وصول الإمدادات إلى عدوه الجهاد .

وما أن علم أبو يوسف بهذه المؤامرة وهو بمراكش، حتى جد السير نحو طنجة. وبعث إلى يغمراسن يطلب منه تجديد الصلح، فأساء هذا الأخير القول للرسول وقال له: "لا صلح بيني و بينه أبدا، وليس له عندي ما عشت إلا الحرب وكلما وصله من صلح مع ابن الأحمر، فهو حق، فقل له يتأهب للقائي وليستعد لنزالي وقتالي"[1]، وبهذا التصريح انكشفت خيوط المؤامرة التي أحبكها سلطان غرناطة وحليفه ملك قشتالة، وكان رد السلطان أبي يوسف عنيفا، فقد زحف على يغمراسن بن زيان ومزق صفوفه في لقاء كرزوزة وشتت شمله ففر في فلوله إلى الصحراء ناجيا بنفسه، وذلك سنة 678هـ/1279م تاركا محلته نهبا مستباحا لبني مرين، و لم تقم له بعد هذه الهزيمة قائمة إلى توفي يوم الإثنين 29 ذي القعدة 681هـ/يناير 1283م بوادي أرهيو[2]، لقد كان للهزائم المتتالية التي تلقاها

---

[1] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 335. عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق ج: 7، ص 417.

[2] كان السلطان يغمراسن قد خرج من تلمسان سنة 681هـ وخلف عليها ابنه عثمان وتوغل في بلاد مغراوة وملك ضواحيها، ونزل ثابت بن منديل عن مدينة تنس، فأخذها منه ثم بلغه الخبر

يغمراسن ابن زيان على يد المرينيين وقع سيئ في نفسه. وقد تيقن أنه لا يمكن بأية حال من الأحوال مجابهتهم، نظرا لعدم تكافؤ موازين القوى بينهما، وتلافيا لتكرار المأساة مع ولده عثمان فأوصاه بمسالمة المرينيين وعدم الاعتداء على أراضيهم[1].

= بإقبال أخيه أبي عامر برهوم من تونس بابنه السلطان أبي إسحاق عروس ابنه فتوجه إلى هناك بظاهر مليانة. وعاد إلى تلمسان وقد أصابه الوجع في الطريق فهلك هناك بالمكان المشار إليه وحمله ابنه أبو عامر واخفى موته إلى أن تجاوز بلاد مغراوة إلى سيق متجها إلى تلمسان فلقيه أخوه عثمان بن يغمراسن ولي العهد حيث بايعه الناس وأعطوه صفقة ايمانهم ثم دخل تلمسان، فبايعه العامة والخاصة.

راجع هذا في كتاب العبر ج7، ص: 188 – 189، التنسي، المصدر السابق، ص: 175، 176، ابن أبي زرع المصدر السابق، ص: 215.

[1] عن الحروب التي وقعت بين يغمراسن وبني مرين. انظر: كتاب العبر: ج، 7، ص: 171، 174، 176، 178، 363، 381، روض القرطاس، ص: 197، 198، 203، 204، 207، 209، الذخيرة السنية، ص: 83، 97، 131، 132، 145، 151.

الفصل الثاني

تطور العلاقات العبد الوادية المرينية مع خلفاء يغمراسن بن زيان

1- ولاية السلطان أبي سعيد عثمان :

ولد السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة 639هـ/1241م، و كانت مبايعته بعد وفاة والده في أوائل شهر ذي الحجة 681هـ/1283م و قد جاء في در التنسي : "ثم بويع بعده ابنه الملك الأسعد ، الهمام الأنجد ، ذو الهمم العلية و الشيم الرضية و المآثر الحسان، أمير المسلمين أبو سعيد عثمان ، فاستكثر من الأنصار ، و دوخ المعاقل و الأمصار ، انعقدت له البيعة في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة، فاقتفى في الجد و ترك الركون إلى الدَّعة ، سنن أبيه، و لم يكن همه إلاّ في إشادة بيت مجد يعليه ، فشمر في غزو الأعادي"[1].

أمّا يحيى بن خلدون فقد جاء في بغيته : "و كان شهما مقداماً محببا إلى القلوب ، ذا سياسة"[2].

و يتأكد من هذا أنّه كان ملكاشهما ، حسن السياسة و التدبير مقداماً صبوراً على حوادث الدهر و ضرباته.

و كان من المحتمل أن يورث يغمراسن السلطة إلى إبنه أبي زكرياء يحيى، غير أنّ أبا زكرياء قد توفي في حياته سنة 669هـ[3]، فولى يغمراسن ابنه، أبا سعيد عثمان فأبقاها هذا في أسرته ، إلى أن استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة 737هـ/1337م.

---

[1] التنسي، نفس المصدر السابق، ص 129

[2] يحيى بن خلدون – المصدر السابق ج : 1 ، ص : 208 ، 209، عبد الرحمن ابن خلدون – المصدر السابق ج : 7 ، ص 184 ، 190

[3] عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر، ج 7 ، ص 175 – 176 – 238 ، يحيى بن خلدون، نفس المصدر السابق، ج 2 ، ص 13 – 14

و أمّا عبد الرحمن ، فإنّه ولد بسجلماسة ، أثناء ولاية أبيه عليها، و نشأ بها ، ثمّ بتلمسان ، و كان فارساً شجاعاً اشتهر بين أبنا عشيرته ، حتّى أنّ عمه أبا سعيد تخوف منه على عرشه ، فأجازه إلى الأندلس بأولاده سنة 694هـ، فأقام بها سنوات عديدة ، ثمّ انتقل إلى بلاط السلطان المريني بفاس ، فمكث هناك قليلاً ، ثمّ لحق بابن عمّه السلطان أبي حمو موسى الأوّل ابن أبي سعيد، بتلمسان سنة 712 هـ، و في سنة 713هـ أجازه أبو حمو إلى الأندلس.

فاستقر بعد ذلك بغرناطة ، في بلاد السلطان أبي الوليد بن فرج ، من بني الأحمر ، و لمّا قامت الحرب بين هذا و قريبه أبي الجيوش نصر بن محمد ، كان عبد الرحمن ضمن الجيش الذي بعثه أبو فرج لمضايقة منافسه بوادي آش، و توفي في الهزيمة الكبرى التي مني بها جيش غرناطة ، بوادي فرتونة ، قرب وادي آش جمادي الأولى 716هـ/ 17 يولية 1316م[1].

و بقي أولاد أبي زيد عبد الرحمن بالأندلس حتى سنة 737هـ عندما استدعاهم السلطان أبوتاشفين عبد الرحمن الأوّل بالرجوع إلى تلمسان فرجعوا إليها و أقاموا مكرمين عنده حيث أعلى مكانتهم بين أمراء بني عبد الواد . و بقيت حالهم على هذا الشكل إلى أن استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان ، فارغموا على الإستقرار بفاس، و مكث بها أبو يعقوب إلى بداية إمارة أخويه أبي سعيد و أبي ثابت ، فعاد إلى وطنه.

---

[1] انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ، ص 339 – 340 ، عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص 238 – 239 ، يحيى بن خلدون نفس المصدر، ج 2 ، ص 14 – 15

و لم يستقر بتلمسان ، بل فضل أن يقيم بمدينة ندرومة ، و انتهت هذه الإقامة بسقوط إمارة أخويه ، فنقل مع الكثير من بني عبد الواد إلى فاس ، حيث عاش إلى أن قامت دولة ابنه أبي حمو الثاني.

سياسة أبي سعيد عثمان :

عندما لم يفلح يغمراسن في صراعه مع بني مرين بعد أن عظم شأنهم ، أوصى أبناءه و هو على فراش الموت بالتخلي في مجابهة المرينّيين و التوجه شطر البلاد الحفصية المجاورة ، و مما جاء في وصيته : "يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم و استيلائهم على حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم فإياك أن تحاربهم ، فإن مددهم موفور و مددك محصور و لا يغرنك أني كنت أحاربهم ، و لا أنكص عن لقائهم ، لأني كنت أخشى معرة الجبن عنهم بعد التمرس بهم، و الإجتراء عليهم ، و أنت لا يضرك ذلك لأنك لم تحاربهم. و لم تتمرس بهم فعليك بالتحصن ببلدك متى زحفوا إليك ، و حاول ما استطعت الإستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين اصحاب تونس ، ليستفحل بها ملكك ، و تكافئ حشد العدو بحشدك"[1].

و يفهم من نص الوصية ما يلي :

- إن بني مرين أصبحوا-عدة وعدداً- قوة لا قبل للعبد الواديين بها.
- إن قتال يغمراسن لهم كان محتما عليه.

---

[1] الإستقصا : المصدر السابق ج 3 : ص : 56 ، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ج 7 ، ص 189 ، 190 ، عطا الله دهينة ، وصية يغمراسن : مجلة تاريخ و حضارة المغرب العربي ، عدد 6 – 27 يولية 1969 ، ص 22 – 26 (بالفرنسية)

- يحذر يغمراسن ابنه من مواجهة بني مرين في معركة ما.
- ينصحه بالإلتجاء إلى الدفاع عند مهاجمتهم له ، و الإلتجاء إلى الحصون.
- و بالمقابل يحثه على تقوية جهازه الإقتصادي و البشري بالتوسع شرقا ، على حساب الحفصيين.
- و بالتالي يعمل على تقوية جهازه الحربي و تدعيمه لكي يستطيع فيما بعد مواجهة المرينيين بحشود يعادل حشودهم.
- و ينصحه باتخاذ معقل لدخيرته في الثغور الشرقية البعيدة عن العدو المريني.

فهذه العناصر التي اشتملت عليها وصية يغمراسن كانت هي الأساس الذي بنيت عليه استراتجية الدولة العبد الوادية لمدّة طويلة من حياتها.

فمنذ تولي عثمان السلطة سارع إلى مهادنة بني مرين[1].

و بالمقابل توجه لتأديب الإمارات الشرقية الموالية للحفصين[2].

و تبعه في ذلك ولداه : أبو حمو الأول و أبو زيان[3].

هذا و قد وصل التوغل العبد الوادي نحو الشرق إلى أوجه في عهد أبي تاشفين عبد الرحمن الأوّل ، حيث تمكنت قواته من افتتاح تونس عاصمة الحفصيين نفسها[4].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 190

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 190 - 192

[3] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 201 - 215

[4] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 224

و بالفعل أصبح الجيش العبد الوادي بعد فتوحاته الشرقية قوة لا يستهان بها ، خاصة في عهد أبي حمو الأول و ولده أبي تاشفين. أمّا بخصوص مواجهة بني مرين فقد طبق كلّ من عثمان و أبي حمو الأوّل نصيحة السلطان يغمراسن، حيث تجنبا ملاقاتهم في ساحة المعركة، و كان يلتجئان دوماً إلى أسوار تلمسان، دفاعاً عن كيانهما ضد عدوهما القوي[1].

و هكذا زادت حشودهم قوة كما كانت عليه في بداية عهد الدولة، و خير دليل على ازدياد قوة و حشود الدولة العبد الوارية في عهد أبي حمو الأوّل، أنّه حشد في وقت واحد أربع قوات عسكرية وجهها في غزوات عبر شرق البلاد ، و ذلك أنّه "عقد لمسعود ابن عمّه أبي عامر برهوم على عسكر و أمره بحصار بجاية، و عقد لمحمد ابن عمه يوسف قائد مليانة على عسكر، و لمولاه مسامح على عسكر آخر، و سرحهم إلى بجاية و ما وراءها لتدويخ البلاد. و عقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم ، و سرحه مع العرب من الدواودة و زغبة على طريق الصحراء"[2].

و كذا الحال بالنسبة لأبي تاشفين الأوّل الذي كثرت جشوده العسكرية حتى فل قوة الحفصيين. و قد أنزل بحصن واحد فقط ، و هو حصن تامزيزدكت الجديد ، القريب من بجاية "عسكراً يناهز ثلاثة آلاف"[3].

كما يلاحظ أن هذه الحشود العسكرية العبد الوادية منذ نشأتها تتألف من عدّة فئات منها : قبيلة السلطان، و الأحلاف ،من قبيلة بني عامر و غيرها.

---

[1] انظر عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج : 7 ، ص 212 ، 213 ، 223

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص : 212 – 213

[3] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص : 223

و في سنة 646هـ/1248م استخدم يغمراسن بن زيان كتيبة من عساكر الروم – الذين كانوا في خدمة الخليفة الموحدي (السعيد) – قدرت بـ "ألفين" من الفرسان . و بعد تآمرهم على يغمراسن سنة 652هـ/1254م منع استعمالهم في الجيش العبد الوادي تماماً، و بقي ذلك المنع معمولاً به إلى النهاية[1] و لكن ثبت فيما بعد أن المرتزقة المسيحيين بقوا في خدمة الدولة[2].

و فئة أخرى كذلك استخدمت ضمن الجيش العبد الوادي و هي فئة الحشم[3] و قد استخدمهم لأوّل مرّة عثمان بن يغمراسن في جبل وانشريس من قبائل توجين[4] و سار على نهجه بعد ذلك ولده أبو حمو الأوّل ، ثمّ حفيده أبو تاشفين الأوّل[5].

و هناك قبائل أخرى ملزمة بالمشاركة في الحروب إلى جانب الدولة العبد الوادية نظراً للعهود التي قطعتها معها ، و لكي يضمن السلطان العبد الوادي دوام ولائها ، كان يلزمها بتقديم الرهائن من ابنائها، و قد اتبع هذه السياسة أبو حمو الأوّل و بالغ فيها إلى حد كبير[6].

من هذه الفئات جميعها كانت تتكون الحشود العسكرية العبد الوادية..

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص : 174 ، 175

[2] مجلة تاريخ و حضارة المغرب ، العدد : 11 ، ص 32 ، 34

[3] حشم الرجل : خاصته الذين يغضبون لغضبه لما يصيبه من عبيده أو أهله، أنظر عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق ج7، ص 192.

[4] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص : 192

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص : 204 ، 205 – 228

[6] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص : 215

غير أنّه لم تمض على فترة الهدنة بين فاس و تلمسان سوى بعض سنوات حتى تعكر الجو ، و تدهورت العلاقات ، و انفجر الوضع على الحدود، و عاد شبح الحرب يهدد المنطقة بالخراب و الدمار.

ففي سنة 881هـ/1290م لجأ الأمير أبو عامرين السلطان أبي يعقوب المريني و أنصاره من الثوار إلى عثمان بن يغمراسن أمير تلمسان ، فكتب السلطان أبو يعقوب إلى الأمير العبد الوادي يطلب تسليم المتمردين ، فأبى و امتنع ، و قال لرسول السلطان أبي يعقوب و الله لا أسلمه أبداً و لا أبيع حرمتي و أترك من استجاربي حتى أموت[1].

و كان هذا التصرف من عثمان سبباً مباشراً في توتر العلاقات من جديد بين بني عبد الواد و بني مرين[2]. فاندلعت الحرب بينهما و توالت الهجمات من

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج : 7 ، ص : 441 ، 442 ، ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 278

[2] و كان السبب في ذلك هو عصيان أبي عامر و خروجه عن طاعة أبيه السلطان أبي يعقوب ، و التجائه إلى تلمسان و احتمائه بسلطانها عثمان بن يغمراسن و قد كان السلطان قد عقد لوزيره ابن عطوش الجناتي على مدينة مراكش و ترك معه ولده أبا عامر ، فلمّا عاد السلطان من حركته في انحاء المغرب رجع إلى فاس في منتصف ربيع 686 هـ/1288 م ، مشتغلاً بعرسه على بنت موسى بن رحو الغرناطية ، خرج عليه ابن أبو عامر و لحق بمراكش و دعا لنفسه في أواخر 687 هـ/1288 م ، و ساعده على ذلك عاملها محمد بن عطرا فتلهما السلطان و حاصر مراكش أياماً فاضطر الثائر إلى الفرار فالتجأ إلى تلمسان و احتمى بسلطانها عثمان بن يغمراسن 688 هـ/1288 م ، فأواهما و مهّل لهما المكان غير أن السلطان عطف و رضي على ابنه فصاد إلى مكانه و طلب عثمان بن يغمراسن أن يسلم إليه بن عطرا المتآمر مع ابنه فأبى و في بعض الروايات أن الرسول قد أغلض في القول فاعتقله عثمان فثارت في نفس أبي يعقوب الضغائن و الأحقاد الكامنة فاعتزم على منازلة تلمسان.

طرف بني مرين على تلمسان حيث حاصر المرينيون تلمسان سنة 1290 لكن بدون نتيجة تذكر.

فترك أبو يعقوب سبيلها في السنوات الموالية إذ كان منشغلاً عنها بأمر اسبانيا، و ثورة بني وطاس و لكنه لم يهملها، زاده حقداً عليها تفاوض ملك بني عبد الواد مع ملك بني الأحمر محمد الفقيه ضده سنة1292م.

و لم يتفرغ لمحاربتها إلاّ سنة 1295 فكانت حرباً طويلة المدى دامت إثنى عشر عاما و أحكم الخطة و احتل على التوالي تاوريرت الواقعة على وادي صا سنة 1295 م و وجدة سنة 1296 ، و ندرومة سنة .1298 و ناوش مرات عديدة تلمسان و اضطر في الأخير إلى مهاجمتها و محاصرتها. و كان ذلك يوم 6 مايو 1299م فعسكر أمام عاصمة أعدائه و عزم ألاّ ينصرف عنها قبل أن تسقط في حوزته ، و لم يقل حماة المدينة عنه عزماً ، إذ كانوا مصممين على الإستماتة و تقابلت هاتان العزيمتان طيلة ثمانية أعوام ، و ظلّ أبو يعقوب طيلة الفترة يبسط نفوذه على كامل المغرب الأوسط حتى مدينة الجزائر بالقوة تارة و بالتفاوض تارة أخرى.

و شيد سلطان فاس أبو يعقوب في مواجهة المدينة المحاصرة مدينة المنصورة[1] و اتخذها قاعدة للتوسع في أراضي بني عبد الواد ، مشددين بذلك الخناق على

= للتفصيل انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج : 7 ، ص 213، التنسي، المصدر السابق، ص 179.

[1] في أفناء الحصار شرع السلطان أبو يعقوب في إقامة بناء و إنشاء حضيرة المنصورة على نحو 4 كلم غرب تلمسان و كان ذلك في فصل الشتاء سنة 698 م / 1299 م جعلها السلطان معسكراً لجنده و قاعدة للتوسع على حساب بني عبد الواد و سماها "محلة المنصورة" أو تلمسان الجديدة ،

العبد الواديين المعتصمين بعاصمة ملكهم ، و رغم الوسائل التي استعملها المرينيون في منازلة تلمسان و التضييق عليها ، فإن صمود بني عبد الواد و إستماتتهم في الدفاع عن وجودهم قد احبط تلك المحاولات و حال دون سقوط تلمسان و لم تفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفاجئ[1] و لقي السلطان ابو يعقوب حتفه[2] دون أن يتمكن من اقتحامها و بموته رفع الحصار على المدينة و تنفس

= و كان فيما أنشأه بها يومئذٍ قصراً و سوقا ، نشأت مدينة جديدة و عرفت ازدهاراً اقتصادياً كبيراً. و كان حول القصر سورا يفصله عن سكنى الرعية و حول ذلك السور بنيت المنازل و القصور الأنيقة و الحمامات العمومية و الفنادق و الأسواق ، و اجريت مياه البساتين ، و انشئت دار الإسعاف ثمّ أحيطت منصورة هذه بسور أنشأته الحكومة المرينية 702 هـ/1302 م لحمايتها من الطوارئ فاصبحت بعد ذلك من أعصر الأمصار الجزائرية و أبرعها جمالاً ، قال ابن الخطيب : "منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها ، و لا وصف الواصفون مثلها ، و أمّا قصرها و مسكن الإمام بها فقد رأيت ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق و مباني مصر و الشام و المباني القديمة في الأندلس و مراكش و اجمع كلهم على أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره و يحق ما قالوه. للتفصيل انظر : التنسي، المصدر السابق، ص 178، 19، يحي بن خلدون نفس المصدر، ج 1، ص 121، عبد الرحمن بن خلدون – نفس المصدر: ج 7 ، ص 196، ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص 386.

[1] هلك السلطان أبو سعيد عثمان بعد خمس سنين من الحصار و قيل أنه شرب شراباً مسموماً تفادياً من معرة الهزيمة و الإنكسار و كانت وفاته يوم 703 هـ/ 1304 م ، فبويع ولده ابو زيان الأوّل ، أنظر : التنسي، المصدر السابق، ص 178 – 179.

[2] يقول التنسي: "و تمادى بها الحصار ، ثماني سنين و ثلاثة أشهر ، و حرك الله في تلك المدّة الولي الشهير أبا زيد عبد الرحمن الهزميري من مدينة أغمات حتى ورد على يوسف بن يعقوب، و هو محاصر لتلمسان ، فكلمه بالإنصراف عنهم ، و رغبه فيه غاية الترغيب فأبى إلاّ التصميم على ما هو عليه ، فلما يئس منه قام عنه مغضباً ، و قال : يجيء سعاد يقضي هذا، و كان يوسف بن يعقوب قد قتل الفقيه العالم أبا علي المليانى و استلب أمواله ، و من جملة ما أخذه حصيا اسمه

أهلها الصعداء بعد المشاق و الآلام التي عانوها من جراء الحصار الخانق الذي كانوا عرضة له[1].

= -سعادا- كان قد رباه أبو علي المليانى فكان يقول له المليانى أنت أخي فلما أخذه يوسف بن يعقوب صيّره من جملة الخصيان المتصرفين بين يديه. فلما كان يوم الأربعاء 7 ذي القعدة 706 هـ ، دخل الخصي المذكور على يوسف بن يعقوب و هو نائم ، فالقى الله في قلبه طلب ثأر مولاه فطعنه بسكين قي بطنه فكان في ذلك له الحتف و لأهل تلمسان اللطف" . غير أن هذه القصة لا توجد عند يحيى بن خلدون و لا عند أخيه عبد الرحمن بن خلدون، في الوقت التي توجد عند ابن ابي زرع، ص 285 . كما ذكره المقري "أزهار الرياض، ج 2 ، ص 335 - 336 ، القصة نفسها بتفصيل أكثر.

[1] أمّا أهل تلمسان فقد نالهم الجوع و اضطروا إلى أكل الكلاب و الثعابين ، و لم نفتر عزيمتهم بموت ملكهم المفلجئ . و يصف لنا صاحب الإستقصا أن أهل تلمسان قبل رفع الحصار : "نالهم فيها من الجهد و الشدة ما لم تنله أمة من الأمم و اضطروا إلى أكل الجيف و القطط و الفئران حتى أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس و خربوا السقوف للوقود و ظلت أسعار الأقوات و الحبوب و سائر المرافق تجاوز العادة و قد وصل ثمن مكيال القمح الذي يسمونه البرشالة و يتباعون به مقداره اثنى عشر رطلاً و نصف مثقالين من الذهب العين ، و ثمن الرأس الواحد من البقر ستون مثقالاً ، و من الظأن سبعة مثاقيل ، و أثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال و الحمر بثمن مثقال و من الخيل بعشرة دراهم و رطل من الجلد البقري ميتة بثلاثين درهماً و الهر بمثقال و نصف، و الكلب بمثله و الفأر بعشر دراهم و الدجاجة بثلاثين درهماً و البيضة بستة دراهم..." فاستهلك أهل تلمسان أموالهم و موجودهم و ضاقت أحوالهم و استفحل ملك يوسف بن يعقوب، حيث اتسعت مدينة المنصورة المشيدة و رحل إليها التجار بالبضائع من الأفاق و استبحرت في العمران ما لم تبلغه مدينة. انظر : عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق، ج : 7 ، ص 95 - 96، يحيى بن خلدون المصدر السابق، ج : 1 ، ص 210-211 ، دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد 5 ، ص 379 - 380 - 381 ، الإستقصا ج : 9 ، ص : 85 - 56 ، التنسي، المصدر السابق، ص 179 - 180

2- أبو زيان محمد الأوّل :

هو ابن السلطان أبي سعيد عثمان ، اسمه محمد ، ولد بتلمسان سنة 659هـ/1261م و قد جاء عند التنسي : "فلمّا توفي بويع ابنه الملك الجليل .الحسيب الأصيل الأمجد ، الأنجد ، أمير المسلمين أبو زيان محمد ، فنهض بحرب عدوه بجد و دافع عن حرمه في الصاعد الأشد غير أنّه لم تطل به أيامه، ..."[1].

و كان يشتهر بالنشاط و الحزم ورقة الحاشية و دماثة الطبع فاضلاً حسن التدبير.

تولى الحكم في أحرج الظروف و أعسر الأوقات ، حيث تولى عرش بني عبد الواد و عاصمتهم مهددة بالإنقراض ، و دولتهم بالإنهيار و حياتهم بالإضمحلال و ذلك لما نزل بهم من الحصار المريني ، و ما نكبهم من الرزايا و الفجائع و الآلام . فتحمل عبء كلّ ذلك أبو زيان وحده و تزعم قومه مجمعا رأيه على الكفاح و المقاومة إلى النهاية فإما ملك و إمّا هلك[2]. و بينما هو عازم على مواصلة الكفاح مع قومه ضد العدو المحاصر في صبر نادر و عزيمة قوية متحملين كلّ المشاق حتى لا تقع عاصمتهم في قبضة بني مرين و إذا بصوت الناعي يَنْعِي سلطان بني مرين أبا يعقوب يوسف صاحب الحصار.

و قد ذكر ابن خلدون هذا بقوله :" حدثني شيخنا محمد ابن ابراهيم الآيلي قال : جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج و هو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره و استدعى ابن جحّاف خازن الزرع فسأله كم بقي من

---

[1] التنسي، المصدر السابق، ص 130، 131، 132، 133، عبد الرحمن خلدون، المصدر السابق، ج 7. ص 202

[2] يحيى بن خلدون – المصدر السابق، ج 1 : ص 211 ، ابن ابي زرع – المصدر السابق، ص 286

الأهراء و المطامير المختومة ؛ فقال له إن ما بقي عولة اليوم و الغد ... فاستوصاه بكتمانها ، و بينما هم في ذلك دخل عليه أخوه أبو حمو فأخبروه فوجم لها و جلسوا سكوتاً لا ينطقون ، و إذا بالخادم "دعدع" قهرمانة القصر من وصائف بيت السلطان أبي السحاق و حظية أبيهم خرجت من القصر إليهم و حيتهم تحيتها و قالت : تقول لكم حظايا قصركم و بنات زيان حرمكم مالنا و للبقاء ؟ و قد أحيط بكم ، واسف لالتهامكم عدوكم ، و لم يبق إلى فواق بكيئة لمصارعكم ؟ فأريحونا من معرة السبي و أريحو فينا انفسكم ، و قربونا إلى مهالكنا . فالحياة في الذل عذاب ، و الوجود بعدكم عدم فالتفت أبو حمو إلى أخيه ، و كان من الشفقة بمكان و قال : لقد صدقتك الخبر فما تنتظر فيهم ؟ فقال : يا موسى ؛ أرجئني ثلاثا ، لعل الله يجعل بعد عسر يسراً ، و لا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرح اليهود و النصارى إلى قتلهن ، و تعال إلي نخرج مع قومنا إلى عدونا فنستميت و يقضي الله ما شاء . فغضب أبو حمو و نكر الأرجاء في ذلك ، و قال: إنا نحن و الله نتربص المعرة بهن و بأنفسنا ، و قام عنه مغضباً ، و جهش السلطان أبو زيان بالبكاء . قال ابن حجاف :و أنا بمكاني بين يديه واجم ، لا أملك متأخراً و لا متقدماً ، إلى أن غلب عليه النوم فما راعني إلا حرس الباب يشير إلى أن أذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين بسدّة القصر ؛ فلم اطق أرجع جوابه إلاّ بالإشارة ، و انتبه السلطان من خفيف إشارتنا فزعاً ، فأذنته و استدعاه ، فلما وقف بين يديه قال له : إن يوسف بن يعقوب هلك الساعة ، و أنا رسول حافده أبي ثابت إليكم، فاستبشر

السلطان و استدعى اخاه و قومه حتى أبلغ الرسول رسالته بمسمع منهم، و كانت إحدى المغربات"[1].

و باغتيال السلطان أبي يعقوب المريني ، اختلفت كلمة أصحابه و تشتت قومه حسب تشتت أغراض و مصالح رؤسائه، فذهب العناء عن آل زيان و قومه و جميع سكان عاصمتهم بعد حصار طويل دام ثمانية سنين و ثلاثة أشهر و خمسة أيام ، بلغ فيها عدد الموتى من أهل تلمسان قتلاً و جوعاً زهاء المائة و العشرين ألفاً.[2]

و كان أهم عمل بدأ به السلطان أبو زيان استرجاع نفوذ دولته في شرق البلاد فأعاد إلى حضيرتها منطقة شلف ، وجبل وانشريس و المدية و غيرها من المدن ، ثم عاد إلى تلمسان في رمضان 707 هـ.

و فور وصوله إلى عاصمته أمر أبو زيان بإصلاح ما أفسدته الحرب في المباني و القصور و الأسوار و المزارع غير أنّه توفي بعد ذلك بقليل في سنة 21 شوال 707 هـ[3].

3- أبو حمو موسى الأول :

هو السلطان أبو حمو موسى الأوّل ابن السلطان أبي سعيد عثمان يغمراسن بن زيان، ولد سنة 665 هـ /1266م و بويع بتلمسان يوم وفاة أخيه

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق ج 7 ، ص 96.

[2] يحيى بن خلدون – المصدر السابق، ج 1 : ص 211

[3] تولى السلطان أبو زيان محمد الحكم من سنة 703 هـ/1303 م إلى 707 هـ/1308 م.

للتفصيل راجع يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1 ص 212، التنسي المصدر السابق، ص 180، 181.

السلطان أبي زيان الأوّل يوم الأحد 21 شوال 706 هـ / 26 أفريل 1307 م، و كان شجاعاً شديداً في غير قساوة ، لينا في غير ضعف ، حازماً صارماً ، و قد حدد ابن خلدون معالم هذه الشخصية القوية بقوله : "و كان صارماً يقظاً ، حازماً ، داهية ، فوي الشكيمة ، صعب العريكة، شرس الأخلاق ، مفرطاً في الدهاء و الحدة ، و هو أول ملك زناتة الذي رتب مراسم الملك ، و هذب قواعده، و أرهف في ذلك لأهل ملكه حده، و قلب لهم مجن بأسه حتى ذلوا لعز ملكه و تأدبوا بآداب السلطان ، قال سمعت عريف بن يحيى أمير سويد من زغبة و شيخ المجالس الملوكية يقول و يعنيه : موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة و إنّما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان فحدّ حدودها، و هذب مراسيمها ، و نقل عنه أمثاله فتقبلوا مذهبه و اقتدوا بتعليمه"[1]، كما كان محبا في العلوم و أهله[2].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ، ص 98 ، التنسي ، المصدر السابق، ص181، 182، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 212،213.

[2] ورد عليه بعد موت يوسف بن يعقوب ، الفقيهان العالمان الجليلان أبو زيد و أبو موسى ابنا الإمام ، فكان لزاماً عليه بعد مقتل عدوه و فك الحصار عن تلمسان الإعتناء بالعلم و القيام بحقه ، فأكرم مثواهما و احتفل بهما ، و بنى لهما المدرسة التي تسمى باسمهما ، و هذه المدرسة لم يبق لها أثر ، غير أنّ المسجد بمنارته الذي كان إلى جانب المدرسة ، ما زال قائماً و هو معروف اليوم عند أهل تلمسان باسم "جامع أولاد سيدي الإمام" و كان يكثر من مجالستهما و الإقتداء بهما. للتفصيل راجع التنسي، المصدر السابق، ص، 191.

أ- سياسته :

افتتح عهده بإبرام الصلح[1] و تحقيق السلم مع أمراء بني مرين تأميناً لظهره. حيث أوفد كبار وزرائه إلى السلطان أبي ثابت[2] فأمضوا معا صلحاً ، ثم اتجه إلى النواحي الشرقية من تلمسان .

و لهذا ففي أيامه حظيت الدولة بمسالمة بني مرين و أمنت من خطورة الحروب و الغارات و استعادت قوتها و بهجتها و تفرغ أبو حمو موسى لتمهيد المنطقة الشرقية و إقرار سلطانه في سائر جهاتها، و راوده حلم أبيه بالإستيلاء على بجاية.

ب- عملياته العسكرية :

كان أوّل عمل قام به هو تعزيز المدينة حتى تستطيع الثبات في وجه حصار متوقع ، فهدم مدينة يوسف بن يعقوب و أصلح ما تهدم من تلمسان و بني الأسوار و حفر الخنادق ، و خزّن فيها الطعام و الملح و الفحم و الحطب

---

[1] و حياء عند التنسي : "لما قتل يوسف بن يعقوب ، ولى مكانه ابنه أبو سالم ، و كان ابن أمة ، فلم يرضي أبو ثابت بن أبي عامر متقدم الذكر ، و بعث إلى السلطان أبي حمو أن يعينه بالطبول و الرايات و ما أمكنه من الجيش ، مصطلحين ما عاشا ففعل . و غلب أبو ثابت و قتل عمه و انصرف موفيا بما التزم" ، راجع : التنسي، المصدر السابق، ص 183.

[2] تولى السلطان المريني أبو ثابت الحكم من سنة 706 هـ 1307/م إلى سنة 1308 / 708 م. و هو حفيد السلطان يوسف بن يعقوب و كان والده و هو أبو عامر قد فرّ إلى تلمسان . راجع التنسي المصدر السابق ص 186.

ما لا حد له و لا حصر. و قد ذكر يحيى بن خلدون : "و شيد الأسوار و أحفر الخنادق و ملأ المطامير و الصناديق"[1].

و لمّا أطمأن على ملكه من الناحية الغربية و قام بجميع الإحتياطات في حالة هجوم مفاجئ من هذه الجهة ، اشتغل بتطهير الحواشي و الجوانب المحيطة به ، و تابع[2] العمليات العسكرية بنفسه تجاه توجين و مغراوة فأخضعهما لسلطته، إذ كانوا قد خلعوا الدعوة العبد الرادية أيام الحصار، و قلّم أظافر زعمائهم الذين كانوا على رأس هذه الحركات أمثال : محمد بن عطية في نواحي وانشريس ، و راشد بن محمد في شلف ، و غزا بلاد وانشريس، و عين من قبله هناك ولاة أمثال مصامح، و يوسف بن حيون الهواري ، و مدّ سيطرته بعد ذلك إلى متيجة[3]، و مدينة الجزائر نفسها التي سلمها له أميرها ابن علان بعد أن استبدّ بها حوالي أربعة عشر عاماً.

فأخذه إلى تلمسان حتى توفي ، ثمّ سيطر على مدينة دلس و أسس مدينة أزفون على الساحل ، و مدّ نفوذه إلى إقليم الزاب بالصحراء الشرقية. و بذلك تقلّص نفوذ الحفصيين على كثير من جهات الجزائر الشرقية ، في حين توسع نفوذ بني عبد الواد.

و في الوقت الذي كان أمراء بني عبد الواد يركزون نفوذهم و يوسعون سيطرتهم في الجهات الشرقية ، كان سلطان المغرب أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق يتأهب للعدوان من جديد ضدّ تلمسان. و فعلاً قاد حملة عسكرية

---

[1] يحيى بن خلدون ، المصدر السابق، ج 1 : ، ص112 .

[2] يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج : 1 ، ص 126 ، و العبر ، ج 7 ، ص 202

[3] يحيى ابن خلدون المصدر السابق، ج : 1 ، ص 128 ، و العبر ج : 7 ، ص 209

إليها عبر ممر تازة و وجدة . و نزل في ضواحيها و لكنّه فشل في إقتحامها و اضطر إلى الإنسحاب[1].

و أغتنم أبو حمو هذه الفرصة و أخذ يصفي نفوذ المرينين بالمغرب الأوسط، فقضى على إمارة الثعالبة بمتيجة المشايعة لبني مرين و طارد أمراءها إلى جهات كثيرة من حوض شلف و قام ببناء قصره المعروف باسم : (قصر عمي موسى) الذي تحول إلى قرية بهذا الإسم جنوب شرق وادي رهيو. و لم يكتف بهذا فلاحق الثائر المغراوي راشد بن محمد إلى بلاد القبائل، و قام بتشييد قرية أقبو على الضفة اليسرى من وادي الصومام والساحل بين تازمارت و بجاية على السفوح الشرقية بجبل أكفادو بجرجرة[2].

---

[1] تولى السلطان المريني أبو سعيد عثمان الحكم من سنة 710 هـ 1310/م إلى 731 هـ 1331/م، وقعت هذه الحركة على تلمسان سنة 714 هـ 1314/م.

قال ابن خلدون : "و كان معه أي مع أبي سعيد في عسكره أخوه يعيش بن سعقوب و قد أدركته بعض الإستزابة بأمره ففرّ إلى تلمسان ، و نزل على أبي حمو و رجع السلطان" للتفصيل : انظر : عبد الرحمن بن خلدون العبر ج 7 :ص 505 ، التنسي ، المصدر السابق، ص 187 ، يحيى بن خلدون المصدر السابق، ج1 ص 213

[2] تجدر الملاحظة هنا إلى أن حدود بني مرين قد تقلصت في عهده حتى وصلت إلى ما وراء تاوريرت غرباً. و انقطع المدر من الأندلس ، و عاشت الدولة و كأنّها في حالة راحة بعد فترة الإزدهار التي عرفتها في عهد أبي يوسف و أبي يعقوب. و لولا انشغال بني عبد الواد بالتوسع شرقاً في تلك الفترة ، لكانوا قد أتوا على عدة مدن من مملكة بني مرين و لهذا يمكن القول أن دولة بني مرين عاشت فترة مظلمة في تاريخها امتدت من مصرع السلطان أبي يعقوب سنة 706 هـ / 1307 م ، حتى وفاة أبي سعيد سنة 731 هـ/1331م ، للتفصيل راجع : عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ، ص 517 ، السلاوي، المصدر السابق ج 3 ، ص 110 ، يحيى بن خلدون – المصدر السابق ج 1 ص 213 ، مظم الدر و العقيان للتنسي ،ص 187.

جـ- إغتيال أبي حمو :

لقد عملت عوامل الغيرة أعمالها في الأمير أبي تاشفين بسبب ما كان عليه والده أبو حمو من تقديم ابن عمه أبي السرحان مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن بن زيان عليه و تقريبه من مجلسه ، نظراً لصرامته و دهائه و نجابته بل و كثيراً ما كان يظهر ذلك أمام ولده أبي تاشفين فيستشير أبا السرحان بن أبي عامر و يحادثه في شؤون الدولة و أعمالها و أبو تاشفين جالس دون أن يلتفت إليه. و قد ذكر هذا يحيى بن خلدون بقوله : "و كان رحمه الله مؤثراً بابن عمه أبي السرحان مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن بن زيان عن ابنه السلطان أبي تاشفين و مفضلاً أياه عليه في السر و الجهر و النهي و الأمر، فكثيراً ما كان يعيره به و يوبخه في الملأ بسببه. و ربما أسمعه هجر القول غير مبال عاقبته"[1]. و قد تولد نتيجة هذا التصرف لدى أبي تاشفين الحقد و الغضب تجاه أبيه و كان له بطانة من أعلاج نجباء كهلال القطلاني[2] و غيره أشاروا عليه بقتل مسعود المذكور و اعتقال أبيه ، و الإستقلال بالملك و السلطة، و سهلوا عليه ذلك حتى وافقهم فعزموا على ذلك يوم الأربعاء 22 جمادي الأولى 718 هـ، و قصدوا السلطان بداره حيث كان معه مسعود و بنو ملاح[3]، و غيرهم من

---

[1] يحيى بن خلدون – المصدر السابق – ج : 1 – ص : 214

[2] القطلاني – نسبة إلى قطلونية و هي مقاطعة بالشرق الشمالي من جزيرة الأندلس ، و هي اليوم مقسمة إلى قسمين : (1) تابع لاسبانيا – (2) : تابع لفرنسا ، و اكبرا لمقاطعة برشلونة.

[3] بنو الملاح أسرة منها عدة موظفين ساميين خدموا الدولة العبد الوادية، أولهم عبد الرحمن بن محمد بن الملاح الذي تولى منصب صاحب الأشغال عند السلطان يغمراسن. قال يحيى بن خلدون: " هم بيت شراوة من أهل قرطبة احترافهم السكاكة و أولو أمانة و دين" ، انظر يحيى بن خلدون – المصدر السابق: ج : 1 ، ص 121.

بطانته. فدخلوا عليهم و السلاح مشهراً. فأوّل ما بدأ به الأعلاج قتل السلطان خفية منه على نفوسهم إذ بقي ثم استأصلوا الباقين.

4- أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل :

هو السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل ابن السلطان أبي حمو موسى الأوّل ، ولد سنة 692هـ/1293م و بويع صبيحة الغد من يوم اغتيال والده يوم الخميس 23 جمادي الأولى 718هـ /23 حوان 1318م و قد عرف أبو تاشفين بين ملوك الدولة العبد الوادية، بميله الشديد و تعلقه بالفنون الجميلة و لا سيما فن المعمار ، و لم يكن هذا كلّه ليمنعه من التحمل لأعباء الدولة و القيام بمهامها أحسن قيام ، حيث أشاد الدور و القصور، و سكّ النقود ، مع ما كان من الإمعان في اللهو و القصف.

و قد ذكر يحيى بن خلدون هذا حيث قال : "ذوالهمم المزاحمة للكواكب، و العزائم الطاعنة في صدور المواكب ، و العطايا المخجلات للسحائب السواكب ، بزغت بأفق الدولة شمسه ، فأمّحى أمسه ، و اكتمل بسماء العز أبداره، فتسرّى عن قمر الدولة سراره . ثم أدرك البدو و الحضر ، و استخدم ربيعة و مضر ، وثاقف عداه شرقاً و غرباً ، و ناجزهم في عقر الديار طعناً و ضرباً، فترك السهام حصيداً ، و أوسع القنا تقصيداً ، هذا مع اقتطافه زهر السرور الحميم ؛ و إشرافه على حرم اللّذات من ثنية التنعيم ، و أطرح الهوادة، و امكان الهوى من ناصية المقادة ، فكم زخرف من قصور و صروح ، و أطاب من غبوق و صبوح ، و كم دوّخ من قبيل و مصر ، و جمع بين لَذّةٍ و نَصْرٍ، إلاّ أنّ الدنيا الرهو كدّرته الصفو ، و ابتزته الشّوب و العضد فراشت إليه سهام

العدى، و تحيفته من أيامها و لياليها بالمدى ، إلى أن أمكنت منه يد الردى، و أسمعت بزهواته صوت الصدى"[1].

و لّما كان توليه الحكم بهذه الصفة المرعبة ، اشتد به الحذر و خشي من الفتك به فأسرع بإبعاد سائر القرابة الذين كانوا بتلمسان من ولد يغمراسن و بعث بهم إلى الأندلس ، حذرّاً و خوفاً من ترشيحهم و ما يترتب عن ذلك من فتن على الدولة من طرفهم ، و أسند الحجابة مولاه هلالاً فاضطلع بأعبائها ، و استبد بالعقد و الحل و الإبرام و النقض إلى أن نكب به[2].

أ- سياسته :

لم يتبوأ أحد من ملوك بني عبد الوادي خاصة من جاءَ بعد يغمراسن إلاّ و جعل همه الوحيد القضاء على القبائل المناهضة للدولة في الجهات الشرقية، فسار أبو تاشفين الأوّل على خطة أسلافه من ملوك بني عبد الوادي[3].

فكان أوّل عمل قام به إغارته سنة 719م-1319م، لإستئصال محمد بن يوسف الثائر على أبيه بالشرق بجميع قبيله و أحلافه من زناتة و سويد، و حاصرهم جميعاً في ربوة توكال من جبل وانشريس و دام الحصار ثمانية أيام، إلى أن جاعت مواشيهم ، و نفذت المؤن و الذخائر فأخذهم عنوة ، و استأصل نفوسهم و أموالهم و سيق إليه محمد بن يوسف المذكور أسيراً فقتله و عَفَا عن

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج: 1، ص 215 ، راجع عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ج7، ص218-219

[2] محمد بن يوسف ، بن يغمراسن ، راجع يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج1 ص129 ، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ج 7 ، ص213

[3] يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1 ، ص 216 ، عبد الرحمن بن خلدون ج 7 ، ص220

جميع الناس ، و استمر في التوسع شرقاً حتى وصل بجاية و نزل بها ثلاثا، ثمّ رجع إلى دار ملكه ، كما كان أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل يتذكر تلك الحملة الشنعاء التي شنها عليهم الحفصيون في عهد أبي زكرياء الأوّل سنة 639هـ/1242م، و ليس من السهل كذلك أن ينسى انكسار مؤسس الدولة العبد الوادية – يغمراسن بن زيان – و انهزامه أمام هذه الحملة الحفصية.

لهذا ظلّ العبد الواديون يتحينون الفرص ليثأروا من خصمهم و استغل أبو تاشفين الأوّل حدوث اضطراب بين سكان قسنطينة تقوضت منه أركان الدولة الحفصية ، فاسرع لذلك أبو تاشفين عبد الرحمن الأوّل و بعث بطائفة من الجند لاستطلاع أحوال التخوم الشرقية لمعرفة قوة الخصم الحربية المقيمة بالحدود و كان ذلك سنة 720هـ/1320م. و كان على رأس هذه الحملة موسى بن علي الكردي ، و قد وصل إلى قسنطينة و حاصرها و لكن دون جدوى ، فعاد إلى وادي بجاية و بنى ببكر حصناً، ترك به القائد يحيى بن موسى الجَمّي، بحصة وافرة من الجند و عاد[1].

و من أهم التحرشات و الغارات التي وجهها عبد الرحمن ابو تاشفين الأوّل على حساب أملاك الحفصيين الغارة التي قام بها سنة 726هـ/1326 حيث توجه موسى بن علي باجيوش ، فنزل قسنطينة ، و أفسد بأرضها الزرع و الضرع و عاد إلى وادي بجاية ، فاختط حصن تامزيزدكت ، و قسم مسافاتها على الجيش فبنيت في أربعين يوماً ، و أمر السلطان بحمل الزرع إليها من جميع البلاد الشرقية ، فشحنت مخازنها و عندها اشتد الحصار على أهل بجاية ، فغلت

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج : 1 ، ص 216 ، عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ، ص 221

أسعارهم و وهنت قواهم فاستغاثوا بسلطانهم أبي يحيى فأجابهم بإرسال جميع قواده بجيوشه ، حيث التقى الجمعان بالأربعاء من الوادي الكبير فانهزم الحفصيون و مات ظافرهم الكبير و استبيحت محلاتهم جملة[1].

و لما غضب السلطان من قائده موسى[2] بن علي ، و نكب به ، أرسل يحيى بن موسى[3] السنوسي في العساكر إلى افريقية و معه القواد ، فعاثوا في نواحي قسنطينة ، و وصلت غارتهم إلى عنابة.

و في سنة 729 هـ ، وفد حمزة بن عمر على السلطان أبي تاشفين طالباً النجدة ، و وفد معه عبد الحق بن عثمان ، فحول الشوك من بني مرين، و كان قد نزل على السلطان أبي يحيى منذ سنتين فغضب منه و لحق تلمسان فبعث السلطان معهم جميع قواده بجيوشه بقيادة يحيى بن موسى ، فلقيهم السلطان أبو يحيى بالرياس من ضواحي بلاد هوارة ، و انخذل عنه أحياء العرب من أولاد مهلهل الذين كانوا معه ، و انكشفت جموعهم و استولوا على محلاتهم[4] بما فيها

---

[1] بنى أبو تاشفين في حركته الأولى سنة 721 هـ/ 1322 م ، حصناً قرب بجاية ، ثمَّ اختط مدينة قرب بجاية أيضا اسماها تامزيزدكث في حملته الثانية 726 هـ/ 1326 م ، راجع : البغية ج : 1 ، ص 135- 137 ، عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق ج 7 ، ص 221 ، 223 .

[2] موسى بن علي الكردي ، فروا أمام النثر ، و نزلوا على المرتضى بمراكش ، فأكرمهم ، و نشأ موسى بين حرم يوسف حتى إذا نزل محاصرًا لتلمسان ، أغضبه ذات يوم ، فلحق بعثمان الأوّل ، فعرف فضله ، و بالغ في اكرامه ، و تولى قيادة جيوش أبي حمو.

[3] يحيى بن موسى من بني سنوس بطن من كومية كانوا في حلف بني كمي من بني عبد الواد ، فولاه أبو حمو مراقبة الحرس الليلي و ضبط الأبواب و قسم القوت بمقدار على المقاتلة.

[4] يحيى بن خلدون، المصدر السابق – ج 1 ، ص 138 ، عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق ج 7 ، ص 224

من الحريم ، و على ولديه أحمد و عمر ، و ارسلوا بهما إلى تلمسان ، و لحق السلطان أبا يحيى بقسنطينة و قد أصابه بعض الجراح في ميدان المعركة، و استمر يحيى ابن موسى و ابن أبي عمران في سيرهما إلى تونس[1]، فاستولوا عليها ، و يعود يحيى بن موسى في جموع زناتة بعد أربعين يوماً من دخولها، حيث عاد إلى تلمسان . و بلغ الخبر السلطان أبا يحيى بعودة زناتة ، فتوجّه إلى تونس و أبعد عنها ابن أبي عمران بعد أن كان قد أوفد من بجاية على ملك المغرب ابنه أبو زكرياء يحيى و معه أبو محمد بن تافراكين[2] من مشيخة الموحدين، مستنجداً بأبي تاشفين و داخل السلطان أبا تاشفين بعض أهل بجاية و مكنوه منها ، و سرعان ما أقلع عنها و ولى ابن مزروع من مشيخة بني عبد الواد على الجيش الذي بتامزيزدكت و أمره ببناء حصن أقرب من بجاية عن تامزيزدكت، فبناه بالياقوتة في أعلى الوادي تجاه بجاية و شدد عليها الحصار حتى تدخل السلطان أبو الحسن المريني الذي فك عنها الحصار.

ب- التحالف المريني الحفصي :

استغاث السلطان الحفصي بأبي سعيد المريني على دفع خطر بني عبد الواد و يعرض عليه عقد زواج بين ابنه أبي الحسن و إحدى الأميرات الحفصيات، فاستقبل السلطان المريني هذا الوفد أحسن استقبال ، و وافق على تلبية طلب أبي يحيى و على عقد الزواج، و كان ذلك بدون شك فرصة نادرة أراد بنو مرين

---

[1] محمد بن أبي بكر المعروف بابن أبي عمران أمير حفصي جاء من طرابلس ، مطالبا بعرش تونس، و تغلب في عدّة لقاءات على الخليفة الحفصي ، راجع : العبر ج : 6 ، ص : 760 – 764.

[2] من مشيخة الموحدين ، راجع : عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 224 ، يحيى بن خلدون – المصدر السابق، ج : 1 ، ص : 193.

اغتنامها ليحققوا حلماً كان يراود أذهانهم منذ عهد طويل، و هو القضاء على دولة بني عبد الواد و الإستيلاء على المغرب الأوسط، فبعث أبو سعيد المريني وفوداً إلى أبي عبد الرحمن بن أبي تاشفين الأوّل يطلب منه الكف عن مهاجمة بلاد افريقية ، و الإقلاع عن حصار بجاية ، فكان الجواب بالرفض ، و في تلك الأثناء توفي السلطان المريني[1]، و خلفه ابنه أبو الحسن[2]، فأعاد الطلب الذي أقره أبوه شافعاً للسلطان الحفصي ، فكان رد أبي تاشفين لشفاعته أسوأ من الأوّل، و قال له : "كف عنهم سنة واحدة ليسمع الناس أنّي دافعت عن صهرى و يقدروا قدري"[3] غير أن رد الأمير العبد الوادي كان سلبيا ، حيث أساء القول لوفد السلطان أبي الحسن ، "و أفحش بمجلسه بعض السفهاء في الرد عليهم و النيل من مرسلهم"[4]، و عندئذ لم يبق أمل في استمرار السلم بين الدولتين، و شرع أبو الحسن يستعد للهجوم على المغرب الأوسط و يتأهب للحرب[5].

جـ- إستيلاء أبي الحسن على المغرب الأوسط :

و في سنة 735هـ/1335م، غادر السلطان أبو الحسن المريني فاس على رأس حشود ضخمة ، و قد اكتسح في طريقه مدن بني عبد الواد ، وجدة ، ندرومة، هنين ، و نزل تسالة بالقرب من سيدي بلعباس ، ثمّ أرسل إلى صاحبه الحفصي

---

[1] وفاة السلطان المريني ابي سعيد 731هـ/133م.

[2] تولى السلطان أبو الحسن المريني الحكم من سنة 731هـ/133م إلى سنة 749هـ/1348م.

[3] السلاوي : المصدر السابق، ج 3 ، ص123

[4] يحيى بن خلدون – المصدر السابق – ج 1 : ، ص 218 ، عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج 7 : ، ص 226 ، التنسي، المصدر السابق ص 145.

[5] التنسي، المصدر السابق، ص 146

يدعوه إلى مهاجمة معسكر العبد الواديين ببجاية، لغزو حصن العبد الواديين المعبأ يومئذٍ بالأقوات و الجند المعد لغزو بجاية ، و قبل أن يصل الغزاة هؤلاء الحصن أجفل من كان بها من بني عبد الواد ، و قد عمل فيها المرينيون و من معهم من الجند الحفصي يد التخريب و التدمير فنسفوها نسفاً و تركوها خراباً، و انتهبوا ما جمعه فيها السلطان أبو حمو الأوّل و ولده أبو تاشفين من الأقوات و الأرزاق، و كان بها من ذلك كما يقول عبد الرحمن ابن خلدون : "بحراً لا يدرك ساحله، و ذلك أن السلطان أبا حمو كان قد أوعز إلى العمال بسائر البلاد الشرقية منذ أن أنشأ مدينة البطحاء بنقل أعشار الحبوب و سائر الأقوات إليها، و سار على خطته في ذلك ولده من بعده أبو تاشفين الأوّل إلى أن حلت بهم هذه الفاطرة"[1].

و لم تكد تنتهي سنة 736هـ/1336م، حتى كان السلطان أبو الحسن قد بسط نفوذه على جميع الممتلكات الشرقية لدولة بني عبد الواد ، و في تلك الأثناء كان السلطان أبو الحسن يشرف بنفسه على مقاتلة بني عبد الواد و سخر لهذه الحرب ، أحدث الآلات المعهودة أنذاك ، و لم يتمكن المحاصرون من حمل الجيش المريني فك الحصار عن المدينة.

"أدار عن البلد المخرب سياجاً من السور و نطاقاً من الخندق و نصب الآلات و المجانيق من وراء خندقه و شيد قبالة كلّ برج من أبراج البلد بركا على ساق خندقه ينضح رماته بالنبل رماتهم و تغلوهم بأنفسهم حتى شيدوا برجاً آخر أقرب ، و ترتفع شرفاته فوق خندقهم ، و لم يزل يتقرب بوضع من حد إلى ما بعده حتى اختطها من قرب على مسافة خندقهم ، و تماصع المقاتلة

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج 7 ، ص 227

بالسيوف من أعاليها و قربت المجانيق إلى زحمها و دكها ، فنالت من ذلك فوق الغاية"[1].

و في 22 رمضان 737هـ/24 أفريل 1337م اقتحم الجيش المريني العاصمة العبد الوادية ، و ملكها عنوة ، انحاز أبو تاشفين و ثلاثة من أبنائه و وزيره موسى بن علي الغزي إلى باب القصر ، يقاتلون دون الحرم و الأولاد إلى أن قتلوا جميعاً[2]، فكان ذلك أوّل انتصار هام حققه بنو مرين بالمغرب الأوسط ، عظم به نفوذهم و ظهر أبو الحسن المريني بمظهر الملك القوي، و ذاع صيته في الآفاق، و هكذا أفل نجم بني عبد الواد و انتهى دورهم التاريخي الأوّل[3].

و قد عامل السلطان أبو الحسن المريني أمراء بني عبد الواد، و فرسانهم معاملة حسنة فشملهم بعطفه ، و أبقى لهم مناصبهم و امتيازاتهم، و كفل أبناء أبي تاشفين الصغار و أنزلهم في قصوره، و استعمل من توسم فيه الكفاءة و الشجاعة من الفرسان في جيشه و في إدارته ، فحصلت له بذلك زعامة المغربيين الأوسط و الأقصى ، و بهذا الإنتصار أصبحوا أقوى من حكم بلاد المغرب الإسلامي و كانوا الورثة الحقيقيين للأمبراطورية الموحدية[4].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق ج 7 : ، ص.533

[2] نفس المصدر – ج 7 ، ص 229 ، يحيى بن خلدون ، المصدر السابق، ج 1 ، ص 141 ، التنسي – المصدر السابق ص.146

[3] رمضان 737 هـ 2 - مايو 1337 م ، راجع ابن خلدون – المصدر السابق، ج 7 ، 536 ، خلاف للتنسي الذي يقول يوم 22 رمضان 737 هـ 24 /أفريل 1337 م.

[4] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق – ج 7 ، ص 537 ، راجع كذلك السلاوي – المصدر السابق، ج : 3 ، ص 126.

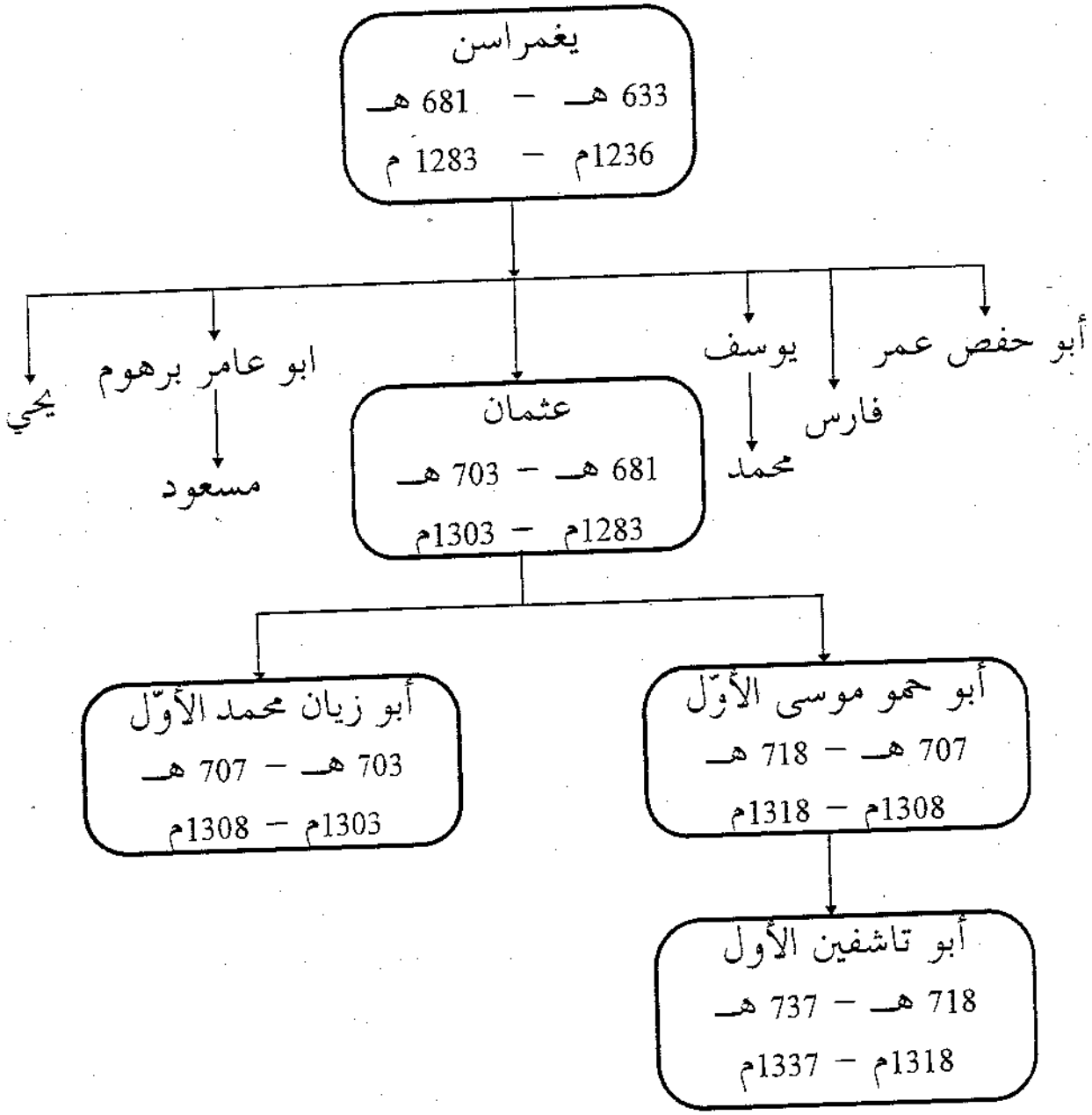

سلاطين الدولة العبد الوادية في دورها الأول

5- العلاقات العبد الوادية الحفصية :

لقد كان لمبايعة خليفة الموحدين على السعيد من بني عبد المؤمن بمراكش اضطراب كبيرٍ أدى إلى نقض البيعة و شق عصا الطاعة في كثير من أرجاء المغرب ، فكانت فرصة لخروج ولاة النواحي عن الخليفة و نبذ طاعته ، و كان من بينهم عبد الله بن زكرياء الهزوجي صاحب تلمسان ، فنشأ عن ذلك بينه و بين يغمراسن بن زيان المتحيز يومئذٍ لبني عبد المؤمن خلاف و نزاع كبير أدى إلى تسلط يغمراسن على تلمسان ، و تمكن من زمام السلطة و الملك، فعلت مكانته على سائر أحياء زناتة الشيء الذي أدى إلى ظهور منافسين له من زناتة خاصة بني توجين و مغراوة ، فخرجوا على طاعته ، فاستعدّ لمحاربتهم و منازلتهم في ديارهم ، فكانت له معهم حروب عديدة و مشهورة و قد تحالفت هذه القبائل مع الأمير الحفصي أبو زكرياء بن أبي حفص[1] الذي استقل بشؤون أفريقية و اقتطعها من الدولة الموحدية.

و كانت له مطامع توسعية ترمي إلى الإستيلاء على المغرب و بالتالي تمكنه من كرسي الدعوة بمراكش، و كان يعتقد أن تحالفه مع زناتة يوصله إلى ما يصبو إليه[2].

و كان يغمراسن منذ تقلده الحكم متحيزاً للموحدين[3]، الشيء الذي جعل

---

[1] أبو زكرياء مؤسس الدولة الحفصية بتونس 625 هـ/1228 م ؛ راجع عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج 6 ، ص 594، 595.

[2] نفس المؤلف ، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 163 – 164 – 165

[3] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج : 7 ، ص 164 ؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج : 1 ، ص 205

الرشيد يضاعفه الإحسان و الإخلاص و إغداقه بالهدايا و الأموال نظراً لمحاربته بني مرين المتمردين على سلطته[1].

هذا الإتصال الذي كان موجوداً من جهة ثانية بين يغمراسن و الرشيد أدى بالأمير الحفصي إلى استنكاره ، بحكم مجاورته له[2].

و هذا فوفود نخبة عليه من رؤساء توجين و مغراوة مستنجدين به ضد يغمراسن ، كان الفرصة السانحة التي تمكنه من تحقيق أهدافه البعيدة التي ترمي إلى الإستيلاء على المغرب و التمكن من كرسي الدعوة بمراكش[3].

و قد كان لتوجين ملك ما بين سعيدة غرباً إلى المدية شرقاً، و كانت لهم قلعة أولاد سلامة و منداس و كان لأولاد منديل نواحي شلف و ملیانة و مازونة، فنزل سنة 1242 في ملیانة و منها راسل يغمراسن يطلب طاعته فأبى، حينئذ حاصرت جيوش الحفصيين تلمسان و بالغت في التنكيل بأهلها، فخرج يغمراسن من باب القبة لرد هجوم بني حفص فانهزم و نجا بنفسه باتجاهه نحو الصحراء، و سقطت تلمسان بين أيدي الحفصيين سنة 1242م، و دخل يومئذٍ

---

[1] من سنة 633هـ/1235 م إلى سنة 640 هـ/1242 م ، انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق : ج 7 ، ص 163 – 167

[2] يحيى بن خلدون ، المصدر السابق: ج 1 ، ص 198 ، عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 7 ، ص 164

[3] تحرك أبو زكرياء إلى تلمسان في عهد الرشيد سنة 639 هـ/1241 م على ذكر ابن خلدون ، المصدر السابق: ج 7 ، ص 165 . و الزركشي : المصدر السابق، ص 21 ، و هو نفس تاريخ وصول الهدايا من الرشيد صاحب مراكش ليغمراسن دون الأمير أبي زكرياء ، انظر يحيى بن خلدون ، المصدر السابق ج : 1 ، ص 205.

الحفصيون تلمسان و لكن سرعان ما ارتحلوا عنها عائدين إلى تونس بعد أن عقدوا لعبد القوي بن العباس أمر بني توجين.

أ- الولاء للحفصيين :

و بعدما تأكد يغمراسن من اتفاق الكثير من سادة العالم الإسلامي و دوله شرقاً و غرباً على مبايعة الحفصيين ، أرسل والدته - سوت - النساء[1] إلى أبي زكرياء الحفصي بتقديم مراسيم البيعة نيابة عنه ، قبلها أبو زكرياء راضيا عن ولدها ، فاغتنمت الوالدة يومئذٍ هذه الفرصة و قدمت للسلطان اقتراحاً يتضمن طلب العفو عن يغمراسن و السماح له بالعودة إلى رئاسة قومه من بني عبد الواد تحت طاعة الخليفة ، فعقد لها أبو زكرياء ذلك كلّه، و أذن في عودة يغمراسن إلى إمارته على شروط بينهما ، و تمت عقدة المبايعة على ذلك و عاد يغمراسن إلى تلمسان و أخذ يتصرف في أهلها و أموالها، و كان السلطان الحفصي يدرك ما يكنه يغمراسن من الحقد و الضغينة للحفصيين، فأقطع القطائع حول تلمسان و أحدث إمارات بني توجين و مغراوة، و قلّد كلاً من عبد القوي بن عطية التوجيني، و العباس بن منديل المغراوي و منصور المليكشي ملوكا منافسين ليغمراسن[2].

---

[1] هناك اتفاق بين الأخرين عبد الرحمن بن خلدون و يحيى غير أن يحيى لم يذكر الدور الذي قامت به - سوت - النساء أم يغمراسن في الصلح بينه و بين صاحب افريقية ، راجع عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق، ج 7 ، ص 167 ، يحيى بن خلدون : المصدر السابق، ج 1 ، ص 205

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج 7 ، ص 167 - 166 ، يحيى بن خلدون - المصدر السابق ج 1 ، ص207- 206

و بقي بنو عبد الواد على ولائهم للحفصيين ، و هم يكنون العداوة و الحقد لمغراوة و توجين ، و في سنة 666 هـ فرت رياح أمام المستنصر إلى بني عبد الواد ، فأعانوهم على استرجاع وطنهم و قاموا بشنّ غارات على مغراوة و توجين. حيث فتحوا مليانة سنة 668هـ و المدية 687هـ و استولوا على مواطنهم[1].

أمّا بنو مرين فقد تخوفوا من ولاء يغمراسن لابي زكرياء ، و لهذا بعثت له بالطاعة و وعدته مدّ يد العون على فتح مراكش و أمدهم المستنصر لما توجهوا إلى مراكش بالمال و الخيل و السلاح ، فلما فتحت خطبت له بها زمناً ثم انقطعت و بقي بين الدولتين مهاداة و روابط ودية و تأكدت أكثر بالمصاهرة سنة 730 هـ ، و قد و فد أبو يحيى أبو بكر بن أبي زكرياء و شيخ الموحدين ابن عبد الله بن تافراتي على أبي سعيد سلطان بني مرين مستنجداً به على أبي تاشفين الأوّل ـ فوعده بالمصاهرة و خطب فاطمة شقيقة أبي زكرياء لإبنه أبي الحسن. فزفت إليه سنة 731 هـ و قتلت في واقعة طريف سنة 741 هـ فخطب أبو الحسن بعدها لنفسه أختها شقيقة الفضل سنة 746 و زفت إليه سنة 747هـ[2].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق، ج 7 ، ص 202 – 203

[2] السلاوي – المصدر السابق، ج 3 ، ص 25

ب- موقف الموحدين من التحالف الجديد (العبد الوادي - الحفصي):

لقد أثار هذا الحلف المبرم بين دولة بني عبد الواد الناشئة و دولة الحفصيين ضغائن و أحقاد في صدور رؤساء الدولة الموحدية و ساءهما انفرادهما دونها لذلك خشيت من اتحادهما ضدها[1].

و لكن عندما حاول الموحدون مواجهة هذا الوضع الجديد فشلوا و انهزم جيشهم الذي قاده الخليفة الحسن السعيد في معركة تامزيزدكت قرب وجدة سنة 1242م، و في نفس العام قتل الحسن السعيد على يد بني عبد الواد الذين استولوا على كل أسلابه و ذخائره و من هذا التاريخ أصبح الخلاف شديداً بين بني مرين و بني عبد الواد الذين يعتبرون تابعين للإمارة الحفصية ببجاية.

و قد ذكر عبد الرحمن ابن خلدون في هذا الصدد قوله : "كانت الدعوة الحفصية بافريقية قد انقسمت بين أعاصمهم في تونس و بجاية و أعمالها ، و كانت التخوم بينهما بلد عجيسة و شتاتة. و كان الخليفة بتونس الأمير أبو حفص بن زكرياء الأوّل ، له الشفوف على صاحب بجاية و الثغور الغربية بالحضرة . و في عهده بايعه بني عبد الواد و أصبحوا يدعون له على منابرهم باسمه . و كانت لهم مع الأمير أبي زكرياء الأوسط صاحب بجاية وصلة لمكان

---

[1] السلاوي – المصدر السابق، ج 3 ، ص 29

الصهر بينه و بينهم" و يعني بذلك أن المصاهرة التي تمت بين الأمير عثمان بن يغمراسن و الأمير الحفصي صاحب بجاية[1].

و رغم الوحشة التي حصلت عندما حاول الأمير عثمان ، أن يغزو بجاية إلاّ أنّه سرعان ما عادت المياه إلى مجاريها و إستمر بنو عبد الواد تابعين للحفصيين إلى أن غزا السلطان المريني يوسف بن يعقوب تلمسان سنة 1299م و فرض عليها ذلك الحصار الطويل المشهور ، و أسس مدينة المنصورة كمعسكر للجيش ، فاستعان عندئذٍ عثمان بن يغمراسن بأمير بجاية الحفصي الذي قدم نجدة كبيرة لبني عبد الواد التقت بالقوات المرينية في جبل الزاب ، و أوقعت بها هزينة كبيرة في معركة –مرسى الرؤوس لكثرة ما تساقط خلالها من رؤوس العباد[2].

جـ- إسقاط التبعية الحفصية و إعلان الإستقلال :

و هذه الحادثة زادت في استحكام الخلاف و المنافسة بين يوسف المريني، و صاحب بجاية الحفصي أبي زكرياء الأوسط الذي كان على خلاف مع صاحب عرش تونس الحفصي و لذلك استغل أبو عصيدة بن الواثق الحفصي سلطان تونس الفرصة ، و حاول أن يحكم صلاته بالسلطان المريني و يتعاون معه على إسقاط عرش تلمسان ، فرد على ذلك الأمير عثمان بن يغمراسن بإسقاط

---

[1] يحي بن خلدون – المصدر السابق، ج 1 ، ص 116 ، التنسي ، المصدر السابق ص 176 - 175 ، الزركشي، المصدر السابق، ص 49 ؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7 ، ص- 188 189.

[2] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق ج 7 ، ص 188

الدعوة الحفصية من منابر تلمسان، و قطع حبل التبعية التي تربط عرش تلمسان بعرش تونس الحفصي و بذلك ينتهي الدور الأول من تاريخ هذه الدولة[1].

و لهذا فالفترة و الدور الأوّل[2] من حياة الدولة العبد الوادية و التي تنحصر ما بين 633هـ/1235م – و 700هـ/1300م. أي من سنة قيام الدولة في عهد يغمراسن الذي التزم بالدعوة على منابره للموحدين بمراكش ، ثمّ بتونس ثانيا، إلى أن اسقطت تلك الدعوة بأمر من السلطان سعيد عثمان.

و تتميز هذه الفترة عن غيرها بطابع تتجلى فيه السيادة ، ضمن إطار زمني لا غير. أمَّا الإطار الديني فترك للخلفاء.

و تصرف يغمراسن جاء بناءًا على هذا الإعتبار ، حين اشترط عليه أبو زكرياء الحفصي إعلان الدعوة له على منابر تلمسان فقال يغمراسن :"تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا"[3]، مشيراً بذلك إلى إنتماء الحفصيين للموحدين ، أصحاب الحق بالخلافة في المغرب الإسلامي و الأندلس . أمَّا خارج تلك الأعواد (المنابر) فهو أمر آخر ، يهمه هو صاحب السلطة الزمنية.

و لم يكن الدعاء للحفصيين مقتّصراً على دولة بني عبد الواد (في عهد يغمراسن) فحسب ، بل تجاوزتها إلى الكثير من دول المنطقة بما فيها دولة بني مرين ، و كانت آنئذٍ في أوج قوتها . و لو كان الأمر يعني بالسيادة لما قبل

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ج 7 ، ص 188 – 189

[2] يمثل هذه الفترة حاكمان هما : يغمراسن بن عبد الواد 633 هـ/1235 م – 681 هـ/1282م، و عثمان بن يغمراسن 681 هـ/1282 م – 703 هـ/1303 م

[3] عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 652

السلطان المريني (يعقوب بن عبد الحق[1] بتلك الدعوة و دولته قوية اقتصاديا و بشريا.

و لو كان الأمر يتعلق بالسيادة لما تجرأ يغمراسن سلطان بني عبد الواد على خرق حرمة الدولة الحفصية-كما حدث بالفعل - حين اكتسح ديار حلفاء بني حفص من بني توجين، و مغراوة و مليكش ، و ألزمهم بدفع الضرائب و الجبايات لدولته.

كما أن تنازل الحفصيين - منذ عهد أبي زكرياء - عن بجاية إحدى مقاطعات مملكتهم (ببجاية) لسلطان بني عبد الواد[2].

يدل على أنّ سيادة الدولة العبد الوادية كانت محفوظة ، لأن مفقود السيادة عادة يلزم بدفع الجبايات و الضرائب لا أخذها.

و جباية الأموال شرط من شروط السيادة ، و إحدى خصائص الملك و السلطان[3].

و بالإضافة إلى ذلك فإن الدعوة للحفصيين لم تتجاوز 67 سنة، و هذه المدة الزمنية ليست عمر الدولة بكامله ، بل تمثل فترة أولية من فترات حياتها ، كانت خلالها الدولة العبد الوادية في طور النشوء و البناء ، ثم تلتها فترات أخرى تطورّت خلالها نحو السيادة المطلقة التي تتميز بالسلطتين : الزمنية و الروحية.

---

[1] انظر عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 652 ، السلاوي، المصدر السابق، ج 3 ، ص 28 - 29

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج، 7 ، ص : 166 ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1 ، ص 113 ، التنسي، المصدر السابق، ص 118

[3] انظر ابن خلدون : المقدمة ، ج : 2 ، ص 513 - 514

6- علاقة الدولة العبد الوادية بالقبائل الزناتية و العربية :

أ- بالقبائل الزناتية :

بنو توجين :

كان هذا القبيل من أعظم أحياء بني بادين و أوفرهم عدداً و كانت رئاستهم في عهد الموحدين لعطية بن مناد بن العباس بن دافلتن، و كانت مواطن سكناهم شرقي بني عبد الواد جنوب مغراوة فيما بين سعيدة و المدية أي جبل وانشريس و سهل السرسو و شلف و به من القلاع و الحصون المنيعة مثل : تاغزوت ، تاقدمت ، تافرقينت و لمدية ، و غلبهم بطون من زغبة على السهول فانقبضوا أخيراً في وانشريس[1].

و كانت علاقتهم مع بني عبد الواد مختلفة في السلم و الحرب[2]، و بعد مهلك السعيد على يدي يغمراسن استنفر سائر أحياء زناتة المغرب و مسابقة المغرب إليه[3].

و لّما عظم ملك يغمراسن بن زيان ، بدأ يطمح في السيطرة على زناتة كلها ، فهاجم بني توجين و بني منديل فاستنجدوا بالحفصيين و قد امتنعت توجين على بني عبد الواد مدّة عبد القوي و ابنه ابي زيان محمد ، فنازلوها مراراً من غير فائدة ، و والى عبد القوي يغمراسن آخر حياته، و مات سنة 646 هـ،

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر سابق ، ج 7 ، ص 316

[2] نفس المصدر ، ص 322

[3] نفس المصدر ، ص 321

فتصدى بالأمر بعده ابنه يوسف ثم قتله أخوه بعد أسبوع فقط المسمى محمد بن عبد القوي[1].

و قد استقل برئاسة بني توجين و عظم ملكه و قد كانت بينه و بين يغمراسن فتن و حروب و لم تقع بينهما أية مصالحة لقوة يغمراسن العسكرية، و طموحه السياسي ، و ظل محمد بن عبد القوي منحازاً للحفصيين و خاصة بعد العطف الذي حوظي به من طرف المستنصر عندما بعث إلى ملوك زناتة طالبا النجدة ، لّما نزل النصارى بساحل تونس سنة 668 هـ. و كان من بين الّذين لبوا النداء محمد بن عبد القوي في قومه حيث نزل على السلطان بتونس، و أبلى في جهاد العدو، و لّما ارتحل العدو ، و أخذ محمد بن عبد القوي في الإنصراف إلى وطنه اثنى عليه السلطان و أقطعه بلد مقرة و أوماس من بلاد الزاب.

و لما عظم ملك بني مرين و أكثروا في هجوماتهم على يغمراسن تحالف محمد بن عبد القوي مع بني مرين ضد يغمراسن ، حيث أوفد ابنه زيان بن محمد إليهم[2].

و عندما توجه يعقوب بن عبد الحق إلى تلمسان و كانت معركة ايسلي بينهما ، فقد لقي يعقوب بن عبد الحق بساحة تلمسان مباهيا بآلاته و حاصروها أياماً لكن بدون نتيجة ، و قامت جيوشه بالتخريب و الهدم، و عاد محمد بن عبد القوي و قومه إلى موطنهم شرقاً ، و ظلّ موالياً يعقوب بن عبد الحق حتى كان يشترط يعقوب بن عبد الحق على يغمراسن في حالة وقوع هدنة يجعل

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 216 – 217

[2] عبد الرحمن ابن خلدون – المصدر السابق – ج 7 ، ص 322

سلمهم من سلمه ، و حربهم من حربه ، و هذا يدل دلالة واضحة على طبيعة الحلف الذي كلن بين الطرفين[1] و قد كان بسببهم، عودة يعقوب بن عبد الحق سنة 680هـ حيث طلب هذا الأخير الكف عن مهاجمتهم ، غير أنّ يغمراسن رفض الطلب فكان اللقاء بقرزوزة[2]، و أتاه هناك محمد بن عبد القوي فلقيه في القصبات و قامت جيوشهما بالنهب و التخريب في ضواحي تلمسان، ثم عاد محمد بن عبد القوي مع قومه إلى مواطنهم ، تحت تغطية و حماية يعقوب بن عبد الحق ، خوفاً من إعتراض يغمراسن، و لم يزل شأنهم كذلك إلى أن هلك يغمراسن ، و استغل محمد عبد القوي تفوق المرينيين على بني عبد الواد في توطيد أركان إمارته و تقوية مركزه، حيث توسع على حساب صنهاجة بالمدية[3]، و أخرج الثعالبة من جبل التيطري ، و استولى على حصن لمدية و جعل عليها أولاد عزيز بن يعقوب و أقرها لهم موطنا[4]، و كان بنو يدلتن أيضا من بني توجين قد استولوا على حصن الجعبات و قلعة تاغزوت ، و نزل القلعة كبيرهم سلامة بن علي مقيماً على طاعة محمد بن عبد القوي و قومه ، فامتد نفوذ محمد بن عبد القوي في ضواحي المغرب الأوسط ما بين مواطن بني راشد إلى بلاد صنهاجة بنواحي لمدية ، و من السرسو و جباله إلى بلاد الزاب.

و لكن سرعان ما استجدت الفتنة بين محمد بن عبد القوي و عثمان ابن يغمراسن ، حيث توجه إليه عثمان سنة 682 هـ و حاصره في جبل وانشريس،

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون – المصدر السابق – ج 7 ، ص 325

[2] نفس المصدر – ص 324

[3] ابن خلدون – المصدر السابق –ج 7 ، ص 325

[4] نفس المصدر ، ص 326

لكن بدون جدوى بعد أن خرب و هدم ضواحي مواطنهم فعاد إلى تلمسان، و قد هلك محمد بن عبد القوي سنة 684 هـ ، و تولى الأمر بعده ابنه سيد الناس و لم تطل مدّة ملكه ، و بعد الخلاف الذي وقع داخل القبيل من جهة و زيادة قوة بني عبد الواد من جهة ثانية ، حيث اشتدت وطأة عثمان بن يغمراسن أكثر عليهم من قبل[1].

فتوجه إليهم سنة 686 هـ و حاصرهم بجبل وانشريس و خرب و هدم أوطانهم ، كما حاصر حصن تافرنكت و استولى عليه و اتجه إلى أولاد سلامة بقلعة تاغزوت و بعد الإمتناع أعطوه يد الطاعة مقابل مفارقتهم ، و قد سلك عثمان بن يغمراسن تجاههم سياسة تفرقة القبيل ، حيث بدأ يستولي على شعوب بني توجين ، شعباً شعباً ، ثمّ تمكن من جبل وانشريس و كذا لمدية سنة 688 هـ و بهذه السياسة تمكن عثمان بن يغمراسن من بسط نفوذه على عامة أراضي بني توجين[2].

و لّما استفحل أمر بني مرين و عظم نفوذهم من جديد ، ذهب يحيى ابن عطية كبير بني توجين إلى المرينيين و هم في حصارهم لتلمسان و رغبهم في امتلاك جبل وانشريس ، فبعث معه ملك بني مرين الجيوش تحت إمرة أخيه أبي سرحان و أخيه أبي يحيى ، فتوغل في الجهات الشرقية مخربا حصونها و قلاعها، و ملزماً طاعة بني مرين عليهم، و لّما هلك يوسف بن يعقوب ، و ترك بنو مرين حصار تلمسان ، و جميع الجهات الشرقية التي امتلكوها أثناء الحصار بالمغرب الأوسط.

---

[1] عبد الرحمن المصدر السابق، ص 328، انظر يحيى بن خلدون، المصدر السابق. ج 1–ص208–209

[2] عبد الرحمن ابن خلدون المصدر السابق، ج 7 ، ص 327

و يلاحظ أنّ رغم الحصار الطويل لتلمسان من طرف بني مرين لم تسع توجين إلى توحيد كلمتها ، بل إزدادت تفرقاً ، فظلت الأمور هكذا حتى مهلك السلطان أبي حمو الأوّل و مجيء إبنه أبي تاشفين عبد الرحمن الأوّل ، الذي بدأ سياسته بتطهير الجهات الشرقية من خطر بني توجين قد لحق محمد بن يوسف بحصن توكال[1]، فحاصره و افترق عن محمد بن يوسف اتباعه و أشياعه فقبض عليه ، ثمّ قتل سنة 719 هـ ، و بوعث برأسه إلى تلمسان ، و هكذا خضعت نهائيا بني توجين لنفوذ العبد الواديين حتى هلك السلطان عبد الرحمن الأوّل بن تاشفين ، على يد المرينيين في عهد أبي الحسن و لّما استولى المرينيون على المغرب الأوسط ، استعمل السلطان ابو الحسن ابنه نصر الدين بن عمرو على الجبل ، و لّما كانت نكبة السلطان أبي الحسن بالقيروان ، تطاولت بعض القبائل من زناتة إلى استرجاع ملكهم من ضواحي لمدية من آل عبد القوي ، لكن سرعان ما رجعت الأمور من جديد في قبضة المرينيين بعد إنتهاء أزمة القيروان[2].

مغراوة :

تمتد مواطن مغراوة شمال وانشريس و وادي شلف ، إلى البحر و تنتهي شرقاً إلى وادي السبت قرب متيجة ، و غرباً إلى البطحاء ناحية نهر مينة.

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق، ج 7، ص 331، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج:1، ص 216

[2] يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج:1، ص 213 ، 214 ، 215 ، 216 ، 217

يشتمل على جبال شاهقة و سهول خصبة ، و مدن عامرة منها مليانة، مازونة ، تنس ، برشك[1]، شرشال ، و قد استولت أيام منديل ابن عبد الرحمن على وانشريس و لمدية و خربوا عمران متيجة.

و لم تفارق مغراوة و رؤساؤها حياة البداوة ، و قد كانت رئاسة المدن في أيدي المشائخ من أعيانها، و في بعض الأحيان كان يستنبد البعض بالمدينة، ففي سنة 683 هـ استبد ببرشك زيري بن حماد المكلاتي حتى سنة 708 هـ.

و كانت مغراوة كبني عبد الواد ، على الدعوة الموحدية حتى وطئ أرضها أبو زكرياء الحفصي سنة 632 هـ ، فبايعته و خالفت في ذلك سياسة بني عبد الواد ، السبب الذي دفع يغمراسن بن زيان في مهاجمتها و التوغل في أراضها ، فعجزت عن مقاومته فاستنجدت بأبي زكرياء الحفصي الذي توجه إلى تلمسان و إحتلها سنة 640 هـ و كلف أبو زكرياء العباس ابن منديل برئاسة مغراوة ، و منحه الإستقلال الداخلي حيث اتخذ هذا الأخير الآلة و شارة الملك[2].

غير أنّ هذه القوة الأدبية لم تثبت أمام عزم و قوة يغمراسن الحقيقية و خاصة بعد أن عظم و استفحل سلطانه ، و بدأ يطمح في التطلع إلى الإستيلاء على أمصار المغرب الأوسط.

---

[1] برشك بلدة صغيرة أسسها أندلسيون و خربها سنة 1608 سيمون دانسر الذي جاء من بلجيكا، و عتنق الإسلام و كان "رئيساً" بحريا ، و أخذ اسم "مراد رئيس" ، ثمّ فر "بمدفعين برونز بين ممتازين" ، إلى فرنسا و سلمهما للدوق دوغيز في عهد حسين باشا في الجزائر و لويس 13 في فرنسا، و تسبيب في حرب بين فرنسا و الجزائر ، و لم يرجع المدفعان إلى الجزائر إلاّ سنة 1628.

[2] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق ، ج 7 ، ص 166 – 167 ، البغية – ص 206

و عقد العباس السلم مع يغمراسن و لما توفي العباس قام بالأمر بعده أخوه محمد بن منديل ، فصلحت الحال بينه و بين صاحب تلمسان و صاحبه بمغراوة إلى غزو المغرب سنة 647 هـ ، و هزمهم فيها ليعقوب بن عبد الحق فرجعوا إلى أوطانهم ، و عادوا شأنهم في العداوة[1]. و انقضى أهل ملیانة و خلعوا الطاعة الحفصية و كان من خبر هذا الإنتقاض أن أبا العباس أحمد المليانى[2]، كان كبير وقته علماً و ديناً و رواية، و كان على السند في الحديث ، فرحل إليه الأعلام و أخذ عنه الأئمة و ذاع صيته فانتهت إليه رئاسة بلده في عهد يعقوب المنصور و بنيه ، و نشأ ابنه أبو علي في جو هذه العناية ، و كان جموحاً للرئاسة طامعاً في الإستبداد ، و هو مع ذلك خلواً من المغارم ، فلمّا هلك أبوه جرى في شأو رئاسته ، و لمّا رأى ما بين مغراوة و بني عبد الواد من الفتنة ، حدثته نفسه بالإستبداد ببلده فجمع لها ، و قطع الدعاء للخليفة المستنصر الحفصي سنة 659هـ، و بلغ الخبر إلى تونس ، فسرح الخليفة أخاه أبا حفص في عسكر من الموحدين ، فنازلوا ملیانة أياماً، فداخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي المليانى ، فسرب إليهم جنداً بالليل، و اقتحموها من بعض المداخل، و فر أبو علي المليانى تحت ظلام الليل، و خرج من بعض قنوات

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق، ج 7 ، ص 166 – 173، البغية – ص 207

[2] أحمد بن علي المليانى : شاعر و كاتب ، من أهل ملیانة ، ثار عمه أبو علي بن أحمد المليانى ، و كان من أعيان المدينة على الحفصيين في أواخر المائة السابعة ثم فرّ إلى المغرب و إلتجأ إلى السلطان أبي يعقوب المريني فأكرمه و تمكن من إكمال دراسته ، و بعد وفاة السلطان يعقوب بويع ابنه يوسف ، فاستعمل أبا علي على جباية الأموال ثم نكب به و قتله ، راجع هذا عند عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق، ج 7 ، ص 96 ، يحيى بن خلدون – المصدر السابق – ج1 ، ص 212 ، التنسي ، المصدر السابق، ص 180 – 181.

البلد، فلحق بأحياء العرب و نزل على يعقوب بن موسى أمير العطاف من بطون زغبة فأجاره إلى أن لحق بعدها بيعقوب بن عبد الحق و انصرف عسكر الموحدين و الأمير أبو حفص إلى تونس ، و عقدوا لمحمد بن منديل على مليانة، فقام فيها الدعوة الحفصية ، ثمّ هلك محمد بن منديل قتله أخواه ثابت و عابد بالخميس من بسيط بلادهم و قتل عطية و شاركه ثابت في الأمر و اجتمع إليه قومه ، و تقطع بين أولاد منديل ، و خشنت صدورهم ، فاستغل يغمراسن هذه الإضطرابات التي وقعت داخل القبيل و شدد عليهم ، فداخله عمر بن منديل أخوهم في أن يمكنهم من مليانة و يشد عضده على رئاسة قومه ، فشاطره على ذلك و أمكنه من زمام البلد سنة 663 هـ ، و نادى بعزل ثابت و مؤازرة عمر على الأمر فتم لهما ما أحكماه من أمرهما في مغراوة ، و استمكن بها يغمراسن، ثم تقرب أولاد منديل من يغمراسن و التمسوا نفس الطلب نكايةً لعمر[1].

و استمرت ولاية عمر إلى أن هلك سنة 676 هـ ، استقل ثابت بن منديل برئاسة مغراوة ، و بعث عابدا أخاه إلى الأندلس للرباط و الجهاد ، فاسترجع ثابت بلاد تنس و مليانة من يدي يغمراسن و نقض العهد معه ، غير أن يغمراسن قام بغزوه ، فاسترد تنس سنة 681 هـ ، و لما هلك يغمراسن و قام بالأمر بعده ابنه عثمان حيث خرجت عليه تنس ، و لم يزل عثمان يقوم بهجوماته العديدة ، و من أهم هذه الهجومات ، هجومه سنة 693 هـ ، حيث استولى على أمصارهم و ضواحيهم ، و أخرجهم عنها و ألجأهم إلى الجبال ، و دخل ثابت بن منديل إلى برشك متحصنا بها، فزحف إليه عثمان و حاصره

[1] ابن خلدون – المصدر السابق – ج 7 ، ص 181

بها حتى استيقن أنه أحيط به ، فركب البحر إلى المغرب ، و نزل على يوسف إبن يعقوب سلطان بني مرين سنة 694هـ[1].

و كان ثابت بن منديل قد أقام ابنه محمداً بالأمر في قومه و ولاه عليهم في عهده و استبد بملك مغراوة ، و لمّا انصرف أبوه للمغرب أقام هو بإمارته على مغراوة ثم مات فخلفه شقيقه علي فقام عليه أخواه و حاربوه.

و عندما نهض يوسف بن يعقوب إلى تلمسان سنة 698 هـ، و حاصرها عقد على مغراوة و شلف لعمر بن ويغرن بن منديل و بعث معه جيشا ففتح مليانة و تنس و مازونة سنة 699هـ/1299م[2].

و لما هلك يوسف بن يعقوب أثناء حصاره لتلمسان آخر سنة 706هـ/1307م. و عقد الصلح بين حافده أبي ثابت و بين أبي زيان بن عثمان، سلطان بني عبد الواد ، على أن يترك له بني مرين جميع ما ملكوا من أمصارهم و ثغورهم ، غير أن راشد قد طمح في استرجاع بلاده فزحف إلى مليانة و أحاط بها لما نزل عنها بنو مرين لأبي زيان و صارت مليانة و تنس له، و لكن في عهد أخيه أبي حمو موسى الأوّل استولى على المغرب الأوسط، فملك تافركينت سنة 707هـ/1308م، و ملك بعدها مليانة و لمدية ثم تنس[3].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون – المصدر السابق – ج 7 ، ص 191 ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1 ، ص 208 – 209

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج:7، ص 194، 195، 196

[3] نفس المصدر ، ص 201 ؛ 211 ، البغية ص 209 – 210

و إذا تتبعنا السياسة التي كانت تقوم عليها امارة مغـراوة فإننـا نلاحـظ أن سياسة هذه الإمارة لم تكن لها أية أهـداف و أبعـاد سـوى شـغل العبـد الواديـين على المستوى الخارجي و تشتيت القبيل و إضعافه داخليا.

ب. بالقبائل العربية :

حـالف بنـو عبـد الـواد القبـائل العربيـة الـتي اسـتقرت بـالمغرب الأوسـط خصوصاً بطون عرب زغبة الذين جمعتهم و زناتة عصبية الحلـف[1] و ذوي عبيـد الله من عرب المعقل المجاورين لبني عامر بن زغبة المستقرين بجوار تلمسان[2].

و ازدادت مكانـة شيوخ هـذه القبـائل حتـى أسـند يغمراسـن في بعـض الأحيان إلى عمر بن مهدي شيخ عرب سويد بن مالك بن زغبة ولايـة تلمسـان و ما يتبعها شرقاً عند خروجه لقتال أعدائه[3].

و حينما نقل يعقوب المنصور الموحدي بعض القبـائل الهلاليـة مـن افريقيـة إلى صحراء المغرب الأقصى في أواخر القرن السادس الهجري[4] رافق هـذه القبـائل عدد قليل من عرب المعقل، نزلوا المنطقة التي تلي ملويـة حتـى رمـال تـافيلالت، حيث أزداد عددهـم و كـثروا و عمـروا صحـاري المغـرب الأقصـى، و حـالف عرب المعقل أكثرهم بني مرين ما عدا ذوي عبيد الله فقد حالفوا بـني عبـد الـواد

---

[1] بطون زغبة : يزيد و حصين و مالك و عامر و عروة و قد اقتسموا بـلاد المغـرب الأوسـط فيمـا بينهم ، انظر ابن خلدون : المصدر السابق ج 6 ، ص 40.

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 58 – 59

[3] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ، ص 45

[4] السلاوي : المصدر السابق، ج:2 ص 145

لمجاورة مجالاتهم و اشتراك حدودهم حيث أن مواطنهم كانت ما بين تلمسان و وجدة[1].

و بعد أن تمكن بنو عبد الواد من تأسيس دولتهم بتلمسان ألحقوا بخدمتهم عرب المنبات من أحلاف ذوي منصور من المعقل، و موطنهم المغرب الأقصى ما بين ملوية و درعة[2].

و في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري لجأ والي درعة عبد الله بن مسلم[3] و أحلافه من عرب أولاد حسين من ذوي منصور من المعقل إلى بني عبد الوادي، فرحبوا بهم ، و قلد أبو عبد الله وزارة، فقام عبد الله بنقل معظم عرب ذوي منصور من العمارنة و المنبات و غيرهم من المعقل إلى ضواحي تلمسان ، حيث أقطعهم الأراضي و آخى بينهم و بين بني عامر بن زغبة[4].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق: 6 ص 59

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق: ج 7 ص 85 ، ابن أبي زرع : المصدر السابق ص 209، السلاوي: المصدر السابق ج 3 ، ص 36.

[3] كان واليا لأبي الحسن المريني ثم لإبنه أبي عنان على درعة و لّما تولى أبو سالم المريني الحكم خشي على نفسه لإشتراكه في القبض على أخيه أبي الفضل و تسليمه لأبي عنان حينما ثار عليه فخاف أن ينتقم منه أبو سالم فهرب و معه ثروته الضخمة التي جمعها خلال فترة حكمه الطويلة و أحلافه من العرب الذين يضرب بهم المثل في وفائهم له . انظر عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق : ج 7 ، ص 123.

[4] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 7 ، ص 124 ، 132 ، السلاوي : المصدر السابق ج 2 ، ص 131 – 132

عرب زغبة :

إخوة رياح ، كانت لهم عزة و كثرة عند دخولهم افريقية ، استقروا في المنطقة الممتدة من طرابلس إلى قابس ، و أثناء صراع الموحدين مع بني غانية ناصرت رياح و جشم بني غانية و انضمت زغبة إلى الموحدين و حالفوا بني بادين من زناتة و نقل الموحدون زغبة إلى المغرب لحمايته ، فاستقروا في المنطقة الممتدة من المسيلة إلى تلمسان و ما جاورها من الصحراء [1].

و بعد استيلاء بني عبد الواد على المغرب الأوسط معتمدين على عرب زغبة، انتقلوا إلى المدن فزحفت زغبة من أوطانها إلى التل، و سيطروا على ما بقي بها من قبائل ، و انتقل عرب المعقل المجاورين لهم إلى مواطن زغبة بالصحراء و استبدوا بمن بقي من عرب زغبة، و فرضوا عليهم الضرائب ، فأنفوا و تآمروا، و اتفقوا على محو هذا العار بقيادة ثوابة بن جوثة زعيم عرب زغبة، فطردوا المعقل من أوطانهم بالصحراء، و في الوقت الذي ازدادت قوة بني عبد الواد و كثرت جموعهم اطردوا زغبة من التل إلى أوطانهم القديمة بالصحراء ، حيث ندرت الحبوب و قلت الأقوات فهزلت مواشي زغبة و ضعف أمرهم، و اعطوا الضريبة للدولة مرغمين إلى أن ضعفت الدولة بسبب الصراع حول السلطة، و كذا بسبب الهجمات الخارجية من جيرانها ، فتمكنت بعض بطون زغبة من العودة إلى التل حيث الحبوب و الرخاء، و اقطعت الدولة زغبة النواحي و السهول مقابل المحالفة و المساندة و الطاعة [2].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 40

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 40

و تنقسم زغبة إلى عدة بطون ، حالف بعضها الدولة العبد الوادية و أخلص في خدمتها و عادى البعض الآخر الدولة و ناصر كل ثائر عليها.

بنو يزيد :

و من أولى بطون زغبة التي ناصرت الدولة و حالفها عرب بني يزيد، و خلال العصر الموحدي أقطعهم الموحدون بلاد حمزة و بني حسن من بجاية، فاستقروا هناك و قاموا بحماية بجاية من قبائل زواوة و صنهاجة ، و بعد أن عجز الجند التطاميون من جباية مدينة بجاية ، قام عرب بني يزيد بها فكافأتهم الدولة بالإقطاعات الكثيرة بجوار مدينة بجاية.

و بعد سيطرة بني عبد الواد على المغرب الأوسط تمكنوا من اقتطاع أوطان حمزة من نواحي بجاية، و صارت من أملاكهم، و تمكن بنو يزيد من الإستقلال بأوطانهم و توزيع جبايتها على بطونهم خلال فترة ضعف الدولة[1].

بنو عامر :

و بجوار بني يزيد استقر عرب بني عامر ، و بعد استيلاء يغمراسن بن عبد الواد على تلمسان ، استولت المعقل على مواطن قبيل بني عبد الواد بالصحراء، و كثر فسادهم بها ، فنقل يغمراسن بن زيان بني عامر من أوطانها بجوار بني يزيد إلى جواره بصحراء تلمسان لمنافسة عرب المعْقل، و تبع عرب حميان من بني يزيد عرب بني عامر حيث كانوا رحلا ، فصاروا في عداد بني عامر[2].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 41

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 42

و أثناء الغزو المريني للمغرب الأوسط ، قام عرب بني عامر بدور إيجابي في مقاومة الغزو و استرداد أملاك بني عبد الواد و إعادة دولتهم[1].

و هكذا نرى أن القبائل العربية لعبت دوراً كبيراً في استقرار دولة بني عبد الواد و في علاقاتها مع جيرانها في الحرب و السلام. و يتضح كذلك مدى أهمية اعتماد دولة بني عبد الواد على بني عامر و ارتباط ذلك باستمرار و قوة دولتهم[2].

حاولنا إبراز القبائل الموالية لبني عبد الواد و الدور الذي قامت به في هذا المضمار ، و بقي أن نتحدث عن القبائل و البطون التي تمردت على هذه الدولة و أيدت كل ثائر عليها طوال حياتها، و نذكر من هؤلاء الثعالبة و ذوي عبيد الله و حصين و سويد.

الثعالبة :

أمّا الثعالبة فهم من بطون عرب المعقل الذين استقروا أولاً بجبل تيطري، و بعد سيطرة بني توجين على وانشريس طرد الثعالبة إلى سهل متيجة، و أما موطن عرب حصين فكان بتيطري حيث كان الثعالبة و حصين في عداد رعايا بني توجين يؤدون إليهم الضريبة و يساهمون بجنودهم في قواتهم[3].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 42

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 7 ، ص 82

[3] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 64 ، الميلي : تاريخ الجزائر ، ج 2 ، ص 159

و رغم المكانة الخاصة التي كانت لعرب الثعالبة بدولة الموحدين إلا أنّهم فقدوا هذه المكانة في دولة بني عبد الواد ، إذ كثيراً ما ناصروا و حالفوا أعداء الدولة العبد الوادية[1].

فعندما ثار ابن علان بمدينة الجزائر على الدولة الحفصية، و استقل بها معتمداً على حلفائه من عرب الثعالبة المستقرين بسهول متيجة و اعتمد عليهم في التخلص من منافسيه من أهل البيوتات و الأسر الكثيرة بالمدينة حتى يحكم سيطرته على شؤونها ، قامت قوات أبي حمو الأوّل في 712هـ/1312م بغزو متيجة و اخضاع عربها ، و محاصرة مدينة الجزائر حتى تمكنت من الإستيلاء عليها و ضمها إلى نفوذ بني عبد الواد[2].

حصين بن زغبة :

أمّا عرب حصين بن زغبة فقد استقروا غرب مواطن بني يزيد ، في المنطقة الممتدة من تيطري (أشير) جنوباً إلى مدينة المدية شمالاً، و بعد سيطرة بني عبد الواد على المغرب الأوسط أساؤا معاملة عرب حصين و ألزموهم الضريبة حتى أصبحوا في عداد القبائل الغارمة، و لذلك فقد رحبوا بكل غاز للمغرب الأوسط و كل ثائر على بني عبد الواد[3]. فقد ناصروا و حالفوا و باركوا الغزو المريني المتكرر للمغرب الأوسط. حتى إذا ما سيطرت القبائل العربية بالمغرب الأوسط على مواطن استقرارها و ما جاورها بعد انحسار و غزو أبي عنان المريني عن تلمسان استقرت عرب حصين بجبل تيطري و ملكوه و تحصنوا به.

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 54 – 55.

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 7 ، ص 100 – 101

[3] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 7 ، ص 130

سويد :

و هم من بطون عرب بني مالك بن زغبة ربطتهم علاقات طيبة ببني عبد الواد قبل ظهور دولتهم بالمغرب الأوسط ، و بعد سيطرة بني عبد الواد على تلمسان و ضواحيها اختصوا عرب سويد بحلفهم دون سائر بطون زغبة، و قرب يغمراسن رؤساءهم من أولاد عيسى بن عبد القوي[1].

و بعد أن تدهورت العلاقات بين سويد و بني عبد الواد ، طرد بنو عبد الواد عرب سويد من التل و استقروا بجوار أوطان بني توجين في الصحراء و تصاهروا فيما بينهم حتى صاروا حلفاء ضد بني عبد الواد[2].

و عندما تولى ابو تاشفين بن موسى بن عثمان بن يغمراسن الحكم تقرب إليه عريف ابن يحيى زعيم عرب سويد لعلاقة ربطته به في الصبا، و لكن سرعان ما غضب عليه بسبب تشبه عريف بن يحيى بالملوك في بعض تصرفاته من ناحية و تآمر هلال مولى أبي تاشفين على عريف من ناحية ثانية ، فهرب عريف بن يحيى إلى بني مرين في 720هـ/1320م و أخلص في خدمتهم[3].

نتيجة لذلك اتسمت العلاقات بين سويد و بني عامر بالعداء الشديد و حل بنو عامر محل سويد في خدمة و محالفة بني عبد الواد[4].

و لعبت سويد دوراً رئيسياً في غزو بني مرين للمغرب الأوسط سواء بالتحريض أو بالإشتراك في قوات المرنيين ، و كسب طاعة القبائل العربية

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 46

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 46

[3] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 46

[4] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 46

بالمغرب الأوسط لحساب حلفائهم من بني مرين ، مما جعلهم في وضع مميز في الدولة المرينية[1].

ذوي عبيد الله :

أما ذوي عبيد الله من المعقل فهم مجاورون لبني عامر بن زغبة حيث استقروا في المنطقة الممتدة من تلمسان إلى مصب وادي ملوية بالبحر ، و العلاقة فيما بينهم و بني عامر عدائية، و الحروب مستمرة بينهم في أغلب الأحيان، و هم ثائرون على دولة بني عبد الواد بصفة تكاد تكون مستمرة، حيث كانوا أحلافاً لبني مرين[2] مما اضطر بنو عبد الواد في بداية دولتهم إلى غزوهم عدّة مرات خاصة في فترة حكم يغمراسن حتى يتمكن من كسر شوكتهم و فرض الضرائب عليهم[3].

و بعد أن اشتد ساعد الدولة و عظمت قوتها ، اضطر ذوي عبيد الله إلى دفع الضريبة مرغمين، و شاركوا السلطان في حروبه إلى أن ضعفت الدولة، فاستقروا بالتل، و ملكوا زجدة، و اقطعتهم الدولة جباية البربر المستقرين بجوارهم مثل بني سنوس بجانب ما فرضوه عليهم من أتاوات حتى أنهم فرضوا ضريبة على الطريق فيما بين تلمسان و بلد هنين على الساحل ، فلا يمر بالطريق مسافر إلاّ بتصريح منهم بعد تسديد الضريبة المقررة[4].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 48

[2] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 61 ، الميلي : تاريخ الجزائر ، ج 2 ص 159

[3] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 61

[4] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص 61

و نظراً لقرب مواطنهم من حدود الدولة المرينية فقد انحازوا إليهم خلال غزوهم للمغرب الأوسط، بل اعتمد المرينيون عليهم كجنود و فرسان ضمن قواتهم، فأثناء غزو أبي الحسن المريني لتلمسان حالفوه و ساعدوه، و اسند إليهم غزو قصور الصحراء جنوب مدينة وجدة[1].

[1] عبد الرحمن بن خلدون : المصدر السابق، ج 6 ، ص61

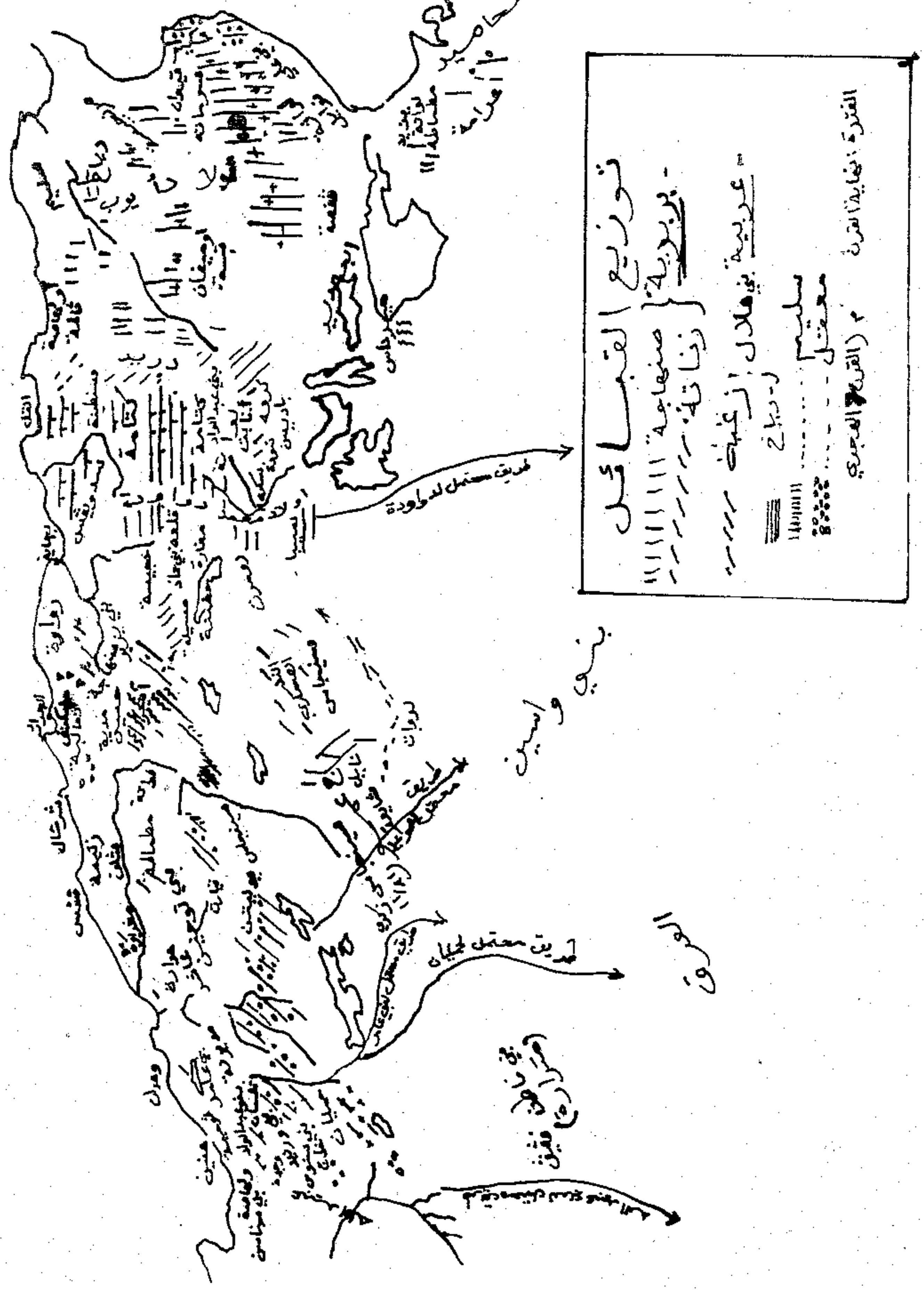

توزيع القبائل

الفصل الثالث

الحياة الثقافية

المدخل

لا أستطيع أن أتحدث عن الحياة الثقافية قبل أن أتطرق إلى الحياة الفكرية بما تتضمن من شعر ونثر وغيره، و التي تعتبر وليدة الحياة الفكرية، حيث أنها مرآة تنعكس عليها حياة المجتمع.

إن العصر الموحدي الذي سبق قيام الدولة العبدالوادية. كان عصر حرب عقائدية بين الموحدين والفقهاء، فالموحدون كانوا ذوي فكرة إصلاحية في الدين وكان مذهبهم خليطا من مذهب الأشعري في الكلام، و من مذهب الشيعة الذين يؤمنون بفكرة الإمام المعصوم، ومن قولهم بالإجتهاد، فهم أمروا بالاجتهاد والرجوع إلى الأصول من كتاب وسنة، ونبذ الفروع، بل أنهم احرقوا كتب الفروع مثل مدونة سحنون، وغيرها، ويقول المراكشي في هذا الصدد: "وفي أيامه (يعقوب المنصور ثالث خلفاء الموحدين)، انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب، بعد أن جرد ما فيها من حديث الرسول (ص) والقرآن، ففعل ذلك، وأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدونة سحنون و كتاب ابن يونس، و نوادر ابن أبي زيد و مختصره، و كتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة بن حبيب، وما جانس هذه الكتب، ونحا نحوها، لقد شاهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس، يؤتي منها بالأحمال، فتوضع ويشعل فيها النار.

وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي، والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك،

وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث..."[1]

وهكذا كانت الحرب العقائدية بين الموحدين والفقهاء مستمرة، إلى أن قضي على دولة الموحدين، ومن هذا نستطيع أن نقول أن هؤلاء الفقهاء قد تغلبوا سياسيا وعقائديا على الموحدين، فقد استطاعوا بمناهضتهم أن يؤلبوا الخاصة والعامة ضد الموحدين، وهذا ما جعل القضاء على دولتهم سهلا، فهذا المأمون الموحدي يعلن إعلانا رسميا بإبطال دعوى المهدي وعصمته حيث يقول : "من عبد الله إدريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، إلى الطلبة والأعيان والكافة، ومن معهم من المؤمنين، والمسلمين و الذي نوصيكم به تقوى "الله، والاستعانة به، والتوكل عليه، ولتعلمها أننا نبذنا الباطل وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم، الناطق بالصدق، وتلك البدعة قد أزلناها ... كما أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة، وسقطنا عنه وصفه ورسمه، وكان سيدنا المنصور رضي الله[2] عنه هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرقع للأمة، الخرق الذي رقعنا، فلم يساعده لذلك أمله، وأجله إليه أجله، فقدم على ربه بصدق نية، وخالص طوية..."[3].

فهذا الإعلان الرسمي من طرف الخليفة الموحدي أمام الملأ، يعود إلى تغلب الفقهاء على الموحدين وتشبثهم بمذهب أهل السنة[4].

---

[1] عبد الحميد حاجيات المصدر السابق، ص: 38.

[2] والد المأمون الموحدي، أنظر عبد الله كنون: النبوغ ج 2، ص 347

[3] عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 278، 279.

[4] عبد الحميد حاجيات، المصدر السابق، ص 38.

وهناك من شبه العصر الموحدي في المغرب الإسلامي بالعصر العباسي في الشرق لأن فيه بدأت العلوم تتطور، وقد كان تأثير الموحدين في العقول أكثر من تأثيرهم في المجالات الأخرى ففي عهدهم تحررت العقول التي كانت تثور لأدنى بادرة من الخروج عن المسلمات، والقواعد المتعارفة. كما عرفت إنتاجا ضخما متنوعا ومتطورا، وذلك بفضل تشجيع الخلفاء الموحدين للأدباء والعلماء.

أما العصر الذي تلى عصر الموحدين، فيعد في الواقع امتدادا للعصر السابق على الأقل فيما يخص الميدان الفكري حيث سارت دول المغرب الثلاث على نهج الموحدين في تشجيع العلم و العلماء، إذ أن البذرة الموحدية قد اينعت شجرتها، وأعطت ثمارها، فهؤلاء كما ذكرنا يقولون بالاجتهاد، و هذا حافز مهم في تحرير الأفكار من الجمود، وتنشيطها، ودفعها إلى الحركة والعمل، ولعل هذا يرجع إلى طريقة التدريس التي لوحظت بمدينة تلمسان والتي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على البحث والتفكير، وعدم الاكتفاء بالحفظ[1] وهذا الجو كفيل أن ينشأ عنه أو يتخرج في مدارسه علماء نوابغ، قادوا الحركة الأدبية و العلمية.

كما كان لحركة الهجرة الأندلسية دور كبير في تطور الحياة الفكرية في بلدان المغرب الإسلامي، وتعود هجرة العلماء الأندلسيين إلى حواضر المغرب الإسلامي لأسباب منها :

1- التدهور السياسي الذي أصاب الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية 430هـ وقيام ملوك الطرائف 430-488هـ وهذا التدهور السياسي حفز بعض العلماء على الهجرة من الأندلس إلى المغربين : الأقصى والأوسط، وإلى إفريقية و المشرق رغبة منهم في الاستقرار السياسي الذي تكون فيه الدولة الإسلامية قوية مهيبة

[1] الدكتور عبد الحميد حاجيات، المصدر السابق، ص 38.

ولعل ابن رشيق المسيلي القيرواني أحسن التعبير عن عزوفه في البقاء بالأندلس ببيتيه المشهورين :

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصم فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

2- سقوط الأندلس في أيدي المرابطين 488-530هـ على يد يوسف بن تاشفين وقد كان فتحها خيرا وبركة على النهضة الثقافية والحضارية في المغرب، حيث هاجر كثير من أعلام الأندلس إلى المغرب مقر السلطة الحاكمة ونقلوا معهم حضارتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وفي ذلك يقول صاحب المعجب : "فانقطع إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولإبنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه من عصر من الأعاصير" [1].

وكانت الحواضر الأخرى كتلمسان وبجاية لا تقل عنها استهواء للعلماء وقد استقر بها من أعلام الفقه والأدب والتصوف والفسفة، أفادوا أهلها واستفادوا منهم.

هذا بالإضافة إلى ما أبداه ملوك بني عبد الواد من تشجيع للعلم والعلماء، والمنافسة التي كانت قائمة بين ملوك المغرب الإسلامي في مجال العلوم والآداب.

حيث كان البلاط العبد الوادي بداية من يغمراسن وفي عهد خلفائه يرى أن التجاء العلماء إلى دولته إنما هو تشريف لها، وإغناء لثروتها العلمية وسمعتها الأدبية في المغرب الإسلامي خاصة والعالم الإسلامي عامة، وكان يرى أن هذه

---

[1] المراكشي المصدر السابق، ص 864.

الرعاية تضفي على شخصه سمعة ومهابة، ومن ثم كانت تلك الحركة العلمية والأدبية التي قامت بالمغرب الأوسط في ظل الرعاية وعلى يد أولئك العلماء النازحين، ومنهم مجموعة كبيرة من أساطين الفقه والحديث والأدب واللغة، واستمرت آثار هذه الحركة طول القرن السابع الهجري، حيث أصبحت تلمسان منزلا مفضلا لكثير من العلماء النازحين[1].

وثمة ملاحظة تتعلق بعناصر الحركة الفكرية في المغرب الأوسط، في هذا العصر الذي اضطربت فيه الأوضاع السياسية، وهي أن هذه العناصر كانت تتجه قبل كل شئ إلى العلوم الدينية والآداب، بينما لا تحظ العلوم الدنيوية المحضة منها إلا بالقليل النادر.

ولهذا فإننا نجد أمامنا جمهرة كبيرة من علماء الدين والفقه والآداب ومن المتعذر في هذا المقام المحدد أن نذكرهم جميعا ولهذا فسوف نقتصر على ذكر الأعلام البارزين منهم.

ومن جهة أخرى فإن كثيرا من هؤلاء العلماء والفقهاء الذين امتازوا بالتفوق في العلوم الدينية، كالحديث والأصول والتفسير والفقه، كانوا في نفس الوقت يمتازون بتمكنهم من الآداب وعلوم اللغة، وبعضهم ينظم الشعر، ومن ثم فإننا سوف نحاول أن نقدم منهم من غلب عليهم التفوق في العلوم الدينية، ثم نتبعهم بمن مزجوا بين علوم الدين والأدب وكذا من نبغوا في العلوم العقلية، وهذا التصنيف لا يمكن إلا أن يكون أمرا نسبيا.

---

[1] التنسي، المصدر السابق، ص 126، 127.

التعليم ومؤسساته العلمية :

كان التعليم منتشرا في معظم قرى ومدن الدولة العبدالوادية، وكان ينقسم إلى قسمين، قسم يزاول بالمساجد وقسم يعطى بالمدارس، وقد كان يتميز بمرحلتين :

مرحلة التعليم الابتدائي :

وينحصر التعليم في هذه المرحلة في تعلم الكتابة والقراءة وحفظ القرآن، ويتم ذلك بواسطة المساجد والكتاتيب، ويقول ابن خلدون في هذا الصدد: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب إلى أن يحذق فيه. أو ينقطع دونه فيكون انقطاعهم في الغالب انقطاعا عن العلم بالحملة وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يجاوز حدّ البلوغ..."[1]

مرحلة التعليم الثانوي :

و في هذه المرحلة يقبل الطلبة على دراسة النحو واللغة والأدب والفقه، فيكتسبون معلومات وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافي كبير، ومن معرفة تعاليم دينهم والإلمام بالعلوم اللسانية. أما من يريدون متابعة ومواصلة دراستهم ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة، فيدرسون العلوم الدينية من قراءات وتفسير و حديث وفقه وتوحيد، والعلوم العقلية والاجتماعية والأداب. وغير ذلك،

[1] مقدمة ابن خلدون، ط، لبطبعة البهية بمصر بدون تاريخ ص 397.

بمزيد من التعمق والتفصيل، وهذا النوع من التعليم كان يزاول بالمساجد الجامعة التي كانت أشبه بالكليات اليوم، أما المدارس فإنها تقرب منها في المنحنى والأسلوب وتزيد عليها بتدريس العلوم الرياضية والعقلية.

وقد أبدى السلاطين العبدالواديون اهتمامهم بتأسيس المدارس، وتقديرهم للدور الذي تقوم به وللأساتذة وذلك بحضورهم أحيانا سماع بعض الدروس فيها، كما أن هذه المدارس كانت تعد للتأهيل لكل الوظائف السامية، الدينية والشرعية والقضائية، وتفتح الطريق لبلوغ أعلى المناصب السامية.

ومن المدارس التي أسسها بنو عبد الواد وأصبحت معاهد عليا للتعليم ولتكوين الإطارات السامية في مختلف المجالات على غرار المدارس النظامية التي أنشئت في المشرق، وما تم تشييده في سائر أنحاء العالم الإسلامي[1]:

مدرسة ابني الإمام[2]:

تعتبر أول المدارس المشيدة بتلمسان كانت على يد أبي حمو موسى الأول رابع ملوك بني عبد الواد وقد تم تشييدها بحي المطمر.

وسميت بمدرسة أولاد الإمام نسبة للأخوين العالمين أبي زيد عبد الرحمن وأبي موسى عيسى ابني أحد علماء، برشك، كما سميت من بعد بالمدرسة القديمة عند تأسيس المدرسة التاشفينية.

---

[1] الحياة الفكرية بتلمسان في عهد بني عبد الواد، بحث الدكتور عبد الحميد حاجيت، نشر بمجلة الأصالة: عدد 26 جويلية-أوت 1975 ص 1939.

[2] ابن مريم: السيناق، ص 126، 127 .

وللتفصيل انظر: التعريف بابن خلدون، ص، 22، 26، 29، 32، 47، الحفناوي: تعريف الخلف ج2، ص، 201-213.301-307. التنسي، المصدر السابق، ص 139. نضج الطيب ج 5، ص 215.

ومن المعروف عن أبي حمو موسى الأول أنه هو السلطان الذي أزال بداوة المشيخة عن عرش بني عبدالواد ومن هذا المنظور يمكن اعتبار عملية تزويد الحي الجديد بمركز إشعاع فكري سيعمل لا محالة على تمصير المدينة وهذا ما حدث فعلا، إذ سرعان ما صار الحي مركز إستيعاب للراغبين في الاستقرار بالمدينة خاصة في عهد أبي تاشفين الأول الذي شعر بضرورة تشييد مدرسة لإحتواء العدد المتزايد من طلبة العلم. غير أن المعلومات حول هذه المدرسة ضئيلة، فنحن لا نعرف متى وكيف توقفت عن أداء وظيفتها.

المدرسة التاشفينية :

أسسها أبو تاشفين عبد الرحمن الأول، جنوب شرق المسجد الكبير فاصلا بينها وبين القسارية الإسبانية وساحة القوافل.

وكانت تحفة فنية رائعة، قد تفنن في تشييدها حتى أصبحت قصرا من أعظم قصور الملوك، وكانت تشتمل على بنايات عديدة.

وكانت حسب زائريها أكبر وأجمل مدرسة شيدت بالمغرب الإسلامي، وحرص مؤسسها على تزيينها بأحدث الاختراعات من علم الحيل كالشجرة الفضية والتي يصفها التنسي على النحو التالي :

وكانت عنده شجرة من فضة على أغصانها جميع أصناف الطيور الناطقة، وأعلاه صقر فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة وبلغ الريح مواضع الطيور، صوتت بمنطقها المعلوم لمشابهها فإذا وصل الريح موضع الصقر صوت فانقطع صوت تلك الطيور كلها.

كما زيّن هذه المدرسة بخصة صدفية الشكل كتب على افريز تربيعتها الأبيات التالية :

انظر بعينيك بهجتي وسنائي وبديع أتقاني وحسن بنائي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه صاف كذوب الفضة البيضاء
قد حق بي أزهار نمقت قعدت كمثل الروض غب سماء[1]

وتصدر للتدريس بها الفقيه علامة عصره والذي يعتبر من أقطاب الفقه المالكي أبو موسى عمران المشدالي[2] قادما من بجاية. كما درس بها عدد كبير من العلماء الذين ذاع صيتهم في المغرب الإسلامي ومن بينهم بعض المرازقة والعقابنة والتنسي وأحمد بن زكري.

وكان يعين للتدريس بهذه المدارس الرسمية من بين مشاهير العلماء. لكن بعض علماء ذلك العصر، رأى في تأسيس المدارس الرسمية ضررا على حرية البحث والدراسة، أولا لأنها تمنع الطلاب من الذهاب لطلب العلم عند أشهر الشيوخ في العالم الإسلامي، ولأنها تجعلهم يستقرون في أماكنهم تحت إغراء المزايا العديدة من مسكن وراتب واحترام لهم ووظائف عامة تمنح لهم[3].

---

[1] المقري، نفخ الطيب ج 8، ص 156.

[2] نيل الابتهاج، ص، 215-217. المقري : المصدر السابق ج 7، ص 148، 149. الحفناوي، المصدر السابق ج 1، ص 73، 76.

[3] ابن مريم، المصدر السابق، ص 217.

طرق التدريس :

وقد كانت طرق التدريس في هذا العصر بالمغرب الأوسط تختلف باختلاف الشيوخ الذين كانوا يقرأ عليهم، فمنهم من كان يعتمد على الطريقة التقليدية ومنهم من كانت طريقته تعتمد على الحوار، والمناقشة والتعمق في البحث والتعليل ولا شك أن هذه الطريقة الحوارية الفعالة تدل على تقدم أساليب التعليم في هذا العصر، وعلى تطور الدراسات الفقهية واللغوية ورواج الدراسات العقلية.

فمن المعلوم أن الفقه المالكي قد وصل في هذا العصر إلى طور النضج حيث كانت أساليب تدريسه قبل منتصف القرن السابع تقليدية تعتمد على النقل والحفظ، وفي المنتصف الثاني لهذا القرن حدثت ثورة في أساليب تدريسه قام بها بعض أعلام الفقه المالكي، بعد أن درسوا المنطق واستفادوا من علم الخلافيات كابن زيتون، وأبي عبد الله شعيب الدكالي، وابني الإمام، وناصر الدين المشدالي وكانت طريقتهم تمتاز بأعمال النظر وكثرة البحث، وإثارة وجوه الخلاف والرد عليها[1].

يقول ابن خلدون: "وبعد انقراض الدولة من مراكش (يعني الموحدية) ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون[2] لعهد أواسط المائة السابعة

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 772-773.

[2] ترجم له ابن فرحون في الديباج المذهب، ص 99 فقال ما خلاصته :

أبو أحمد بن أبي بكر مسافر بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الرفيع اليمني المالكي الشهير بابن زيتون، كان قاضي الجماعة بتونس فقيها أصوليا ويكنى بأبي الفضل ولي قضاء تونس مرتين، ورحل إلى المشرق رحلتين: الأولى سنة 648هـ أخذ فيها عن شمس الدين وعز الدين بن عبد السلام الثاني

فأدرك تلاميذ ابن الخطيب وأخذ عنهم، ولقن تعليمهم، وحذق العقليات والنقليات، ورجع إلى تونس بعلم كثير، وتعليم حسن، وجاء على أثره من المشرق أبو عبد الله بن شعيب الدكالي[1]، كان قد ارتحل من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع إلى تونس واستقربها وكان تعليمه مفيدا، فأخذ عنه أهل تونس واتصل سند تعليمهما في تلاميذ هما جيلا بعد جيل حتى انتهى إلى القاضي محمد بن عبد السلام[2] ت 749 شارح ابن الحاجب وتلاميذه، وانتقل من تونس إلى تلمسان في ابن الإمام وتلاميذه..."[3]

= وفخر الدين الأصلين وسمع الحديث من الحافظ عبد العظيم المنذري وجماعة غيره وحجّ ورجع إلى تونس بعلم كثير ورواية واسعة، ثم رحل ثانية سنة 656هـ فأقام بالقاهرة ثم حج ورجع إلى تونس فولى بها القضاء وعظم قدره وانتفع به الناس. هكذا كان ابن زيتون إماما علامة في المنقول و المعقول وقدوة في الأساليب التعليمية الجيدة، أنظر التعريف بابن خلدون، ص 22.

[1] أصله من هسكورة من المغرب، قرأ بالمغرب ثم رحل إلى المشرق العربي، ثم رجع إلى حاضرة تونس وبها عرف بعلمه وذاع صيته، وحرص عليه الناس وانتفعوا به.

للتفصيل انظر: عنوان الدارية لأبي العباس أحمد بن أحمد القريني، ص: 173، 174، 175، 176.

[2] عز الدين بن عبد السلام: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي قاضي الجماعة بها، كان علامة فقيها متبحرا في العلوم العقلية والنقلية محققا أخذ عن جماعة من الشيوخ كابن عبد الله بن هارون وابن جماعة وأخذ عنه جملة من الأعلام منهم القاضي ابن حيدرة وابن عرفة وخالد البلدي واثنى عليه في رحلته كثيرا العلامة ابن خلدون، تولى الفتوى والتدريس بتونس وتولى القضاء فيها سنة 734هـ وتوفي إثر الطاعون الجارف سنة 749هـ.

انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 336، 337. المقري: المصدر السابق، ج، 8، ص، 278. النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص 161، 163. التعريف بابن خلدون، المصدر السابق، ص 19.

[3] ابن خلدون: المقدمة، ص، 772-773.

وعن طبيعة التعليم واتجاهه في هذه المدارس في بدايتها يبدو أن الاهتمام كان موجها إلى العقيدة أكثر منه إلى التشريع الديني، و لم يعد الاهتمام في المقام الأول عند العلماء موجها إلى علم الكلام، ومعطيات العقيدة كما كان الحال أيام الموحدين.

وقد أفسح علماء القرن السابع الهجري مكانة كبيرة لعلم الأصول، أعني دراسة الحديث والقرآن بفضل ما قام به الموحدون من تشجيع لهذه الدراسة، وفقا لمبادئ تختلف عن المبادئ التي اتخذها الموحدون وتسير جنبا إلى جنب مع دراسة كتب المالكية، وكانت لها فائدتها العلمية، حيث ظلوا يستنبطون من هذه "الأصول" تكملات تشريعية، بل وتصحيحات للتفسيرات الواردة في كتب علماء المذهب المالكي، ولهذا أصبحت هذه المعاهد مدارس للفقه المالكي، تنشر المذهب الذي ارتضته الدولة، وتعد لتأهيل كل الوظائف السامية الدينية والشرعية، وتفتح الطريق لبلوغ أعلى المناصب السامية في الدولة.

الاختصار ومضاره :

وقد تفشت ظاهرة أخرى في هذا العصر اختصار الكتب الفقهية في متون موجزة غاية الإيجاز تخل البلاغة ولا تساعد على التحصيل العلمي المكين، وقد أبدى بعض علماء هذا العصر، مثل الآبلي وعبد الرحمن بن خلدون، تحفظهم من شأن هذا الاتجاه، حيث اعتبروا أن تأليف المختصرات والاعتماد عليها في التدريس، آفة كبرى، حيث أن ذلك يعمل على تعميق الدراسة السطحية ويساعد على نشر الجمود في مجال البحث. وقد كانت هذه المختصرات من الإيجاز حيث لا يتيسر فهمها إلا بالشروح التي كان يؤلفها المؤلف نفسه أحيانا،

أو يتولى ذلك غيره من الفقهاء والعلماء، ابتغاء حل غموضها وتفسير نصها الأصلي.

وقد تحدث عبد الرحمن بن خلدون عن مضار الاختصار فقال: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ كما فعل ابن الحاجب أبو عمر عثمان 646هـ في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك وأبو عبد الله محمد 672هـ في العربية، والخونجي محمد بن ناماور 624هـ في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل"[1].

محتوى البرنامج المدرس في ذلك العصر بالمعاهد العليا[2] :

إذا قمنا بدراسة شاملة لمحتوى البرنامج المدرس بالمعاهد العليا في ذلك العصر لتمكنا من حصر الاتجاهات والتيارات الفكرية في المحاور التالية :

1. محور العلوم الدينية: وما تتضمنه من فقه وتفسير وحديث وغيرها.
2. محور الأدب من شعر ونثر.
3. محور المباحث الفلسفية والتصوف بقسميه: السني والفلسفي.

محور العلوم الدينية: إن هذا المحور كانت مباحثه كثيرة وكتبه عديدة منها :

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ـ المقدمة، ص، 393. ابن مريم: البستان، ص 217.

[2] عنوان الدراية، ص 216.

أ- كتب التفسير :

1. الكشف والبيان لأبي إسحاق أحمد بن محمد التغلبي.
2. كتاب التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي.
3. أحكام القرآن لأبي الحسن على بن محمد الطبري.
4. الكشاف عن حقائق التنزيل لأبي القاسم عمر الزمخشري[1].

ب- كتب الحديث :

1. كتاب الموطأ للإمام أبي عبد الله مالك بن أنس ت 179.
2. جامع البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري ت 252 [2].
3. مسند مسلم لمسلم بن الحاج ت 261هـ.
4. سنن أبي داود لأبي داود السجستاني 275هـ .
5. جامع الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي ت 275.
6. جامع النسائي لأبي عبد الرحمن شعيب النسائي ت 303.

جـ- كتب الفقه :

1. كتاب المدونة لسحنون عبد السلام بن سعيد[3].
2. التهذيب لأبي سعيد البراذعي.

---

[1] عنوان الدراية، ص، 221.

[2] المصدر السابق، ص، 223.

[3] المصدر السابق ، 226.

3. كتاب التفريغ لأبي القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري القرطبي.

4. كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني 386هـ[1].

5. كتاب التلقية للقاضي أبي محمد عبد الوهاب ت 422هـ.

6. كتاب الإمام القاضي أبي بكر محمد بن العربي 543هـ.

7. كتاب القاضي الإمام عياض بن موسى ت 544هـ[2].

8. كتاب المقدمات لأبي الوليد محمد أحمد بن راشد ت 520هـ.

9. كتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي.

د- محور الأدب :

1. كتاب سيبوية.

2. كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي.

3. كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.

4. كتاب المفصل للزمخشري.

5. كتاب المقامات لأبي محمد القاسم بن علي الحريري.

و- محور التصوف والتذكير :

1. رسالة فضل مكة لأبي سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري ت 110هـ.

---

[1] عنوان الدراية، ص. 225.

[2] المصدر السابق، ص. 227.

2. قوت القلوب ومعرفة الطريق إلى معاملة المحبوب لأبي طالب محمد ابن علي المكي.

3. رسالة القشيري لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري.

4. كتاب أبي الفرج الجوزي[1].

ي- محور علم أصول الدين وأصول الفقه :

1. كتاب الإمام أبي أحمد بن علي الخطيب الباقلاني ت 591هـ.

2. كتاب الإرشاد لأبي المعالي.

3. كتاب المستصفى للإمام أبي حامد الغزالي ت 505هـ.

4. كتاب الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ت 420هـ.

5. كتاب المسند الكبير للإمام أحمد بن حنبل 242هـ.

العلوم الدينية :

لقد كان يغلب على هذا العصر الطابع الديني مما أدى إلى انتشار وازدهار العلوم الدينية، وهذا الازدهار في تلك العلوم كان مصحوبا بانتشار التصوف، وتغلغله في وسط العلماء والصلحاء، فاشتهر الكثير منهم بالتبتل، والزهد ونالوا احترام الجماهير وتقديرها العميق وقد ازدهر التصوف بقسيمة: السني والفلسفي، ونعني بالأول التصوف الذي سار متقيدا بالقرآن والسنة النبوية والاهتمام بالتعبد والزهد ويمثل هذا الاتجاه في العهد الموحدي ابو مدين بن

[1] عنوان الدراهية، ص، 232-233.

شعيب بن الحسن الاشبلي[1]، وأبو زكرياء الزواوي[2]، وكانت منابع دراستهم: قوت القلوب بن طالب المكي ورسالة القشيري[3]، وإحياء علوم[4] الدين للغزالي.

وأما التصوف الفلسفي، فيمثله ابن عربي[5] الذي مر ببجاية أواخر القرن

---

[1] ترجم له صاحب نيل الابتهاج ص 125؛ وصاحب البستان، ص 108؛ والمقري في نفحه، ج 9، ص 342.

[2] أبو زكرياء يحيى بن أبي علي المشتهر بالزواوي، ولد في بني عيسى من قبائل زواوة و تعلم أول أمره بقلعة بني حماد علي الشيخ الصالح أبي عبد الله ابن الخراط، ثم ارتحل إلى المشرق العربي حيث لقي العلماء والفقهاء والمتصوفة، استقر ببجاية بعد رجوعه من المشرق العربي ينشر العلم، وظل على هذا الحال إلى يوم وفاته من يوم الجمعة الرابع عشر من شهر رمضان المعظم من سنة 611هـ. انظر عنوان الدراية لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، ص: 135، 136، 137، 138، 139.

[3] رسالة القشيري: هي الرسالة المختصة في علم التصوف وقد اشتملت على تراجم لرجال التصوف وأبحاث في علمهم، ومؤلفها هو أبو القاسم عبد الكريم بن موازن القشيري المتوفى سنة 465هـ الرسالة القشيرية – طبعة القاهرة سنة 1948، ص2.

[4] كتاب الأحياء: هو إحياء علوم الدين للإمام الغزالي المتوفى سنة 505هـ، وله تأثير كبير على متصوفة المغرب الإسلامي وخاصة أبي مدين وغيره من أعلام التصوف.

[5] ولد محي الدين بن عربي المرسي يوم الإثنين 17 رمضان سنة 560هـ أصله من مرسية وقد رحل إلى المشرق وفي طريقه دخل بجاية في رمضان المعظم 597هـ غير أن المقري لم يذكر مروره ببجاية وإقامته بها في حين يذكر هذا الغبريني، ودخل مصر وأقام بالحجاز مدة، ثم دخل بغداد والموصل، ثم رجع إلى دمشق وأقام بها إلى أن توفي بها ليلة الجمعة 28 ربيع الثاني سنة 638هـ، وقد صحب الصوفية وسلك طريقة الزهد، وكان كريما لا يدخر شيئا من ماله وأديبا وشاعرا، ترك مؤلفات كثيرة، ويعتبر قطبا من أقطاب التصوف الفلسفي، ومن أكبر أدباء الصوفية ومن أشهر تأليفه كتاب النصوص، الفتوحات المكية وهو أعظم مؤلفاته. للتفصيل انظر: المقري: المصدر السابق، ج: 14 ص: 207.

السادس الهجري وابن سبعين[1].

وقد كون مدرسة تركت آثارها في تلمسان وبجاية وغيرهما.

وهؤلاء المتصوفة لم يكونوا يكتفون بالعبادة والسلوك الأخلاقي، وإنما كانوا يدرسون نظريات المعرفة والوصول إلى الحقيقة الإلهية وحقيقة الأشياء، وحينما كانت عقولهم تعجز عن ادراك الحقيقة الإلهية بالمقاييس العقلية كانوا يستعيضون عنها بالمجاهدات النفسية والرياضيات الروحية للوصول إلى ذلك بالكشف.

وقد أخذت حركة التصوف اتجاها جديدا يتمثل في تغلغل تعاليمها بين الأوساط الشعبية، وقد أدى هذا الاتجاه إلى تغلب الفكر الصوفي على الحياة الفكرية وعلى أكثر مظاهر الحياة بالبلاد.

«وإذا رجعنا إلى كتب التراجم التي دونت حياة العلماء الصالحين الذين ولدوا بالمغرب الأوسط واستقروا به، نجد صفحات حافلة بكرمات أولئك الصالحين واستجابتهم للدعوة وزهدهم في الدنيا وملاذها.»

---

[1] أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن سبعين من مرسية، اشتُهر بعلمه ومعرفته ونباهته وبلاغته، رحل إلى المشرق، وسكن بجاية، له مشاركة في معقول العلوم ومنقولها، وله أتباع كثيرون من الفقراء ومن عامة الناس. وقد ترجم له المقري في نفحه حيث قال: إن المترجم هو عبد الحق بن إبراهيم قد اشتهر بابن سبعين، ولد بمرسية سنة 614هـ ودرس العربية والآداب بالأندلس ثم انتقل إلى سبتة بالمغرب وانتحل التصوف، وعكف برهة على مطالعة كتبه والتكلم على معانيها فمالت إليه العامة ورحل إلى المشرق حوالي سنة 643هـ وحج حججا، واغفل المقري نزوله بمدينة بجاية في طريقه إلى الحج، ثم يقول: وشاع ذكره وعظم صيته .للتفصيل انظر: نيل الابتهاج، ص: 184، المقري: نفح الطيب ج: 2، ص: 356.

« الشيء الذي أدى بعامة الناس إلى الحماية بهم، حيث أصبحوا يحكمونهم في قضاياهم، و يستنجدون بهم لحماية أنفسهم وأموالهم وأمتعتهم، خاصة عندما تضعف الدول وتكثر الفتن. »

« كما أن كثرة الإقبال على العلوم الدينية يعود إلى سهولة التحصيل على وظائف هامة، سواء في القضاء أو الدواوين الإدارية، وغير ذلك من المناصب التي كان يتهافت عليها الناس » ومن أشهر علماء هذا العصر في هذا المجال :

1- أبو إسحاق التنسي :

إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي، نشأ بتنس، وتوجه إلى بجاية لطلب العلم، رحل إلى المشرق، فأخذ عن الكثير من العلماء، أمثال القرافي وابن دقيق العيد و شمس الدين الأصبهاني وبرع في العلوم الدينية، ثم عاد إلى مسقط رأسه، وكان أبو إسحاق إبراهيم عالما شهيرا، ألفا شرحا في عشر مجلدات على رسالة الفقه المالكي لعبد الوهاب[1].

وظل يغمراسن بن زيان يراسله ويرغبه في قدوم تلمسان، ولكنه كان يمتنع عن ذلك، وكان يرد على تلمسان زائرا حيث يقيم أشهرا ويعود من جديد إلى تنس، ولما استولى يغمراسن على تنس، استقدمه إلى تلمسان ليقوم بالتدريس بها، حيث استفاد منه العدد الكبير من العلماء الذين كانوا يقصدون حلقاته العلمية بالمسجد الجامع.

---

[1] أشهر تأليفه شرح كتاب: "تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى لأبي محمد عبد الوهاب المالكي، في الفروع، في عشرة أجزاء، وقد ضاع أثناء الحصار الطويل. راجع: ابن مريم: البستان، ص، 66، 68.

وحظي من قبل السلطان يغمراسن وعلماء تلمسان بحفاوة كبيرة وصارت له مكانة عظيمة في عاصمة الدولة العبدالوادية الناشئة[1].

و يشهد له في نفس الوقت بالزهد والورع، حيث أنه يعد من أولياء الله الجامعين بين علم الباطن والظاهر وذو كرامات شهيرة، توفي بتلمسان سنة 680هـ[2].

2- ابنا الإمام:

ابنا الإمام هما أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى، نشأ بمدينة برشك الواقعة بين شمال شرشال وتنس حيث كان والدهما، -محمد بن عبد الله التلمساني-، إماما بأحد مساجد هذه المدينة. لما استولى زيري بن حماد المكلاتي - المعروف بزير م - على برشك سنة 683هـ/1244م، اتهم إمام المدينة ابن عبد الله، والد الأخوين، باحتوائه على وديعة مالية لبعض أعداء - زيرم - وطالبه بها[3].

فامتنع الإمام فقتله غيلة فحزن ولداه، و أجمعا على مغادرة البلد ما دام بها عدوهم - زيرم -، لطلب العلم حوالي سنة 700هـ، فدرسا العلوم الدينية على تلامذة، ابن زيتون، وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي، ثم عادا إلى المغرب الأوسط، بحظ وافر من العلم، وامتهنا مهنة، التدريس بالجزائر، ثم بمليانة، حيث اتصلا بأحد عمال بني مرين عليها، الكناني، وذلك أيام الحصار الطويل.

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: المصدر السابق، ج 7، ص 181، التنسي، المصدر السابق، ص 126، 127

[2] راجع: الحفناوي، المصدر السابق، ج2 ، ص 18، 19، 20، العبدري، الرحلة المغربية، ص 11. ابن مريم : ص 35،37، التنسي، المصدر السابق، ص 127، يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 2، ص 14.

[3] البستان، ص 123.

وعند انصراف بني مرين إلى بلادهم، عقب مقتل السلطان أبـي يعقـوب، قدما إلى تلمسان مع الكتاني، و قدمهما إلى أبي حمو الأول، واثنى عليهما، فبنى لهما المدرسة المعروفة باسمهما، وابتنى لهمـا بجانبهـا دارين للسـكن، واختصهمـا بالفتوى والاستشارة وضمهما إلى خاصته وأعيان مجلسه، فأقاما هنـاك محظوظين مكرمين بين أهل العلم والفضل.

استمر الأخوان العالمان على صحبتهما لأبي حمو الأول بتلمسان إلى وفاتـه، فقربهما يومئذ إليه ولده السلطان أبو تشفين فلازما مجلسه مدة سنتين ثـم غـادراه إلى المشرق، سنة 720هـ، 1320م وهناك اجتمعا بأكبر العلمـاء، حيـث أخـذا عـن جلال القزويني صاحب التلخيص في البلاغة، وسمعا صحيح البخاري عن الشـيخ احجار، و اجتمعا هناك بشيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية.

عـادا ابنـا الإمـام مـن المشـرق وقـد ذاع صيتهمـا في المغـرب الإسـلامي، واشتهرا بالتبحر في العلم حتى صارا يعرفان بالإمامـة والاجتهـاد المطلـق والتفـرد بالرئاسة، فقصدهما الطلبة وضاقت مجالسهما وكثر المنتسبون إليهما والآخـذون عنهمـا، فتخـرج عليهمـا أعـلام مثـل الآبلي، والمقـري الكبـير، وأبـي عبـد الله الشريف، وسعيد العقباني وابن مرزوق الجد وغيرهم. ولما تم لأبي الحسن النصـر في تلمسان ودخولها سنة 735 استدعى إليه شيوخها وفقهاءها فكان ممن وفد عليه الأخوان، أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى، ابنا الإمام.

فرفع من منزلتهما، واختصهما بالشـورى وبمـا أن أبـا الحسـن كـان يهتـم بأهل العلم ويمنحهم الرواتب والعطايا ويحضرهم مجلسه، فطلب يومئـذ مـن ابـني الإمام أن يختارا له من أصحابهما مـن ينظمـه في عضويـة المجلـس العليمـي الـذي

كان بصدد التفكير في انشائه وقد زادت حظوتهما، وأحضرهما معه في واقعة طريفٌ آخر سنة 740هـ/1340م.

ولكن رغم هذا التفوق العلمي فإنه لم يبلغنا عن مؤلفاتهما شيء سوى ما أشار إليه ابنّ مريم في البستان من شرح أبي زيد على "ابن الحاجب الفرعي"، ويقول ابن فرحون "أن لهما التصانيف المفيدة" ولعلها ضاعت وسط تلك الحوادث والاضطرابات التي مني بها المغرب الإسلامي يومئذ. وكانت وفاة أبي زيد في العشر الأوسط من رمضان سنة741 هـ، أوائل مارس1340 م ودفن ببلدته برشك، أما أخوه ظل بالقرب من السلطان أبي الحسن، إلى أن شغل السلطان بحوادث تونس والقيروان فسرحه إلى بلده وذهب إليها وأقام بها قليلا حتى وافاه أجله في الطاعون الجارف سنة 749هـ/1349م[1].

العلوم اللسانية :

وفي مجال العلوم اللسانية قد حظيت الدراسات اللغوية وما يتفرع عنها من العلوم والآداب، بإقبال كبير من طرف طلبة العلم بالمغرب الأوسط، حيث نبغ كثير من الكتاب والشعراء، واهتم أيضا علماء الدين باللغة والبلاغة وغيرهما من العلوم لما لها اتصال وثيق بعلمي القرآن والحديث، ومن أبرز العلماء في هذا المجال :

---

[1] راجع: التعريف بابن خلدون، ص 22، 26، 29، 32، 47؛ ابن فرحون: المصدر السابق، ص، 152، أحمد بابا: نيل الابتهاج، ص 166، 188، 190، 193. ابن مريم: المصدر السابق، ص، 201، 203، 307. بغية الرواد ج1، ص 71–72. المقري: نفح الطيب ج، 5، ص، 211، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 223.

1- أبو بكر محمد بن داود :

حياته :

أبو بكر بن خطاب هو محمد بن عبيد[1] الله بن داود بن خطاب المرسي، ولا نعلم عن نشأته إلا أنه ينسب إلى مرسيه، وإن كان على حد تعبير ابن الخطيب "شكس" الأخلاق متقاظبا زاهيا بنفسه"[2].

شيوخه :

ذكر ابن الخطيب جملة من الشيوخ أخذ عنهم أبو بكر وانتفع بعلمهم فروى عن القاضيين أبي عيسى بن أبي السداد، وأبي بكر بن محرز وأبي بكر محمد القرشي وغيرهم ويضيف يحيى بن خلدون إلى هؤلاء الشيوخ جماعة أخرى منهم "أبو بكر بن جوهر، وأبو بكر الغافقي، وأبو الحسين ابن عبد الرحمن الرفاء، وأبو عيسى محمد بن محمد بن أبي السداد، وأبو المعراف بن عميرة وغيرهم"[3].

قدومه إلى تلمسان :

التجأ أبو بكر بن خطاب إلى تلمسان في صحبة جالية أندلسية التي آثرت الوفادة عليها وأشار إلى ذلك ابن خلدون فقال: "ووفد عليه (أي يغمراسن) لأول دولته ابن وضاح إثر إنهيار دولة الموحدين، أجاز البحر مع جالية المسلمين

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج، 1، ص48، ابن مريم، المصدر السابق، ص227.

[2] الإحاطة، ج2، ص 275.

[3] يحيى بن خلدون المصدر السابق، ج، 2، ص276.

من شرق الأندلس فآثروه وقرب مجلسه وأكرم نزله وأحله من الخلة والشورى بمكان اصطفاه له، ووفد في جملته أبو بكر بن خطاب المبايع لأخيه بمرسية"[1].

ويبدو أن ورود أبي بكر بن خطاب على تلمسان إنما كان على إثر الفتنة التي وقعت بمرسية وأشار إليها ابن الخطيب بقوله: "إنه رجع إلى مرسية وقد ساءت أحوالها فأقام بها مدة ثم أنفصل عنها واستقر بالعدوة بعد مكابدة"[2].

وابن خلدون يذكر أنه بايع أخاه بمرسية[3] ولم تساعده الإضطرابات التي كانت تعرفها مرسية على المقام بها فارتحل عنها إلى المغرب وتقلب في أنحائه وكان ارتحاله في تاريخ غير معروف.

وفاته :

إذ كان تاريخ ميلاد أبي بكر غير معروف فإن تاريخ وفاته يكتنفه الغموض و قد اختلف مترجموه في ذلك فذهب يحيى بن خلدون: "إلى أنه توفى يوم عاشوراء سنة 636هـ ووافقه ابن مريم في البستان[4] على هذه الرواية وذهب ابن الخطيب في إحاطته[5] إلى أنه توفي بتلمسان يوم عاشوراء بعد الثمانين وستمائة والأصوب أن تاريخ وفاته كان بعد 681هـ لأنه كان حيا في هذه السنة وقد كتب فيها رسائل، ومن ذلك ما كتبه عن أميره أبي سعيد بن يغمراسن وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه جوابا عن تعزية الأمير النصري بالأندلس وجاء فيها: "عن

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج، 7، ص163، ابن خطيب الإحاطة، ج2، ص، 275.

[2] الإحاطة ج، 2،ص 275.

[3] عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر، ص، 163.

[4] البستان لابن مريم، ص، 227، يحيى بن خلدون، المصدر السابق ، ج، 1، ص 48.

[5] ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، 275.

الأمير عثمان بن الأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان، سلام كريم عليكم ورحمة الله تعالى... وبعد حمد الله مقدر الآجال، المحمود على جميع الأحوال..." وكذلك رسالته التي عزى بها أميره أبا سعيد عثمان عن أبيه يغمراسن وجاء فيها "مولاي السلطان أبو سعيد أدام الله مدة حياته، وعرفه من التأييد ما يتكفل لأمره بالتأييد" وهكذا يتضح لنا أنه توفي بعد سنة 681هـ.

مكانته في الشعر:

كان "أبو بكر خطاب" فقيها و شاعرا و ناثرا. فجاء في الإحاطة عن صلة "ابن الزبير" أن "أبا بكر بن خطاب" كان كاتبا بارعا و شاعرا مجيدا مشاركا في أصول الفقه وعلم الكلام وغيرها. ويؤيد هذه التحلية تحلية "يحيى بن خلدون" حيث يقول في "البغية": كان من أبرع الكتاب خطاً وأدبا وشعرا ومن أعرف الفقهاء بأصول الفقه"[1]. أما "الحافظ التنسي" فقال فقد جاء في دره : "إنه خاتمة أهل الآداب المبرز في عصره على سائر الكتاب"[2].

وقد أثنى عليه "العبدري"[3] في رحلته وأتانا بأبيات من شعره وهذه الأبيات التالية تدل على قلتها على مكانته في ميدان الشعر. حيث قال في ابن خميس :

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك لي وهاج، رسيسي

لمثله يصبو الحليم ويمتدي ... ماء الشؤون به وسير العيش

لك في البلاغة، والبلاغة بعض ما ... تحويه من أثر محل رئيس

نظم ونثر لا تبارى فيهما ... عززت ذاك وذا بعلم الطوسي

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1، ص 48.

[2] التنسي، المصدر السابق، ص 128.

[3] أنظر: نفخ الطيب ج، 5، ص 359.

ومن نظمه كذلك قوله :

أشكـــــرن لربك وانتظـــــــرك في أثـــــر عسر لأمر يســـــــرا
واصـــبر لكر بك وادخـــــــرن في ستـــــر ضر الفقر أجـــــــرا
فالدهـــــر يعثـــــر بالـــــورى والصبـــــــر بالأحرار أجـــــــرا
والوفـــــــر أكثر معشـــــــرات والفقـــــر بالحـــرار يغـــــــرى

كما روى له ابن الخطيب مقطوعات متعددة منها مقطوعة في الحكم

مطلعها :

اقنـــــع بما أوتيته تنل الغنـــــــى وإذا دهتـــــك مصيبـة فتصبـــــر

وثانية في الابتهالات مطلعها :

رب أنت الحليم فاغفر ذنوبـــــي ليس ليعفو عن الذنوب ســـــواك

إن نظام هذه الأبيات يدل على باع من الأدب مديد، وطبع فاضل ومقول مجيد، وناظمها رحمه الله متمكن الجلالة، معراف الأصالة[1]، وقال فيه عبر الرحمن ابن خلدون: إنه كان شاعرا محسنا[2].

مكانته في الكتابة :

نبغ أبو بكر بن خطاب في الكتابة الفنية وبها اشتهر أكثر من اشتهاره بالشعر، وقد فاق معاصريه في المغرب والأندلس، وقد ذكر من قبل ما حلاه به مترجموه من براعته في فني الكتابة والشعر، ومن آثاره إيثاره بمنصب رئاسة ديوان الرسائل السلطانية بغرناطة.

---

[1] الرحلة المغربية للعبدري، تحقيق احمد بن جدو، 165.

[2] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج، 7، ص 163.

ولما انتقل إلى تلمسان تقلد هذا المنصب في عهد يغمراسن بن زيان، وكانت رسائله نموذجا يحتذي به، وكان يوجه هذه الرسائل عن يغمراسن أو ولده أبي سعيد إلى الموحدين بمراكش وإلى الحفصيين بتونس وإلى ملوك بني الأحمر بالأندلس في مناسبات مختلفة، يقول عبد الرحمن بن خلدون: "إنه كان مترسلا بليغا وكاتبا مجيدا... فاستكتبه (أي يغمراسن) وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في عهود بيعاتهم ما تنوقل و حوفظ"[1] وذكر التنسي أن يغمراسن "جعله صاحب القلم الأعلى"[2] في تلمسان.

أسلوب الرسائل الديوانية في هذا العصر:

لقد ذكر مؤرخو الأدب في هذا العهد أن كتابة الرسائل قد تأثرت بطريقة القاضي الفاضل المتوفي سنة596 هـ وهي تمتاز بالتزام السجع وإطالة الفقرات وبالاستعارة والطباق والغلو في التورية و الجناس[3] وجاء بعده محي الدين بن عبد الظاهر المتوفى في سنة692 هـ وقد سلك طريقته واعتمد أسلوبه.

وشاعت هذه الطريقة في المشرق والمغرب وكان كتاب المغرب الإسلامي يتأثرون بكل التيارات التي تحدث في المشرق يحاكونها ويحتذونها، وصار السجع في الرسائل الأدبية وغيرها حلية مرغوبا فيها بل قد طغى السجع على غيرها من فنون الأدب كالمؤلفات الأدبية والرحلات وكتب التاريخ.

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر، ج، 7ص 163.

[2] التنسي ، المصدر السابق ج1، ص 139.

[3] الاسكندري أحمد: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه ص 295.

والعبدري يعد معاصرا لأبي بكر بن خطاب يقول في وصف بجاية في رحلته: "وهي مدينة كبيرة حصينة منيعة شهيرة برية بحرية، سنية سرية، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقان".

ومن المؤرخين نجد يحيى بن خلدون يميل إلى السجع في بعض فصول كتابه: فيقول في أبي موسى بن يوسف "وكما كان مولانا الخليفة الإمام السلطان الهمام، الجواد الضرغام، كبير الملوك وناظم السلوك، وناهج سبيل الفخر المسلوك"[1].

وقد لاحظ ابن خلدون في القرن الثامن أن ظاهرة السجع قد غلبت على الكتاب فقال: "واستمر المتأثرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الأشغال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخلطوا الأساليب فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق... والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تكلف له ثم إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال..."[2]

مراسلاته :

و لم يكن أبو بكر بن خطاب ليخرج عن هذا الأسلوب الشائع في عصره في الرسائل وهو السجع والعناية بالمحسنات البديعية، فكان ذا عناية بالسجع وإطالة الفقرات كما في قوله من رسالة أخوانيه "ونزلنا في الأخبية خارج البلد بموضع يعرف بالقنب قد تفجر عيونا، جمع ماؤه وهواؤه عن المحاسن فنونا،

---

[1] يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1، ص 4.

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، ج، 2، ص، 100.

وعرض علينا النزول في الديار داخل المدينة، فرأينا المقام بالقنب أحد الأسباب المساعدة على حفظ الصحة المعينة"[1] وكقوله من رسالة أخرى: "الفقيه الأجل أبو طالب أبقاه الله للمجد يحمي شرائعه وينمي بضائعه، ويبني مصانعه، ولا زال الاعتناء الرباني ليسعد مقاصده ويجمع السلامة أوابد أصله وشواهده"[2].

أو كقوله من رسالة تعزية لأبي سعيد بن يغمراسن: "فقد أدال الله من جزعه صبرا، وجعل من عسره يسرا" أو كقوله من رسالة تعزية وتهنئة وجهها عن أميره يغمراسن إلى المستنصر بتونس "فلم يكن إلا قدر ما يلمح البصر، أو تنداج دائرة في الماء يرمي فيه الحجر."

أثر أبي بكر بن خطاب في الحركة الأدبية بتلمسان :

إننا لا نجد مراجع كافية تحدثنا عن مدى تأثير أبي بن خطاب في الحياة الأدبية بتلمسان، ولكن الإشارات التي وردت في بعض المصادر عرضا تكشف لنا عن هذا التأثير ومن ذلك ما ورد في رحلة العبدري[3] من أن ابن خميس كان راوية عن ابن خطاب وتلميذا له، وكان ابن خميس أكبر شاعر وكاتب أنجبته تلمسان في القرن السابع الهجري وقد تأثر به في اتجاهه الأدبي وأسلوبه.

وقد حدثنا ابن خلدون عن أثر رسائله في المغرب الإسلامي كله فقال :

"وصدر عنه من الرسائل في خطاب خلفاء الموحدين بمراكش وتونس في بيعاتهم ما تنوقل وحفظ"[4].

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص 424، 425.

[2] ابن الخطيب: الإحاطة: ج 2 ، 277.

[3] الرحلة المغربية للعبدري، ص، 16.

[4] يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1، ص 111.

وفي هذه العبارة الموجزة ما يفيد أن رسائل أبـي بكـر صـارت تراثـا أدبيـا يدرس ويحفظ ونماذج مثالية يحاكيها الكتاب ويقيسون منها في رسائلهم الديوانية وغيرها.

2- أبو عبد الله بن خميس :

حياتـه :

أبو عبد الله، محمد ن عمر، بن محمد بن خميس الخميري الحجري الرعيني، ينتهي نسبه إلى حمير، وحجر ذي رعين، مساكن باليمين وكان يعتز بهذا النسب، ويرددة كثيرا في شعره ونثره كقوله :

وإن انتسبـــــت فإني من دوحـــه تتقيـــل الأنساب برد ظلالهـــــا

من حميـــــر من رعين مـــن ذي حجـر من العظماء من أقيالهـــــا

وقوله :

يغـــص ويشجي نهشل ومجـــاشع بمـــا أورثني حمير والسكـــــاسك

معظم المصادر التاريخية المطبوعة والمخطوطة، لا تتحدث عن أهله وأسرته، و لا عن مركزه الاجتماعي و لا الوسط الذي كان يعيش فيه، كمـا لا تتحـدث عن الشيوخ الذين أخذ عنهم والفنون التي قرأها، والأماكن التي تلقى فيهـا تلـك الفنون، وهذا ما جعل معظمها ترجح الرأي القائل: أن أسـرة ابـن خميـس أسـرة خاملة غير نابهة وأنه نشأ في وسط فقير لا يمت إلى العلم والمال بصلـة، وخاصـة

أنه كان يأوي إلى الفنادق وينام على سلائخ الضأن، وأجمع من كتبوا عنه على وصفه بالانزواء والتجرد والعزلة؟[1]

أما شيوخه لا يخرجون عن أولئك الذين كانوا يسكنون تلمسان، وما أكثرهم يومذاك بها، ومن أسماء أولئك الأعلام، أبي إسحاق التنسي وأخيه أبي الحسن، والإمام محمد بن مرزوق جد الجد، وأبي بكر بن داود بن خطاب الغافقي، وأبي الحسن الخزاعي[2] وغيرهم، فلا يستبعد أن يكون ابن الخميس أخذ عن هؤلاء وأمثالهم فنون ذلك العصر التي كان يحسنونها، كعلوم الدين واللغة، والجدل والتصوف والتاريخ.

ولهذا عاش الرجل مجهولا عند أهله وبني بلدته، ولم ينتشر له ذكر حتى في الكبر يوم أصبح فارس حلبة القريض والبيان.

قال السلطان أبو عنان: أخبرني شيخنا الإمام العالم العلامة، وحيد زمانه، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي، قال: لما توجه الشيخ الصالح الشهير، أبو إسحاق التنسي من تلمسان إلى بلاد المشرق اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العبد فكان من قوله :

- كيف حال الشيخ العالم أبي عبد الله بن خميس؟ وجعل يحليه بأحسن الأوصاف، ويطلب في ذكر فضله، فبقي الشيخ متعجبا وقال :

- من يكون هذا الذي حليتموه بهذه الحلي ولا أعرفه ببلاده ؟

---

[1] . التعريف بابن خلدون، ص 39؛ العبدري، الرحلة المغربية، ص 14-11؛ ابن مريم، البستان، ص 225؛ الحفناوي، تعريف الخلف، ج، 2، ص 382-366؛ المقري، نفخ الطيب، ج 7؛ ص 277-297، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج، 1، ص 109.

[2] الأديب الفقيه الكاتب على بن مسعود الخزاعي توفي سنة670 هـ.

فقال : هو القائل: – عجبا لها أيذوق طعم وصالها.

فقال: فقلت :

– إن هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم، وإنما هو عندنا شاعر فقط.!!

فقال له : – إنكم لم تنصفوه، وإنه لحقيق بمثل ما وصفناه به.

وكما أهملت المصادر التاريخية ذكر شيوخه، وأطوار نشأته أهملت كذلك ما يتصل بحياته مدة ثلاثين سنة أو تزيد، وحتى وظيفته بديوان السلطان أبي سعيد بن يغمراسن بن زيان لا يعرف تاريخها الحقيقي، لطول مدة حكم السلطان أبي سعيد، فقد بقي متربعا على العرش اثنين وعشرين سنة ويبدو أن ابن خميس لم يتول هذه الوظيفة في أوائل ملكه، حيث زار تلمسان بعض الرحالين بعد ملك أبي سعيد بثمانية أعوام، واجتمع بابن خميس، ووصفه بالخمول والقلة، و لم يشر أنه عمل أو يعمل بالبلاط، ومن عادته أن لا يغفل عن مثل ذلك[1].

---

[1] محمد بن علي بن احمد بن مسعود العبدري الحاجي، شيخ أبي القاسم بن رضوان وصاحب الرحلة النفيسة التي بدأها من حاجة يوم 25 ذي القعدة سنة 677هـ ولما حل بتلمسان سنة 688هـ. أكثر مجالسة ابن خميس وكان يأنس به مدة إقامته بتلمسان في انتظار موسم الحج، وأعجبه حاله وذهنه، وقد وجده في حال انزواء وتقلل من الدنيا، وأثنى عليه رغم اشتهار العبدري بالنقد اللاذع، وقال إنه لم ير بتلمسان من ينتمي للعلم ولا حتى يمت إليه سبب سواه، (فتي السن، مولده عام خمسين، له عناية بالعلم، مع قلة الراغب فيه والمعين عليه، وحفظ وافر من الأدب وطبع فاضل في قرض الشعر). وساق كثيرا من أخباره الأدبية، وأشعاره ومروياته التي أنشده إياها بنفسه.

انظر الرحلة المغربية ص، 13. نفح الطيب ج، 7، ص 285.

عبد الوهاب بن منصور: المنتخب النفس، ص 17.

وجوده في سبته :

وكذلك هنا تسكت المصادر التاريخية عن ابن خميس حتى يوجد في سبته[1] بين يديه قصيدة يمدح فيها أبا طالب العزفي[2] أميرها، ورثاء تلمسان وهجو ملوكها وتملق أبا يعقوب المريني محاصرها، وقد سكتت سائر المصادر، عن ذكر دواعي رحيل ابن خميس من تلمسان، وأسباب نقمته على مستخدميه، وبيان الطرق التي سلكها للوصول إلى مضيق جبل طارق.

ولكن إذا رجعنا إلى شعر ابن خميس يمكن لنا أن نفهم الأسباب والدوافع التي جعلته يغادر مدينته تلمسان ففي خلال الحصار الذي ضرب على تلمسان

---

[1] مدينة سبتة: مدينة مغربية واقعة على مضيق جبل طارق، وهي من أقدم المدن فتحها المسلمون سنة62 هـ. وأصبحت بعد ذلك مركز حضارة الإسلام والعروبة، بالشمال الإفريقي وظهر من بين أبنائها كثير من أئمة العلم والأدب كالقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي وأبي عبد الله بن الفخار والشريف السبتي، وقد بقيت سبتة في حوزة الإسلام إل أن أستولى عليها البرتغال يوم الأربعاء 15جمادى الثانية سنة818 هـ، ثم انتقلت إلى ملك أسبانيا واحتفظت بها إلى يومنا هذا حيث تعد جزء من التراب الأسباني قانونيا.

[2] العزفيون: أسرة عربية لخمية عريقة في المجد، من أكثر بيوتات سبتة وأهل الرئاسة والعلم والدين فيها، استبدوا بملك سبتة ونواحيها سنة 647هـ في خلافة عمر المرتضى بن اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ولما جد أمر بني مرين دخل أبو القاسم العزفي في طاعتهم بعد قتال شديد فأبقوه على ما كان عليه، ثم استولى أبو سعيد على سبتة وغرب العزفيين إلى غرناطة، فاستقروا هناك إلى أن طرد أبو الربيع المريني بني الأحمر عن سبتة، فطلبوا الإذن بالرجوع إلى المغرب فإذن لهم فعادوا واستوطنوا فاس، وتملك السلطان أبو سعيد المريني، ولى أبا زكرياء يحيى بن أبي طالب العزفي على سبتة.

وقد اشتهر العزفيون بحبهم للعلم وصدق نيتهم في الدفاع عن البلاد والجهاد في سبيل الله، ومن أعظم مآثرهم إنشاؤهم لعادة الاحتفال بعيد المولد النبوي بالبلاد المغربية.

من طرف سلطان فاس يوسف بن عبد الحق المريني، حيث نفدت الأقوات وهلكت النفوس، فتحركت في ابن خميس عاطفة إنسانية، بعدما شاهد المجاعة وفناء الناس، فدعا السلطة الحاكمة أن تقبل الدخول في طاعة بني مرين، فأبى على ملوك تلمسان كبرياؤهم، وعزة نفوسهم أن يقبلوا تلك الهزيمة والإهانة، ومن هنا بدأت علاقته بأمراء بني عبد الواد تسوء وأصبحت تدبر لإغتياله المؤامرات، ولذلك أيقن أن لا نجاة في البقاء بجانبهم.

ولولا سخائم قوم أبوا ... إيابي ركبت إليك الرياحا

أباحوا حماي وكم مرة ... حميت حمى عرضهم أن يباحا

ودافعت عنهم شعري انتصارا ... لكان الجزاء جلاي المتاحا

أبا عوا ودادي بخسا فسل ... أكان سماحهم بي رباحا

واغرارا بنفسي طلابها ... سرارا فجاءوا لقتلي صراحا

و آلو يمينا على أن ما ... توهمت لم يك إلا مزاحا

فشاورت نفسي، في ذا ما ... رأت لي بغير الفلاة فلاحا

حيث غادر ابن خميس تلمسان محملا بني عبد الواد مصيره المجهول كما تجهل الوسيلة التي مكنته من الفرار، والسبيل الذي اتخذه للوصول إلى سبتة، ولا تاريخ الفرار، وحسبما جاء في شعره يمكن أنه سلك سبيل ملويه والريف. فقد وصف سبيل سفره بأنها أفاحيص قفار وهذه النعوت تطابق تماما المظاهر التضاريسية المتكون من الريف بالمغرب الأقصى، وما بين نهر تافنة وملويه[1] :

فبت أناغي نجوم الدجا ... نجاء فلم ألف إلا نجاحا

---

[1] نفح الطيب للمقري، ج، 7، 177، 297؛ عبد الوهاب بن منصور، المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن أبي خميس، ص، 28، 29.

وقد وصف لنا الشاعر الطريق الذي سلكه إلى سبتة أنه قفار فيقول :

أجـــوب الدياجير وحـــدي ولا مؤنـــس إلا القطا والسراحـــا
و إلا الثعـــالب تحتس فـــي يميـــني فتملا سمعي ضباحـــا
أجـــوز الأفاحي فيحاقفـــارا وأعـــر والأدحمي غير فساحـــا

كما يرجح أن رحيله عن تلمسان كان في آخر سنة 706هـ لأن قصيدته اللامية البليغة التي مدح في آخرها بني عبد الواد وخاصة السلطان أبي زيان الذي كان قد بويع بالملك بعد وفاة أبيه أبى سعيد[1] يوم الأحد ثاني ذي القعدة فلا يبعد أن يكون الشاعر بقي في بلده إلى هذا التاريخ. ولهذا حط ابن خميس في سبتة قصد التعليم والإقامة، وبين يديه قصيدة غريبة في موضوعها، مدح فيها سبتة، وأشاد بمائها وهوائها ورقتها واعتدا لها، وجمال بحرها وجبالها وآلى على نفسه أن لا يرتوي غير مائها، وأن لا يحط رحله إلا بعقرها.

تـــركت لمينا سبتة كل نجعـــة كمـــا تركت للعز أهضامها شمـخ
وآليـت أن لا أرتوي غير مائهـــا ولو حل لي في غيرها المن والمنـــح
وأن لا أحـــطّ الدهر إلا بعقرهـــا ولـــو بو أتني دارا إمرتها بلـــخ

وفي نفس الوقت التفت إلى العزفيين مادحهم ومثنيا عليهم معددا مفاخرهم ومكارمهم. فيقول :

وأملاكهـــا الصيد المقاولة الألـــى لعزهم تعنو الطراخمة البلـــخ[2]

---

[1] السلطان أبو زيان بن أبي سعيد بن يغمراسن ولد بتلمسان سنة 659هـ – وبديع سنة 703هـ وتوفي ضحية يوم الأحد 21 شوال سنة 707هـ.

[2] الطراخمة : المتكبرون، البلخ : المتعجرفون.

كواكب هدي في سماء رئاســـــة تضي فما يدجو ظلال ولا بطخــو[1]

ثواقب أنوار ترى كل غـــــامـض إذ الناس في طخياء غيبهم التخـــوا

وروضات آداب إذ ما تأرجـــــت تضاءل في أفياء أفنانها الرمـــــــخ

وكان من وراء هذا يريد كسب عطف ومودة أهل سبتة وغنم عطفهم، بعد أن قست عليه الأيام ورمته بالرزايا والمحن، والبعد عن الأهل والوطن.

غير أنه لم يجد ما كان ينتظره ويتمناه في هذه المدينة، حيث قابله مكر الماكرين وكيد الكائدين مما عجل برحيله عنها سريعا، فقد أوعز ابن الربيع إلى طلبة سبتة، أن يلقوا على ابن خميس أسئلة يراد بها إعجازه، فاجتمع إليه الطلبة ذات يوم، والقوا عليه مسائل من غوامض الاشتغال فحاد عن الجواب عنها بأن قال لهم : أنتم عندي كرجل واحد.

وكان يعني بذلك أن هذه الأسئلة مستوحاة من ابن أبي الربيع[2].

---

[1] يطخو: طحا الضلال: اشتدت ظلكته.

[2] واجهه أصغر القوم سنا وعلما، وقال له:

إن كنت بالمكان الذي تزعم فأجبني عن هذه المسائل من باب علامات الأعراب التي اذكرها لك، فإن أجبت فيها بالصواب لم تخط بذلك في نفوسنا بالنظر إلى تعاميك عن الإدراك والتحصيل، وإن أخطأت فيها لم يسعك هذا البلد، فبهت الشيخ من مضمون تلك المسائل وقال :

إنما يسأل عن هذا صغار الولدان

فقال الفتى : فأنت دونهم إن لم تجب.

فانزعج الشيخ وقال: هذا سوء أدب وعلى إثر هذا الحادث غادر سبتة إلى مالقة

راجع: المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور، ص323 ا

إقامته بغرناطة مع الوزير ابن الحكيم :

تعتبر مالقة أول مكان وطئته قدما ابن خميس من أرض الأندلس، ومنها غرناطة، حيث وصلها سنة 703، وكان أميرها يومئذ محمد الثالث النصري المعروف بالمخلوع ووزيره وقت ذاك أبو عبد الله ابن الحكيم[1].

وشرع في تعليم العربية بها، ولكن الوزير لم يتجاهل قدره، حيث ذاع ذكره وشعره قبل مجيئه إليه، فضمه إلى مجلس علمائه، فتغنى الشاعر بفضله وكرمه فأبدع ما في وسعه، وأصبح الطائر الصداح بفضله.

قال ابن خاتمة :

"ثم أجاز البحر إلى الأندلس، فاحتفل بحضرة غرناطة في أواخر سنة ثلاث وسبعمئة في جوار الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، فتعارضا حقل المجد، وتباريا في الرفد والحمد، فأذن له ذو الوزارتين بأخلاف بره وإكرامه، وخلع عليه ابن خميس أفواف نثره ونظمه، فله فيه القصائد التي جلبت بها لبات الآفاق وتنفست عنها صدور الزفاف".

---

[1] ذو الوزارتين، محمد بن عد الرحيم بن إبراهيم اللخمي الرندي المعروف بابن الحكيم، الأديب الكبير، الذائع الصيت، ولد برندة في ربيع الأول 660هـ، واستكتبه الأمير أبو عبد الله بن محمد النصري في خلافته، ولما توفي الأمير المذكور، قلده أبو عبد الله بمحمد بن محمد النصري في خلافته، ولما توفي الأمير المذكور، قلده أبو عبد الله المخلوع الوزارة والكتابة، فكلف بشؤون الدولة إلى أن قتل يوم عيد الفطر من سنة 708هـ، وقد دخل هذا الوزير، تلمسان في الطريق إلى الحج، وكان أديبا عظيما، ذا عناية بالعلم والأدب، وقد أنشأ حوله مجلسا ضم كل نابغة مبرز كعبد المهين الحضرمي، وأبي العباس العزفي وغيرهم من الأعلام. راجع: المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور.

وفي سنة 706 زار ابن خميس مالقة، ومنها قدم على المرية، فنزل بها في ضيافة القائد، أبي الحسن بن كماشة، من خدام الوزير أبي عبد الله بن الحكيم، وبها مدح الوزير ابن الحكيم بقصيدته التي أولها :

العشي تعبـــــا والنوابـــــغ عن شكـــر أنعمك السوابـــــغ

وتعتبر قصيدة طويلة ومما جاء فيها في حق ابن كماشة:

و رسائـــــغ ابن كماشـــــة مع كل بـــازغة وبـــــازغ

تأتـــي بما تهـــوى النغـــــا نـــغ من شهيات اللغالـــــغ

تلاميذه وأصحابه :

إذ كان التاريخ قد أغفل عمدا أو سهوا شيوخ ابن خميس، فإنه حفظ لنا بعض أسماء تلاميذه ورواة شعره، وجلسائه وأصدقائه بتلمسان وسبتة والأندلس، فمن تلامذته، الإمام النحوي محمد بن علي بن الفخار الجزامي، والفقيه الأديب محمد إبراهيم بن عيشون البلفيقي[1]، أما رواة شعره، فمنهم القاضي عبد المهين الحضرمي، والأديب الكاتب، يحيى بن علي القبسي[2]، والقاضي محمد عبد

[1] محمد بن إبراهيم بن عيشون المتبحر في علوم الفقه وفروعه، وعلم اللسان وصناعة المنطق، الشاعر، الطيب.

[2] أديب شهير من أهل المرية، يعرف بابن زرفالة، توفي سنة 750هـ.

الرزاق، والقاضي أبو البركات بن الحاج[1]، والأستاذ أبو عثمان بن ليون[2] والرحالة العبدري وسواهم كثير[3].

وفي الوقت الذي كان فيه ابن خميس ينوي الرحيل عن غرناطة والعودة إلى بلده المحبوب الذي اشتد شوقه إليه، ونظم القصائد المبكية المشجيه فيه، ولما علم الوزير ابن الحكيم بذلك صعب عليه سماع الخبر فقال: ابن خميس في حضرته أنا كالدم بطبعه أتحرك كل ربيع. بينما هو يتهيأ ويستعد للرحيل إلى وطنه، تعجل به الأقدار ليسقط صريعا بجانب الوزير ابن الحكيم عندما حلت به النكبة[4]، وكان آخر ما صدر عنه من الشعر قوله :

لمن المنازل لا يجيب صداها محيت معالمها وصم صداها

وهو مطلع قصيدة عيدية في مدح الوزير، على عادته معه، وبعد نظم المطلع المذكور في شهر رمضان، جفت قريحة الشاعر، ونضب معينها و لم يستطع أن يزيد عليه شيئا.

وكانت وفاته بغرناطة قتيلا ضحى يوم عيد الفطر في مستهل شوال سنة 708، وذلك يوم مقتل وزيره ابن الحكيم، أصابه قاتله بحقده على وزيره، ويقال لما هم به قاتله، قال له : أنا دخيل النبي (ص) فلم يلتفت إليه وجعل يجهز عليه،

---

[1] محمد إبراهيم البليقي، من ذرية العباس بن مرداس توفي سنة 771.

[2] سعد بن أحمد بن ليون التجيبي من أهل المرية.

[3] راجع: المنتخب النفيس من شعر عبد الله بن أبي خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور ص، 36، 37.

[4] وصف مقتله غير واحد الأعلام، كيحيى بن خلدون في بغية الرواد، وأبي العباس المقري في نفح الطيب وأزهار الرياض، وابن الخطيب في الإحاطة.

فقال لم تقتل الدخيل الله بيني وبينك، فكان آخر كلامه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله، ويقال أن قاتله هلك قبل أن يكمل من قتله له، بفالج شديد أصابه فكان يصيح ويستغيث، ابن خميس يطلبني، ابن خميس يضربني، ابن خميس يقتلني وما زال الأمر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال نعود بالله من الورطات، ومواقع العثرات[1].

وحسب دراسة المهدي البوعبدلي[2]، أنه اكتشف له أخيرا، أثر من أهم آثاره، وهذا الأثر هو رسالة ثانية - الرسالة الأولى التي نشرها لسان الدّين في "الإحاطة" وعبد الوهاب بن منصور في "المنتخب النفيس" - كتبها ابن خميس بخطه سنة 682هـ وموضوعها نفس موضوع الرسالة الأولى، وكتبت في وقت واحد، إلا أنها حظيت بشرح قيم لمعاصر ابن خميس قاضي قضاة تلمسان ابن هدية القرشي.

هذا الشرح الذي أزاح الغموض الذي اكتنف حياة ابن خميس، وترك مترجميه ينسبه إلى السحر والشعوذة، والبعض الآخر ينسبه إلى الزهد والتصوف.

ظهر من خلال شرح ابن هدية أنّ ابن خميس كان ينتصر للفلاسفة ويشيد بأئمتها، والفقهاء إذ ذاك وفي مقدمتهم ابن هدية كانوا يحكمون على الفلاسفة بالزندقة والكفر وهذه التهمة التي ألصقت بابن خميس، هي من الأسباب التي جعلته يعيش في بلاده منزويا منعزلا في الأوساط العلمية، مما جعل العبدري يقول

---

[1] انظر: المنتخب النفيس في شعر عبد الله بن أبي خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور، ص، 40، 41.

[2] المهدي البوعبدلي - الأصالة - العدد -26، ص، 130-131، راجع تاريخ قضاة الأندلس - لأبي بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ص 134-135.

في رحلته عنه: "وجده على حال انزواء وتقلل من الدنيا". وكان ابن خميس قريب العهد بالامتحان الذي نصبه له بمدينة فاس، حيث نصب فقهاؤها كمينا، مثل فيه أمام محكمتهم، فحكموا عليه بالكفر والزندقة.

وقد قال ابن هدية عند شرحه لبيت ابن خميس في رسالته :

وأقل أبا البركات من بركاته و ادفع محال شكوكه بمحالها

"أبا البركات يعني الشريف أبا البركات محمد بن علي الحسني المعروف ببلده فاس بالشواذكي وكان له بحث في علم الكلام، وكان له بعلم اللسان بعض الاعتناء والاهتمام، وبسببه وقعت مخاطبة أبي عبد الله بن خميس أبا الفضل ابن عتيق بهذه الرسالة، إذ كان أبو البركات هذا هو متولي مناظرته حال حلوله بمدينة فاس واجتيازه بها واحسب ذلك ما بين الثمانين والتسعين وستمائة أو قبلها بسنين والله أعلم، وبمدينة فاس كنت أنا قاطنا إذ ذاك مع والدي رحمهما الله تعالى، لسبب أوجب مفارقة الوطن يطول ذكره، وكانت المناظرة في علمي الكلام واللسان، انقطع فيها أبو عبد الله بن خميس حينئذ، انقطاع من عزه الدليل وأعوزه البرهان فرسمه الشريف أبو البركات عند ذلك في ديوان الضلال والكفر، ووسمه مع ما وسمه الله به من التفلسف بانتحال الشعر، و ذلك ما أشار ابن خميس إليه في النظم من هذه الرسالة والنظر"[1].

ويتضح من خلال هذا الشرح كذلك، أن هدية علاوة على رأيه في الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزندقة، كان يحتقر ابن خميس ويهينه، ومن ذلك رده عليه عند شرحه لبيته الذي قال فيه :

وإذا انتسبت فإنني من دوحة تتقيل الأنساب برد ضلالها

---

[1] المهدي البر عبدلي، الأصالة، العدد، 49، 50، ص7.

قال ابن هدية: "...وهذا غلو مفرط وكذب مورط..."

ثم استرسل ابن هدية في حديثه فقال: "فأنت نرى ما في كلام ابن خميس هذا من القحة والجرأة على معاطاة الرفعة التي ناطته بمناط الخمول والضعة، على أنه لم يقف هنا ولا جعله حده، بل أضرب عنه وقال بعده لو حظت بقبائها الحجري رحلها، وساجلت بوفاء صبرها ذي رعين إلا استوفت سجلها"[1].

إلى أن قال مخاطبا ابن خميس :

"وأما الفقه الشرعي فمعلوم أنك منه صفر الراحة، بريء الساحة، لم تزل قاصرا على اجتناب أسبابه قاصدا الاجتناب أربابه، معاداة له، ومناوأة لمن حمله.

فلست منهم لدى خبر ولا خبر ولست منه لدى ورد ولا صدر

ولو لا أن الأليق إيثار الأعراض من استتار مقاصدك السيئة والأعراض، لأومأت من ذلك إلى ما يوجعك منه عضو الثقاب، ويرميك بثالثة الأثافي، فإنك من تقاولك هذا السجال، وتجاولك في ذلك المجال، بين جهل فاضح أو كفر واضح، فاختر وما فيهما حظ لمختار"[2].

شخصية ابن خميس الأدبية :

يعد ابن خميس عند كثير من الأدباء شاعر المئة السابعة[3] وهو إذ يحمل هذا اللقب، فإنما يحمله عن جدارة واستحقاق حيث لم يوجد في هذا القرن من ينافسه في قرض الشعر وقوة المعين وطول النفس، وقل من ينافسه ويماثله في سلاسة المباني، وسلامة المعاني.

---

[1] المهدي البوعبدلي – الأصالة – العدد، 26، 130–131.

[2] المهدي البوعبدلي نفس المصدر 132.

[3] يحيى بن خلدون، المصدر السابق ، ج I، ص 109.

وقد أجمع من أشاروا إلى ابن خميس ولو بكلمة على قوة شاعريته، وأقروا له بالتفوق واعترفوا له بالبراعة والأسبقية، فماعا به عائب، واستنقصه جاحد بل عد معاصريه فارس الحلبة، وفحل الألوان، قال ابن الخطيب: "كان طبقة الوقت وفحل الألوان في المطول، أقدر الناس على اجتلاب الغريب" وقال ابن خاتمة: "وكان رحمه الله من فحول الشعراء، وأعلام البلغاء، يصرف العويص ويرتكب مستصعبات القوافي، ويطير في القريض مطار ذوات القوادم الباسقة والخوافي"[1]، وقال عبد الرحمن بن خلدون: "كان لا يجارى في البلاغة والشعر"، ووصفه أخوه زكرياء "بالدباج الذي لا نظير له" وكان قاضي القضاة بمصر، تقي الدين بن دقيق العبيد يضع قصيدة من شعره في خزائنه تعلو مجلس مطالعته، وكان يخرجها كثيرا ويطيل النظر فيها، ويتأمل معانيها، حكى السلطان أبو عنان عن الآبلي.

أن القصيدة لما وصلت إلى ابن دقيق العيد لم يقرأها حتى قام إجلالا لها[2].

وقد مدحه ابن خطاب بقوله :

رقت حواشي طبعك ابن خميس فهفا قريضك لي وهاج رسيسي

ولمثله يصبو الحليم ويمتري ماء الشؤون به وسير العيش

---

[1] أحمد بن علي بن محمد الأنصاري يكنى أبا جعفر وأبا العباس ويعرف بابن خاتمة أديب كبير وشاعر ولد بالمرية سنة710 هـ وأخذ عن أبي البركات البلفيقي وابن ليون وابن أبي العيش وكتب مولاة بلده ثم انقطع للتعليم بجامع بلده الكبير بقية حياته وأهم تآليفه كتابه – مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية. ألفه في بيان فضل بلده عندما عادت عليها العوادي وهذا الكتاب اليوم مفقود، وآواخر العهد به ما ذكره أبو العباس المقري من أن كان يملك منه نسخة تركها مع كتبه عندما سافر للمشرق وكانت وفاة ابن خاتمة سنة770 هـ.

[2] انظر: (بغية الرواد) ج1، ص 115، نفح الطيب ج 2، ص 188–193.

لك في البلاغـــة، والبلاغة بعض ما تحويـــــه من أثر، محل رئيـــــس
نظـــــم ونثر لا تبـــارى فيهمـــا عززت ذاك وذا بعلم الطرســـــي[1]

وقد حدث عنه ابن خاتمة في كتابه "مزية المرية" فقال: "كان صنع اليدين حاذقا ماهرا فيما يصنعه بيده، فلقد صنع قدحا من الشمع أبدع في شكله ولطافة جوهره وإتقان صنعته وكتب بدائر شفته ما يلي حاكيا لسان حال القدح :

ومـــا كنت إلا زهرة في حديقـــة تبســـم عني ضاحكات الكمائـــم
فقبلت من طور لطور فها أنـــــا أقبـــل أفواه الملوك الأعاظـــم

وأهداه خدمة للوزير أبي عبد الله ابن الحكيم[2].

ويمتاز شعر ابن خميس بخصائص كثيرة كالمتانة وغلبة الحزن عليه وغرابة الألفاظ و ميله للجانب القصصي.

ولكن الخاصية المتميزة في شعر ابن خميس غرابة الألفاظ، حيث كان ابن خميس مولعا بها وأقدر الناس على استعمالها، والغريب أن غرابة لفظه لا تخل بفصاحة شعره، ورغم أن بعض قصائده الشعرية لا يفهم معناها دون الاستنجاد بالمعاجم اللغوية والمصادر التاريخية فإنها مع ذلك منظومة من نسج من السلالة والعذوبة، بحيث لا يكاد المرء يفرغ من تفهم الشطر حتى تدفعه الرغبة في المتعة باستجلاء الغريب إلى تفهم الشطر الثاني وهكذا من بيت إلى بيت وقد دافع ابن خميس عن استعماله الغريب في قصيدته التي مطلعها :

---

[1] أبو حامد الغزالي، فيلسوف الإسلام الشهير المولود بطرس 450هـ

[2] نفح الطيب: ج: 5، ص، 360، 361.

العشيـــــى و تعيبا والنوابـــــــغ عن شكـــر أنعمك السوابـــــــغ

بقوله :

مـــــا ذاق طعم بلاغـــــــــة مـــــن ليس للحوشي ما ضـــــغ

وكان لابن الخميس إلمام كبير بعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغـة وفقه والأصول والجدل والفلسفة والصوفية، وله فوق ذلك، اطـلاع واسـع علـى أيـام العرب ورجالها وأنباء الأمم وأحوالها وخبرة كـبرى بـالنحل وتفاريقهـا، والشـيع ومعتقداتها، وشعره مرآة صادقة لمعارفه هذه، وكان ابن خميس راوية متأخرة من رواة الأدب العربي، جاء يكمل في القرن السابع ما أغفل الرواة ذكره في القرون الأولى[1].

مختارات من شعره :

لابن خميس شعر كثير كله حسنات ولطائف وبراعات وطرائف، قد جمعه ودونه القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي[2] في جزسماه "الدر النفيـس

---

[1] المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل / عبد الوهاب بن منصور ص39.

[2] هو أبو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بـن عبـد المهيمـن الحضـري السـبتي. ولد بسبتة سنة 675 هـ . أخد عن أبـي إسـحاق الغـافقي الأندلسـي ، ثـم إنتقـل إلى غرناطـة بعـد إحتلال الأمير أبي سعيد بن اسماعيل ابن عم السلطان محمد المخلوع ابن محمد الفقيه ابن محمد بـن يوسف ابن الأحمر : لسبته سنة 703 هـ . و أخد بالأندلس عن أبي جعفر بن الزبير . و كان كاتبـاً مشهوراً ، اتصل بابن الحكيم بغرناطة ، و كتب له ، و في تلك الأثناء عرف الشـاعر الصـوفي ابـن خميس . و بعد مقتل ابن الحكيم، و استيلاء المرينيين على سبته ، عاد ابن عبد المهيمـن إلى مسـقط رأسه. و في عهد السلطان أبي حسن المريني الحق بالمجلس العلمي ، ثم صحب السلطان إلى إفريقيـة سنة 748 هـ.

لقد كان المهيمن بارعاً في فنون الأدب ، فصيحاً بليغاً.

من شعر ابن خميس" وقد جمعه الأستاذ عبد الوهاب بن منصور تحت عنوان : "المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس".

شوقه وحنينه إلى تلمسان :

قال وهو بالأندلس يتشوق إلى تلمسان، ويمدح الوزير أبا عبد الله بن الحكيم، وكان نظمه لهذه القصيدة في شهر شعبان سنة 706هـ.

سل الريح إن لم تسعد السفن أنواء ... فعند صباها من تلسمان أنباء[1]

وفي خفقان البرق منها إشارة ... إليك بما تنمي إليها وإيماء

تمر الليالي ليلة بعد ليلة ... وللأذن إصغاء وللعين إكلاء[2]

وإني لأصبو للصبا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم إصباء[3]

وأهدي إليها كل يوم تحية ... وفي رد إهداء التحية إهداء

واستجلب النوم الغرار ممضجعي ... قتاد كما شاءت نواها وسلاء[4]

لعل خيال من لدنها يمر بي ... ففي مره بي من جوى الشوق إبراء

وكيف خلوص الطيف منها ودونها ... عيون لها في كل طالعة راء[5]

= انظر : التعريف بابن خلدون : ص 20 – 38 – 41 – كتاب العبر :ج 7 ، ص 515 – 517 ، المقري : نفح الطيب : ج 7 ، ص 163 – 164 – 384 – 391.

[1] الأنواء: جمع نوء : النجم المائل للغروب

[2] إكلاء: الإكلاء : ترديد البصر في شيئ مصوب

[3] صبا إلى الشيء حن إليه، الإصباء: الاستهواء

[4] الغرار: القليل من نوم وسواه، والقتاد شجر صلب له شوك كالإبر والسلاء بالضم جمع سلاءة: شوكة النحل.

[5] لعله يريد هنا بالراء الرقيب.

وإنـــي لمشتاق إليها ومنبـــــئ ببعـــض اشتياقي لو تمكن إنبـــاء
وكـــم قائل تفنى غراما بحبهـــا وقد اخلقت منها ملاء وأمـــلاء[1]
لعشـــرة أعوام عليها تحرمـــت إذا مـــا مضى قيظ بها جاء إهـراء[2]
يطنـــب فيها عائثون وخـــرب ويرحـــل عنها قاطنون وأحيـــاء
كـــأن رماح الناهبين لملكهـــا قـــدح وأموال المنازل أبـــراء[3]
فـــلا تبغين فيها منارا لراكـــب فقد قلصت منها ظلال وأفيـــاء[4]
ومن عجب أن طال سقمي ونزعها وقســـم اضناء علينا وإطنـــاء[5]
وكم أرحفوا غيظا بها ثم أرجـــأوا فيكـذب إرجاف ويصدق إرجاء[6]
يـــردد عيابها الدهر مثلمـــا يردد حرف الفاء في النطق فأفـــاء[7]
فيا منزل نال الردى منه ما اشتهـــى ترى هل لعمر الأنس بعدك إنســاء
وللظى الحرب التي فيك تلتظـــي إذا ما انقضت أيام بؤسك إطفـــاء
وهـــل لي زمان أرتجي فيه عـــودة إليـك ووجه البشر أزهر وضـــاء

---

[1] الملاء بالضم ج ملاءة: ثياب تلبس على أفخذهن، والأملاء ج ملاء: أشراف القدم الذين يملأون العين أبهة.

[2] ليشير إلى مدة الحصار الذي ضربه المرينيون على تلمسان وترجم العام انقض، والقيظ شدة الحجر، والإهراء: شرة البرد.

[3] الأقداح، ج قدح بالكسر منهم الميسر، ولعل المراد بالإبداء ما يربحه لاعب الميسر.

[4] الأفياء ج فيئ: الظل

[5] النزع: حالة المرض المشرف على الموت، ولا طناء ثقل المرض والأطناء ج طنى المرض.

[6] أرجاف: الأخبار السيئة التي يراد بها الناس والأرجاء

[7] الإنسان الحمل على النسيان.

ومنها :

ولـــولا جوار ابن الحكيم محمـــد ... لما فات نفسي من بني الدهر إقمـــاء

حماني فلم تنتب محلي نوائـــــب ... بســـوء و لم ترزأ فـــــؤادي أرزاء

وأكفـــأ بيتي في كفالة جاهـــــه ... حصـــاروا عبيدا لي وهم لي أكفاء

يـــؤمنون قصدي طاعة ومحبـــــة ... فما عفته عافوا وما شئته شـــاؤوا

دعـــاني إلى المجد الذي كنت آمـــلا ... فلم يك لي عن دعوة المجد إبطـــاء

وبـــوأني من هضبة العز تلعـــــة ... يناجي السها منها صعود وطأطـــاء[1]

ولهذا فابن خميس دائما لا ينس تلمسان حيث نلاحظ أنه يعطيها حقها في كثير من القصائد. ومن البديهي أن لا ينساها، فهي مسقط رأسه ومربع صباه من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يعتز بالأندلس الساحرة بسمائها وهوائها ومياهها وبساتينها فأينما اتجه رأى ما يذكره ببلده فتجبش عيناه وتهيج أحشانه فينفجر خاطره كالبركان حنينا وأشواقا، فيتغنى بشعره الحلو السلسل الذي ينم عن شاعرية فياضة.

تلمسان، جادتك السحاب الروائـح ... ورأست بواديك الرياح اللواقـــح

وسح على ساحات باب جيادهـــا ... ملـــث يصافي تربها ويضافـــح[2]

يطير فـؤادي كلما لاح لامـــع ... وينهـــل دمعي كلما ناح صـــادح

ففـــي كل شبر من جفوني مائـــح ... وفي كل شطر من فؤادي قـــادح[3]

فمـــا الماء إلا ما تسح مدامعـــي ... ولا النـــار إلا ما تحن الجوانـــح

---

[1] الصعود المرتفع.

[2] باب الجياد شهر تلمسان، والملث: المطر يدوم أياما.

[3] منح الماء: استفاه واستخرجه من البئر.

خليلـــي لا طيف لعلوة طـــــارق ... بليـــــل ولا وجه لصبحي لائـــــح

نظـــرت فلا نور من الصبح ظاهـر ... لعيني ولا نجم إلى الغرب جانـــــح

بحقكمـــــــا كفا الملام وسامحـــا ... فما الخل كل الخل إلا المسامـــــح

ولا تعـــــزلاني واعذراني فقلمـــا ... يـــــرد عناني عن عليه ناصـــــح

كتمت هواها ثم برح بي الأســـى ... وكيف أطيق الكتم والدمع فاضـــح

لســـــاقية الرومي عند مزيـــــه ... وإن رغمت تلك الروابي الرواشـح[1]

فكم لي عليها من عدو وروحـــــة ... تســـاعدني فيها المنى والمائـــــح

فطرفي على تلك البساتين ســـــارح ... وطـــرفي على تلك الميادين جامـح[2]

تحاربها الأذهان وهي ثواقـــــــب ... وتهفو بها الأفكار وهي رواجـــح

ظبـــاء مغانيها عواط عواطـــــف ... وطـــبر مجانيها شواد صـــــوادح

وتقتلهـــم فيها عيون خواطـــــر ... وتبكيهـــم منها عيون نراضـــــح

علـــــى قرية العباد مني تحبـــــه ... كمـــا فاح من مسك اللطيمة فائـح[3]

وجـــــاد ثرى تاج المعارف ديمـــة ... تغض بها تلك الربى والأباطـــح[4]

إليك شعيـــــب بن الحسين قلوبنـــا ... نوازع لكي الجسوم نـــــــوازح

سعيت فما قصوت عن نيل غايـــة ... فسعيك مشكور وتحيرك رابـــــح

---

[1] ساقية الرومي، قناة ماء جميلة المنظر تعرف اليوم بساقية النصراي.

[2] الطرف بالفتح: العين، وبالكسر الكري من الخيل.

[3] العباد جنوب تلمسان الشرقي، ومناظره من ابهج مناظر الشمال الإفرقي، واللطيمة نافخة المسك وسوق العطارين.

[4] يريد شيخ المصارف والصوفية أبا مدين شعيب بن الحسين دفين العباد.

وإن أنـــس لا أنس الوريط وقفـــة أنـــافح فيها روضة وأنـــاوح[1]

مطلا على ذاك الغدير وقد بـــدت لإنســان عيني من صفاه صفائـــح

أماؤك أم عيني عشبية صدقـــت عليـــه فينا ما يقول المكاشـــح

لئـــن كنت ملأنا بدمعي طافحـــا فإنـــي سكران بحبك طافـــح

وإن كان مهري في تلاعك سائحـــا فـــذاك غزالي في عبابك سابـــح

قراح غدا ينصب من فوق شاهـــق بمثـــل حلاه تستحث القرائـــح

أرق من الشوق الذي أنا كاتـــم وأصفـــى من الدمع الذي أنا سافح

وهو ينبؤك بحبه وشوقه إلى مسقط رأسه صدق في مدح أمراء سبتة :

تلمسان، لو أن الزمان بها يسخو منى من النفس لا دار السلام و لا الكـرخ[2]

وداري بها الأولى التي حبل دونهـــا مثار الأسى لو أمكن الخنق الكبـــخ[3]

وعهـــدي بها والعمر في عفوانـــه وماء شبابي لا أجين لا مطـــخ[4]

قـــرارة تهيام ومعنى صبابـــة ومعهد أنس لا يلذ به لطـــخ

إذا الدهـــر مثني العنان منهنـــة ولا ردع يثني من عنـــاني ولا ردخ[5]

ليـــالي أصغي إلى عذل عـــاذل كأن وقوع العذل في أذبي صـــخ[6]

---

[1] الوريط: من منتهزات تلمسان الشهيرة به شلالات وسباتين.

[2] دار السلام: يراد بها بغداد، والكرخ ربضها الشرقي.

[3] البخ: الضرب والشتم.

[4] أجين الماء: تغير لونه وطعمه، والمطخ الدنس.

[5] الردخ: ويقصد بذلك الزجر.

[6] صخ الصوت الأذن: أصمها.

معاهـد أنس عطلت فكأنـــها ظواهر ألفاظ تعمدها النســـخ
وأربـــع ألاف عفا بعض آيهـــا كما كان يعرو بعض ألواحنا اللطخ
فمن يك سكرانا من الوجد مـــرة فإنـــي منه طول دهري الملتـــخ[1]
ومـــن يقتدح زندا لموقد حـــذوة فزند اشتياقي لا عقار ولا مـــرخ[2]

وقد قال وهو يتذكر شبابه مقارنة بحاضره المشيب :

إن كنـــت تجهل أنـــي لا أرقـــد فاســـأل يخبرك السهى والفـرقـــد[3]
وإن اتهمتهمـــا - لبعض تشابـــه بينـــي وبينهما-فطفيك يشهـــد
ولقـــد أبيت الليل لا أدري بـــه سهـــرا كما بات السليم الأرمـــد
أوعـــى كواكبه وأرق صبحـــه والصبـــح أنأى من هواي وأبعـــد
فـــردا أكابد لوعتي وظلامـــه حتـــى يقدم لورده المتهجـــد
بـــان الخليط وبان قلبي إثـــره سحرا كما زعم الغراب الأســـود
وتبـــاينت أغراضنا وجسومنـــا فالجســـم يتهم والعزيمة تنجـــد
وكذاك ما صبحي الذين ألفتـــم إلا ســـراي وعزمتي والفـــرق
ونهضت لو وافي نهوضي قـــوة مني وســـاعدني الشباب المسعـــد
أودى صباي وغامض كماء معينـــة وذوي قضيـــب قوامي المتـــأود
وأتـــى المشيب يزورني متفقـــدا والشيـــب أبعض زائر يتفقـــد[4]

---

[1] ملتخ: سكران مختلط لا يفهم شيئا.

[2] العفار: شجر يتخذ منه الزند، المخ: شجر رقيق.

[3] السهي: كوكب خض، الفرقه: نجم قريب من القطب الشمالي.

[4] راجع: المنتخب النفيس من ثم أبي عبد الله ابن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور ص، 108.

ومن مشهور نظم ابن خميس قوله[1] :

عجبا لها أيزوق طعم وصالها ... من ليس يأمل أن يمر ببالها

وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... من ليس يأمل أن يمر ببالها

وأنا الفقير إلى تعلة ساعة ... منها، وتمنعني زكاة جمالها

لم ذاد عن عيني الكرى متألق ... يبدو ويخفى في خفي مطالها

يسمولها بدر الرجى متضائلا ... كتفاؤل الحسناء في أسمالها

وابن السبيل يحيى يقبس نهارها ... ليلا فتمنحه عقيلة مالها

يفتادني في النوم طيف خيالها ... فتصيبني ألحاظها بنبالها

كم ليلة جادت به كأنما ... زفت علي ذكاء وقت زوالها

أما عن ولعه بالافتخار بنسبه والإشادة بقومه فأنت واجده شائعا في مواطن من نظمه وهو الذي يقول[2] :

أنا بني قحطان لم نخلق لغة ... ير غباث ملهوف وضعة لاجي

بسيوفنا البيض اليمانية التي ... طبعت لحز غلاصم ووداج

وكفى بحجتنا وإقامة حجة ... وبركتنا من كعبة الحجاج

ولنا مفاخر في القديم شهيرة ... كالصبح في وضح وفي إبلاج

منا التبابعة الذين بباهم ... كانت تنيح جباه كل خراج

من يقتنح زندا فإن زنادهم ... في الجود وارحه بلا إخراج

أبوابهم مقترحة لضيوفهم ... أبدا بلا قفل ولا مزلاج

---

[1] المقري، نفخ الطيب، ج، 16 ص 368.

[2] المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، عمل عبد الوهاب بن منصور.

3- أبو عبد الله بن هدية :

التعريف به :

الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هديه القرشي[1]، كبير علماء بلده نباهة وجاها، وقوة في الحق، وصرامة. وكان أثيرا لدى سلطانه، قلده مع قضائه، كتابة سره، وأنزله فوق منزلة وزرائه، فكان يستشيره في تدبير ملكه، في كل الأمور. وكان أصيل الرأي، مصيب العقل، كاتبا بليغا ينشئ الرسائل المطولة، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ.

وفيه يقول ابن حمادو من شعراء تلمسان[2] :

لما رأوك هدية من ربهم سمروك بابن هدية فأجادوا

ومن نظمه الدال على فضله[3] :

إلهي مضت للعمر سبعون حجة جنيت بها مما جنيت الدواهيا

وعبدك قد أمسى رهين ذنوبه فجد لي برحمي منك نعم الدواهيا

وكان جميل الأخلاق، جم المشاركة، مفيد المجالسة، كان مرددا لقول الأستاذ أبي إسماعيل الطفرائي في معرض النصيحة والتنبيه والتذكرة[4] :

---

[1] من ولد عقبة بن نافع الفهري، نزل تلمسان سلفه قديما، توفي أواسط سنة 735هـ وشهد جنازته يومئذ أبو تاشفين. انظر: المقري، نفح الطيب ج، 5، ص234، يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1، ص 116، تاريخ قضاة الأندلس، الشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ص 134.

[2] يحيى بن خلدون نفس المصدر، ص، 116.

[3] نفس المصدر ص، 116.

[4] تاريخ قضاة الأندلس للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي، المالقي، ص، 135.

لا تطمحـــن إلى المراتب قبـــل أن تتكامـل الأدوات والأسبـــــاب
إن الثمـــــار تمر قبل بلوغهـــــا طمعـــا وهن إذ بلغن عـــذاب

من أعماله :

لما ظهر كتـاب "قضـاة الأندلـس" لأبـي الحسـن بـن عبـد الله بـن الحسـن النباهي[1] المالقي كان ضمن القضاة المترجمين قاضي تلمسان ابن هدية ومـن جملـة ما جاء في مآثره شرح رسالة ابن خميس وفي ذلك يقول: "...كاتبـا بليغـا ينشـئ الرسائل المطولة في المعاني الشاردة، ذا حظ وافر من علم العربية واللغة والتاريخ، شرح رسالة محمد بن عمر بن خميس الحجري استفتح أولها بقوله :

عجبـــا لها أيذوق طعم وصالهـــا من ليـــس يأمل أن يمر ببالهـــــا
وأنـــا الفقير إلى تعلة ساعـــــة منهـــا وتمنعني زكاة جمالهـــــا

إلى آخـر الرسـالة مـن نظـم ونـثر، شـرحا حسـنا أتـى فيـه بفنـون العلـم، وضـروب الأدب، بمـا دل علـى براعتـه، وكـان جميـلا، جـم المشـاركة مفيـد المجالسة..."[2]

وجل من ترجم لابن خميس، لم يتعرض لذكر هذا الشرح، فعد من قائمـة الكتب المفقودة، ولكن أخيرا حسب قول البحاثة في تاريخ الجزائر السيد المهدي البوعبدلي رحمه الله: "ومن حسن الحظ أن ختم المطاف بنسخة من هـذا الشـرح

---

[1] أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن الحسن الجزامي المالقي النباهي، وهو من أسـرة استقرت منذ أجيال عديدة بمدينة من أزهر مدن السـاحل الأندلسي، أعـني مالقـة فبهـذه المدينـة ولـد علـي النباهي في سنة 713هـ وبها درس، ثم رحل إلى غرناطة لاستكمال ثقافتـه الأدبيـة والفقهيـة، انظـر تاريخ قضاة الأندلس لصاحب الترجمة.

[2] تاريخ قضاة الأندلس، للشيخ أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي، ص، 134.

بإحدى خزائن بيوتات العلم بوادي بجاية، وأظهره صاحبه منذ سنوات قليلة فأمكنه الاطلاع عليه والاستفادة منه"[1].

ومن خلال هذا الشرح توضحت بعض المعالم من شخصية ابن هدية، وخاصة رأيه في الفلسفة ومعتنقي مذاهبها فقد أظهره عند شرحه لقول ابن الخميس: "وجأ جأ بها من قد ماء الحكماء كل أوحدى الأحوذية تحب إليه وتوضع ألخ" فقال: "والاشارة هنا بالحكماء القدماء إلى مثل من ذكره من متقدمي الفلاسفة الرؤساء لعنهم الله ولعن ذا الاهتداء بهديهم والاقتداء"[2] ثم وضع فصلا بسط فيه القول عن الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم عند شرحه لقول ابن الخميس في رسالته : "وتحت هذه الأستار مخدرات أسرار أضربها الأسرار، وطالما تكر معارفها الأنكار، ونقلت من صدور أولئك الصدور، إلى بطون هذه الأوراق، في ظهور فوق دفاتر فلسفيات معاني علومهم الرقاق"[3].

شرح ابن هدية هذه الفقرة بقوله: "والفلسفيات المنسوبة إلى أهل الفلسفة وقال ابن سيده الفلسفة الحكمة، وهو الفيلسوف وقد تفلسف، والفلسفة عند أهل السنة وكافة الأشعرية عبارة عن الزندقة البحتة والضلالة المحضة والكفر الواضح الناشئ عن منطلق الخلاف الواضح، وعلومها تنقسم إلى الغرض المطلوب منها ستة أقسام: رياضية ومنطقية وطبيعية، إلاهية وسياسية وخلقية بينهما الإمام أبو حامد رحمه الله في بعض تصانيفه وبين آفاتها فأغنى ذلك عن

---

[1] المهدي البولمبدلي – الأصالة، العدد، 50/49، ص 7.

[2] المهدي البوعبدلي، الأصالة، العدد 50/49، ص، 7.

[3] نفس المصدر، ص 8.

تبيينها هنا إذ فيه خروج عن الغرض المشترط، وكذلك ينقسم أرباب أصنافها على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم وتشعب طرقهم. ثلاثة أقسام :

الدهريون والطبيعيون والالاهيون وكلهم زنادقة، كفار لعائن الله تثرى عليهم"[1].

وهذا الشرح المفيد أنار لنا الجوانب الغامضة من حياة ابن خميس، وهذه فقرات من تقديم ابن هدية في شرحه بين فيها الظروف التي أقدم فيها على تأليفه، حيث قال "أما بعد فإن من الزمنا الله تعالى للأمر طاعته، وفرض على كل أمره مؤتمر له منها استطاعته، أضفى الله علينا وارف ظله، وأضفى له عوارف فضله، وطلب طلبته مثله أمر ممتثل، ثم أمر وأمر، وأمر الأمير[2] حكم محكم وعمل صالح عند أهل العلم معتمل، أن تضمن له بتبيين معاني الألفاظ اللغوية، وتعيين ما يعني من إشارات الأغراض التاريخية، من رسالة الشيخ الأستاذ الأديب أبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس الحجري ذي رعين الحميري التي كتب بها إلى مشرف مدينة فاس: أي الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري[3] شاكرا له ومثنيا عليه، وشاكيا له عصابة أساءوا تعصبا بزعمه

---

[1] نفس المصدر ، ص 8.

[2] السلطان الذي أمر وأرغمه على هذا الشرح أبو تاشفين الأول وفي عهده احتل الملك أبو الحسن المريني مدينة تلمسان، رفض الملك أبو تاشفين الاستسلام. وقاوم إلى أن قتل في المعركة كبقية أفراد جيشه.

[3] اسم المخاطب في الرسالة، هو مشرف مدينة فاس: أبو الفضل محمد بن يحيى بن عتيق العبدري، الذي ترك بعض من حاول شرح هذه الرسالة في متاهات من الافتراضات والاستنباطات

إليه، ضمنها منظوما ومنثورا، وأودعها مثورا ومأثورا، صعد في ذلك وصوب، وخطأ وصوب، وعلا وسفل...الخ"[1].

وبعد أن بين ابن هدية المنتسبين لهذه الأقسام الثلاثة، ورد بعضهم على بعض، ختم فصله بقوله: "فوجب تكفيرهم وتكفير شعثهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وغيرهما من المهتدين بهديهم المقتدين برأيهم، عليهم لعنه الله أجمعين"[2].

هذه فقرات مختصرة من شرح ابن هدية القرشي للاستدلال على رأيه في الفلاسفة ومذاهبهم.

كما أفادنا ابن هدية في شرحه عن محاكمة ابن خميس في مدينة فاس وهذا النوع من المحاكمة التي سيق إليها ابن خميس وصادف تلك المحاكمة وجوده في مدينة فاس وقد كان ابن هدية علاوة على رأيه في الفلسفة والفلاسفة الذين يحكم عليهم جزافا بالكفر والزندقة، يحتقر ابن خميس ويهينه، ومن ذلك رده عليه عند شرحه لبيته الذي قال فيه :

وإذا انتسبت فإنني من دوحة تقتيل الأنساب برد ضلالها

قال ابن هدية في شرحه: "... وهذا غلو مفرط وكذب مورط وكذا لعمري كل ما تقدم من قوله جرا هذا المجرى"[3].

---

[1] أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني 650-708 -1253-1309م، للباحث المهدي أبو عبدلي الأصالة، العدد49، 50، ص 3،4،5.

[2] المهدي أبو عبد لي، نفس المصدر، ص، 9.

[3] المهدي البوعبدلي، المصدر السابق ، 8، للتفصيل راجع ابن مريم المصدر السابق: ص، 225، المقري: نفخ الطيب ج، 7، ص 158، 159، الحفناوي: المصدر السابق :ج2 ص 549 – 550.

العلوم الطبيعية :

و تشمل علم الفلك و الرياضيات و الطب و الكمياء و غيرها و قد انتشرت هذه العلوم بالمغرب الأوسط انتشاراً كبيراً. و قد عني بها الكثير من العلماء و لكن قد نبغ بعض العلماء في هذا المجال و فاقوا غيرهم و من أشهرهم:

أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي :

حياته :

الآبلي هو أبو عبد الله ، محمد بن ابراهيم بن أحمد ، و قد إشتهر بهذه النسبة التي تدل على أنّه أندلسي الأصل ، من مدينة (آبلة) ، إلى الشمال من (مجريط) – أو (مدريد) كما يطلق عليها الآن – و هي من مدن الثغور العليا في الأندلس . و بسبب موقعها هذا تعرضت لما تعرضت له الثغور عامة و مدن الأندلس الكبرى من هجمات النصارى في محاولتهم المستميتة استرداد الأندلس و إجلاء المسلمين عنها و خاصة بعد موقعة (العقاب) التي انتصر فيها النصارى على المسلمين[1].

و كانت منطقة الثغور هذه التي ينتسب إليها (الآبلي) هي الثغرة التي تدفقت منها أحقاد العدو ، و مضى يهاجم المسلمين الذين استطاعوا أن يصمدوا له لولا أن عوامل الفرقة كانت تدب في أوصال أمرائهم ، و بالتالي تمكن العدو منهم و تبدأ مدنهم تسقط الواحدة تلو الأخرى ، و تتهاوى

---

[1] التعريف بابن خلدون – ص 633 ، ابن مريم المصدر السابق، ص 214 ، الحفناوي ، المصدر السابق، ج 1 ، ص 93

حصونهم و يتسلل الرعب و الفزع إلى النفوس ، و لا يجد القوم غير الفرار و إخلاء الديار.

و هكذا توالت حركات الهجرة نحو بلدان المغرب العربي.

و كان ممن هاجروا الآبلي ابراهيم و عمه أحمد. و قصدا في هجرتهما مدينة تلمسان ، فاتخذاها موطنا لهما، و مجالاً لأسباب عيشهما، في كنف أميرها إذ ذاك يغمراسن بن زيان[1].

الذي وجد في بعض مهاجرى الأندلس ، و خاصة هؤلاء القادمين من بلاد الثغور و قد تمرسوا بفنون القتال و حياة الجندية ، ما يمكن أن يكون عونا له فيما هو بسبيله ، و هكذا كان ممن اصطنعهم لذلك ابراهيم و أحمد والد (الآبلي) و عمه.

و لكن إبراهيم هذا الذي اتخذ الجندية حرفة له كان قد أصهر إلى أحد رجال العلم في تلمسان، و هو القاضي محمد بن غلبون ، إذ تزوج ابنته فولدت له محمداً.

إذا كانت حياة الجندية هذه أقتضته أن يترك أسرته و يفارق ولده و مضت به إلى ميادين القتال ، فقد كان من الطبيعي أن تلوذ هذه الأسرة بالقاضي، و ينشأ الولد في كفالة جده، بعيداً عن ذلك الجو الذي يعيش فيه أبوه، جو الحياة العلمية، و بذلك اختلفت وجهته في الحياة عن وجهة أبيه، إذ

---

[1] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 34 ، ابن مريم المصدر السابق، ص 214 ، الحفناوي ، المصدر السابق، ج 1 ، ص 93 – 94

نشأ له بذلك كما يقول ابن خلدون : "ميل إلى إنتحال العلم و عن الجندية التي كانت منتحل أبيه و عمه" ولد سنة 681 هـ[1].

و كانت تلمسان في ذلك الوقت تعد موطنا للعلوم العقلية ، و كان من بين فنونها ما كان يطلق عليه اسم (التعاليم)، و هي : كما يقول ابن خلدون في المقدمة : العلوم الناظرة في المقادير، و هي : علم الهندسة و علم الإرتماطيقي، و علم الموسقي و علم الهيئة".

هذا هو الجو الذي كان يسود تلمسان حين شب الآبلي ، و قد كانت البيئة العلمية التي نشأ فيها قد أحاطته بما جعله متفتح العقل ، يقظ الفكر شديد التطلع ، فأقبل عليها ينهل من شتى فنونها ، يستكمل ما كان بدأه في مجالس جده.

و سرعان ما بدأ يستهويه النشاط العلمي الذي يسمى بالتعاليم و يبلغ فيه منزلة أجلسته مجلس المعلم لها ، و هو ما زال صغير السن ، كما قال ابن خلدون عنه : "فلما يضع و أدرك ، سبق إلى ذهنه محبة التعاليم، فبرع فيها و اشتهر ، و عكف الناس عليه في تعلمها و هو في سن البلوغ"[2].

رحلته إلى الشرق :

و لكن نتيجة تفاقم الخصومات بين بن عبد الواد و بني مرين أثرت على حياة محمد بن ابراهيم و هذا بحكم الجندية التي كان يقوم بها أبوه و المكان

---

[1] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 34 ، ابن مريم – المصدر السابق، ص 214 ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1 ، ص 17 ، الحفناوي ، المصدر السابق، ج 1 ، ص 94

[2] التعريف بابن خلدون ، ص 34 ، ابن مرزوق ، المسند، ص 147

الذي يحتله منها و خاصة عندما ضرب الحصار على تلمسان في عهد يوسف بن يعقوب المريني.

حيث بدأت حياته تضطرب ، و هذا لإضطراب بلغ أعماقه ، عندما ترددت الأنباء أن أباه أسر من طرف الجيش المريني[1].

ثمّ ترددت شائعة بين أهل تلمسان تزّعم أن سلطان يوسف بن يعقوب لا يرى مانعا في أن يطلق سراح من اعتقلهم ، على أن يأخذ أبناءهم رهائن عنده، فحركته غريزة الأبوة و اتجه نحو أسوار تلمسان يتسورها ، و يلتمس لنفسه الطريق نحو السلطان[2].

و لكن لم يتحقق للآبلي ما غادر من أجله مدينة تلمسان متسوراً أسوارها، مخاطراً بنفسه قصد إطلاق سراح أبيه باسترهان نفسه لدى السلطان، و قد بلغ مجلسه و تقدم إليه يرجوه في شأنه و لكن بدون نتيجة.

غير أن السلطان توسم فيه و هو يحادثه في شأن أبيه قابليته للعمل عنده، فعرض عليه أن يكون قائداً للجند الأندلسيين في بعض المناطق.

فلم يستطع أن يمتنع للسلطان رغم كونه غير هيء لهذه الوظيفة فقبلها على مضض ، و لم يلبث أن ضاق به و كره المقام عليه ، فجعل يتحين الفرص ليتخلص منه[3].

---

[1] التعريف با بن خلدون ، ص 34 ، البستان ، ص 214 ، يحيى ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 1، ص 17.

[2] عبد الرحمن بن خلدون المصدر السابق، ص 34

[3] عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر ، ص 34 ، 35 ، يحيى بن خلدون ، المصدر السابق، ص 17

و مع مجيء موسم الحج، رأى في ذلك فرصة يجب إغتنامها، فاتخذ زي الفقراء و أدرج نفسه في جملتهم، و سار متخفيا بينهم حتى بلغ معهم (رباط العباد)، خارج مدينة تلمسان، و هناك لقي بينهم رجلاً من أهل كربلاء، يزعم أنه من بني الحسن بن علي، وفد على المغرب ليكون داعية شيعية، و لّما رأى أن الجو السائد في هذه البلاد لا يسمح له بذلك أصر على الرجوع، فوجد (الآبلي) في ذلك فرصة لمرافقته بين أصحابه و اتباعه ، فمضى معهم إلى أن وصلوا مدينة تونس، و من هناك أخذوا طريق البحر إلى الأسكندرية. و بذلك إستطاع أن يخلص من قبضة السلطان المريني المحاصر لمدينة تلمسان، و لكنه لم ينتج من هذه الرحلة بسلام فقد عانى منها نفسيا و ماديا الشيء الكثير، حيث أرهقت أعصابه و زلزلت كيانه ، فبمجرد ركوبه في السفينة المبحرة للأسكندرية حتى أصابه مرض في أعصابه ، و رغم العقاقير التي تناولها فقد زاده المرض، و وصل مصر و هو يعاني هذه المحنة العقلية . و قد فاته بسببه عدم لقائه علماءها منهم على الخصوص : ابن دقيق العيد، ابن الرفعة، و صفي الدين الهندي، و غيرهم من فرسان المعقول و من مصر اتجه مع مرافقه إلى الحجاز حيث أدى معهم فريضة الحج و بعد أدائه فريضة الحج عاد إلى تلمسان و قد ذهب عنه المرض و قدرت هذه الفترة من حياته بأربع سنوات[1].

و لأن عودته إلى تلمسان و قد تحررت من ذلك الحصار ، و برئت من تلك الأهوال التي عانتها ، و رؤيته لها و قد عاد إليها هدوءها، و إطمأنت الحياة

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ص 35 – 36 ، ابن مرزوق ، المسند، ص 147، يحيى بن خلدون ، المصدر السابق، ص 17 ؛ ابن مريم المصدر السابق ، ص 214 ، الحفناوي المصدر السابق، ج 1 ، ص 194.

فيها ، و وقع الصلح بين صاحبها أبي زيان و سلطان المغرب ، أبي ثابت المريني، كان كافيا لتذهب عنه تلك الغشاوة التي غشيت قواه العقلية أثناء رحلته.

فعاد من جديد إلى الدراسة ، حيث قرأ المنطق على أبي موسى ، عيسى ابن محمد بن الإمام ، كما قرأ عنه جملة من المعارف ، خاصة علوم الفقه و الكلام.

و نظراً لما إشتهر به من قبل و ما زال الناس يذكرونه من حذقه لفنون التعاليم و براعته في الحساب. وصل خبره إلى أبي حمو ، ملك تلمسان إذ ذاك. و كانت دولته توسعت و تعقدت بذلك شؤونها. فاحتاج إلى من يضبط أمورها فعرض هذا على الآبلي ، فضاقت نفسه بذلك و لذلك فرَّ من أبي حمو و لحق بفاس[1].

رحلته إلى الغرب :

كان الآبلي في نحو السابعة و العشرين من عمره حين قرر الفرار من تلمسان و النجاة بنفسه من هذا المنصب الذي عرضه عليه أبو حمو في ديوانه ليضبط أمواله.

و هكذا اتجه نحو مدينة فاس و مع وصوله إليها ، تبدأ مرحلة جديدة في حياته قدرت نحو أربعين سنة ، قضاها في المغرب الأقصى ، في مواطن مختلفة

---

[1] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 36 – 37 ، ابن مريم، المصدر السابق ، ص 214 – 215 ، ابن مرزوق، المسند ، ص 147 ، الحفناوي ، ج 1 ، ص 94.

منه، يعيش للعلم يطلبه[1].

و تقع هذه الفترة في عهود ثلاثة من سلاطين بني مرين : أبي الربيع، سليمان بن عبد الله أبي عامر الذي ولى المغرب ما بين 708هـ - 716هـ، و أبي سعيد ، عثمان بن عبد الحق الذي خلفه ، و التي امتدت ولايته إلى 731 هـ و ابنه أبي الحسن على إلى أن مضى معه ، سنة 748 إلى إفريقية[2].

و كان فرار الآبلي من تلمسان متجها إلى المغرب الأقصى ، تاركاً ما أسنده إليه أبو حمو من وظيف ، قد أغضبه و جعله يرسل في طلبه و خاصة بعد تحسن العلاقات بين تلمسان و فاس ، بمعاهدة السلام التي عقدها أبو الربيع معه، فكان على الآبلي أن يبحث على ملجأ يلجأ إليه و يتوارى فيه ، حتى يهدأ الطلب . فاتخذ من دار رجل من يهود فاس هذا الملجأ و هذا الرجل هو (خلوف المغيلي) الذي يصفه بن خلدون أنه شيخ التعاليم بهذه المدينة[3].

و ربّما الأسباب التي قادت الأبلي إلى هذا اليهودي ، هو ما كان لليهود عامة في فاس من منزلة ظاهرة لدى القصر . و هي منزلة بلغوها منذ أيام السلطان يوسف بن يعقوب.

---

[1] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 37، ابن مريم البستان ، ص 215 ، يحيى بن خلدون : المصدر السابق، ج 1 ، ص 17 ، ابن مرزوق ، المسند ، نفس المصدر ص 147 ، الحفناوي ، ج 1 ، ص 94.

[2] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 38، ابن مريم البستان ، ص 215 ، يحيى بن خلدون : المصدر السابق، ج 1، ص 18 ، ابن مرزوق : نفس المصدر ص 148.

[3] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 87، ابن مريم البستان ، ص 215 ، يحيى بن خلدون : المصدر السابق، ج 1، ص 17 ، المقري : نفح الطيب ،، ج 5 ، ص 244 ، الحفناوي : المصدر السابق، ج 1 ، ص 94.

فقد كان (خلوف المغيلي) بانتمائه إلى هذه الطائفة التي تملك الدهاء و الحنكة و الحذر ما يجعلها تحكم التدبير و تحسن التأتي للأمور، و الذي يتمتع بهذه المنزلة ، جديراً أن يوفر له من الأمن و الطمأنينة ما يرجوه ، و أن يحميه من ملاحقة أبي حمو له. ثم هو فوق هذا جدير أن يهيء له بأستاذيته في فنون التعاليم في مقامه بداره ، من الجو العلمي ما يتطلع إليه، إذ يستطيع أن يتابع عليه دراسة هذه الفنون التي استهوته و شغفته، و تدعوه ، في إلحاح ، إلى مواصلة درسها و معالجة قضاياها.

و من فاس اتجه إلى مراكش و ربّما يكون أكثر أمنا و أوفر طمأنينة، و أن يتجنب ما كانت تضطرب به فاس و ما حولها من فتن ، أواخر عهد السلطان أبي الربيع سنة 710 هـ . و السبب الأوفر هو أن يتوغل أكثر في درس فنون التعاليم على شيخها أبي العباس بن البناء ، الذي يجمل ابن خلدون صفته في قوله عنه : "شيخ المعقول و المنقول، و المبرز في التصوف علماً و حالاً [1].

و لكن إذا كان مجلس ابن البناء قد أفاض على الآبلي من طمأنينة النفس و سكينة الضمير ما هو في حاجة إليه ، فإن مراكش نفسها لم تلبث أن أخلفت ظنه حيث بدأت تضطرب ، في السنوات الأولى من عهد السلطان أبي سعيد من حركات مناهضة له متمردة عليه . و كان يتولى هذه الحركات بعض الهساكرة المقيمين بها.

---

[1] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 37 ، ابن مرزوق ، نفس المصدر ، ص 147 ، يحيى بن خلدون : البغية ، ص 17 ، ابن مريم البستان ، ص 215 ، الحفناوي : المصدر السابق، ج 1 ، ص 95 ، المقري : نفح الطيب ، ج 5 ، ص 244.

و كان هذا الوضع لا يتفق مع طبيعة الآبلي الوادعة ، و حاجته إلى السكينة و الطمأنينة ، و البعد عن كل ما يعكر الصفو و يبعث القلق.

لقد حققت له مراكش ما كان يرجوه ، من لقاء ذلك النموذج الإنساني الرائع ، متمثلاً في ابن البناء ، و الجلوس إليه ليمتع عقله و وجدانه بأحاديثه، و ينير بصيرته يتدارك ما فاته من فنون المعرفة المختلفة ، و خاصة العلوم العقلية[1].

و بعد الدعوة التي وجهها له شيخ الهساكرة بالجبل ، علي بن محمد بن ترروميت، فلم يتردد الآبلي في قبول دعوته ، ليكون في منأى عن الفتن ، و ليغمر نفسه بالسكينة و يوفر له الجو الملائم للدرس و التأمل و النظر، فصعد إليه، و أقام عنده مدّة قرأ عليه فيها ، فحقق الآبلي ما كان يرجوه من هذه الدعوة، و لقي حضوة كبيرة عند أبن ترروميت، و مودة صادقة، و رغبة في التحصيل، أثلجت صدره و رفعت من شأنه بين أبناء الجبل، فأقبل عليه طلاب العلم يجلسون إليه و يأخذون عنه العلم. و تبوأ مكانه للمرّة الأولى ، بعد عهد الشباب في تلمسان، أستاذاً كبير المنزلة، ذائع الصيت، و بذلك نعتبر تحول الآبلي إلى الجبل و مقامه به يعد معلماً من معالمه البارزة ذات الأثر البعيد في مسيرة حياته العلمية[2].

و هذا يؤكده يحيى بن خلدون في كتابه (البغية) ، عن هذه الفترة من حياته إذ يقول منوهاً باتجاهه العلمي، و منزلته بين علماء عصره "و استقر بجبال

---

[1] انظر : التعريف بابن خلدون ، ص 37 ، يحيى بن خلدون : البغية ، ص 17 ، ابن مريم البستان ، ص 215، المقري : نفح الطيب ، ج 5 ، ص 244 ، الحفناوي : المصدر السابق، ج 1، ص 95.

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، ص 37 ، ابن مريم، ص 215 ، الحفناوي : نفس المصدر، ج1 ، ص 94.

الهساكرة، عند علي بن محمد بن ترواميت، و كان طالبا للعلم ، جماعاً للكتب، فعكف عنده على النظر ، إلى أن أفاق أهل زمانه في العلوم العقلية بأسرها، حتى إني لا أعرف بالمغرب و افرقية فقيهاً كبيرا إلا و له عليه مشيخة"[1].

و مهما يكن من أمر ، فقد كانت إقامته هذه في الجبل ، بعيداً عن لفتن و أسباب القلق التي كانت تضطرب بها مراكش، و الحفاوة التي تلقاها من أهله، و ما حققه لنفسه من تحصيل للعلم، ترشيحاً لإقامته بعد ذلك في فاس ، مركز الحياة العلمية في المغرب الأقصى ، و أحد المراكز الكبرى في المغرب الإسلامي و العالم الإسلامي أستاذاً موفور الجلال ، تعرف الدولة قدره ، و يسعى إليه أهل العلم و طلابه من كلّ جهة[2].

و أخيراً يغادر الجبل ضمن خطة رسمتها الدولة إزاء الهساكرة للقضاء على فتنهم التي يثيرونها عليها ، و من هذه الخطة أن تستنزل شيخهم المقيم بالجبل، علي بن ترواميت ، لتقيمه معها في فاس محترماً و يمكن مراقبته بعيونها، فنزل و معه الآبلي.

ها هو ذا يعود إلى فاس من جديد أستاذاً ناضج الشخصية ، ثابت القدم، في العقد الرابع من عمره ، "فانهال عليه طلبة العلم من كلّ جهة ، فانتشر علمه، و إشتهر ذكره[3].

---

[1] يحيى بن خلدون ، المصدر السابق ، ج 1، ص 120

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، ص 37 ، يحيى بن خلدون ، المصدر السابق، ج 1 ، ص 120 .

[3] عبد الرحمن بن خلدون نفس المصدر ، ص 37 ، ابن مريم ، نفس المصدر ، ص 215 ، الحفناوي المصدر السابق، ج 1 ، ص 94

و استقّر بفاس للتدريس ، و قد اصبحت مجالسه مهوى قلوبهم.

و تخرج عنه أجيال من أهل العلم على مستوى المغرب الإسلامي كلّه و من هؤلاء الذين تخرجوا عليه في هذه الفترة من صاروا من الأعلام المرموقين الذين يحتلون في الحياة العلمية مكاناً رفيعاً ، كأبي عبد الله ، محمد بن محمد بن الصباغ[1]، و قد ذكره ابن خلدون في التعريف به : إنه "من أهل مكناسة ، كان مبرزاً في المنقول و المعقول ، و عارفاً بالحديث و رجاله ، و اماماً في معرفة كتاب الموطأ و اقرائه، أخذ العلم عن مشيخة فاس و مكناسة، و لقي شيخنا أبا عبد الله الآبلي و لازمه، و أخذ عنه العلوم العقلية ، فاستنفذ-طلبه عليه، و اختاره السلطان لمجلسه، و لم يزل معه إلى أن هلك غريقاً في ذلك الأسطول"[2].

و قد بدأت صلة الآبلي بالسلطان منذ عهد أبي الحسن على ابن أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني ، و لكن على وجه غير ذلك الوجه الّذي أريد له غير مرة ، فأثار كراهيته و نفوره و فراره نحو المشرق مرة و نحو المغرب مرّة أخرى.

إنّها اليوم صلة العلم، منذ أن إختاره السلطان أبو الحسن لعضوية المجلس العلمي[3] الذي أراده أن يتألف من صفوة العلماء، و كان إختيار أبي الحسن له فور عودته، سنة 737 هـ من الحملة التي قادها لفتح تلمسان، و بعد أن حقق

---

[1] هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن الصباغ ، مكناسي الأصل ، كانت له معرفة جيدة بعلم الحديث، و كان متضلعاً في التعاليم ، أخذها عن الآبلي ، توفي أيضاً أثناء غرق أسطول أبي الحسن المريني ، قرب ساحل تونس.

[2] عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، ص 46.

[3] انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، ص 37 ، ابن مريم ، ص 215 ، ابن مرزوق ، نفس المصدر، ص 147 ، نفح الطيب، ج 5 ، ص 244 ، الحفناوي ، نفس المصدر ، ج 1 ، ص 94.

نصره، دخل تلمسان و استدعى إليه شيوخ الفتيا فيها، فكان ممن وفد عليه "الإمامان الشهيران ، أبو زيد عبد الرحمن و أبو موسى عيسى ، ابنا الإمام."

و كان ثانيهما أستاذ الآبلي في تلمسان حين عاد إليها من المشرق، و استأنف فيها حياة الدرس. فإذا كان الحديث بين أبي الحسن و بينه حول مشروع المجلس العلمي الذي كان يراوده و يدور في خاطره، تذكر تلميذه الآبلي ، فلم يلبث أن ذكره له بأطيب الذكر ، و وصفه بالتقدم في العلوم، و لهذا بمجرد عودته إلى المغرب استدعاه من مكانه بفاس و ألحقه في طبقة العلماء بمجلسه ، و لهذا فحديث أستاذه ابن الإمام عنه هو الذي رشحه لعضوية هذا المجلس ، و هيأ له الصلة بينه و بين السلطان أبي الحسن[1].

و منذ ذلك لازم صحابة أبي الحسن حتى أنه حضر معه واقعة طريف. و هي الواقعة التي وقعت سنة 740 هـ ، حيث انهزم فيها سنة 741 هـ.

و عندما اعتزم أبو الحسن بعد ذلك بسبع سنين أن يمضي إلى افريقيه كان الآبلي معه في مسيرته بين أعضاء مجلسه[2].

و انتهت بذلك هذه المرحلة التي ناهزت الأربعين عاما، و اعتبرت مرحلة مقاومة في المغرب ، بين فاس و مراكش و جبل الهساكرة، و من هذا السياق نرى أن المغرب الأقصى كان كبير الأثر في انضاج شخصيته، و إبراز ملامحه، و تقوية نوازعه ، لا بمن كان يضمه من العلماء و أهل الفكر ، و لا بما تحول إليه فيه من أستاذية مرموقة ، و لا بما أصاب فيه من شهرة ذائعة وصيت بعيد، و لا

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، 37 ، ابن مرزوق ، نفس المصدر ، 147 ، الحفناوي نفس المصدر ج 1 ص 94 ، ابن مريم ، نفس المصدر ، ص 215.

[2] انظر : التعريف بابن خلدون ،ص 38 ، ابن مريم ، نفس المصدر ، ص 215

بما كان له أن يصبح عضواً كبير المكانة في المجلس العلمي الذي شكله السلطان أبو الحسن ، فحسب بل ساعده المغرب أن يطلع على ما كان يضمه من ميراث الأندلس و ذخائره، و قد وجد الآبلي بنوازعه العلمية ، و مزاجه العقلي، و تطلعه إلى آفاق المعرفة المختلفة في فاس زاداً عقلياً متجدداً يمد حاجاته الروحية و العلمية.

و بعد هذه المرحلة الطويلة الحافلة في حياة أبي عبد الله الآبلي بدأت مرحلة أخرى بمضي السلطان أبي الحسن إلى تونس ، مستصحبا مجلسه العلمي، و كان الآبلي ضمنه ، بل أبرز أعضائه و أوثقهم بالسلطان صلة.

و منذ أن بلغ تونس ، سنة 748 هـ وقعت صلته بآل خلدون ، و لم تلبث هذه الصلة أن توثقت ، و كانت هي التي مهدت لإبن خلدون سبيله إليه، فاتخذه أستاذاً له ، فكان من أخلص تلاميذه و أصدق مريديه.

و قد قال في هذا الشأن ابن خلدون : "... و كانت قد حصلت بينه و بين والدي ، رحمه الله صحابة كانت وسيلتي إليه في القراءة عليه . فلزمت مجلسه ، و اتخذت منه ، و افتتحت العلوم العقلية بالتعاليم ، ثم قرأت المنطق و ما بعده من الأصلين ، و علوم الحكمة. و عرض أثناء ذلك ركوب السلطان أساطيله من تونس إلى المغرب . و كان الشيخ في نزلنا و كفالتنا فأشرنا عليه بالمقام ، و ثبطناه عن السفر ، فقبل و أقام.

و طالبنا به السلطان أبو الحسن ، فأحسنا له العذر ، و تجافى عنه. و كان من حديث غرقه في البحر ما قدمناه . و أقام الشيخ بتونس، و نحن و أهل بلدنا جميعاً نتساجل في غشيان مجلسه و الأخذ عنه"[1].

---

[1] انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، ص 38

و ما يمكن استخلاصه من كلام ابن خلدون :

- نشاطه العلمي في هذه المرحلة ، مجالس العلم التي كانت تتميز بقوة الجاذبية بحيث كان أهل تونس جميعاً يتساجلون في غشيانها.
- و كان نشاطه العلمي الأوّل اهتمامه بالعلوم العقلية (التعاليم و المنطق و علوم الحكمة).
- و قد أتاح له هذا الجو العلمي بروز نزعته العلمية و مؤاثرته البقاء بين تلاميذه على أن يصحب السلطان في رحلته عن مفادرته افريقية و تكليف تلاميذته بالإعتذار عند السلطان بدله.

و بانتهاء عهد أبي الحسن بغرق الأسطول الذي أراد أن يعود به من افريقية إلى المغرب ، بعد موقعه القيروان ، بدأ عهد جديد بقيام ابنه أبي عنان بالأمر من بعده ، و مسيرته إلى تلمسان ليستردها من بني عبد الواد حتى تم له ذلك سنة 753 هـ ، فقد كان أول ما عني به استقدام أبا عبد الله الآبلي من افريقية ، ليأخذ مكانه في مجلسه العلمي ، و قد بلغ حرصه به ، أن جعل دعوته أياه في كتاب خاص بعث به إلى سلطان تونس ، أبي اسحاق الحفصي ، يستأذنه في استقدامه إليه ، مع رسول خاص ، كما وجه إليه أسطوله الخاص ليعود به[1].

هذا بالإضافة إلى ما كانت تثيره تلمسان في نفسه من روح الحنين.

فهذه المدينة هي مسقط رأسه و مسرح صباه و شبابه ، و مبعث ذكرياته، و إن كان قد خرج منها مرتين خائفاً يترقب ، فارا بنفسه من عمل يراد إكراهه عليه ، لأن طبيعته تأباه ، فإنه بعودته يعود إليها و قد حقق ما كان يداعب

---

[1] انظر : عبد الرحمن بن خلدون ، نفس المصدر ، ص 38 – 39 ، ابن مريم نفس المصدر ، 215 ، ابن مرزوق، نفس المصدر ، ص 148 ، الحفناوي ، نفس المصدر ، ج 1 ، ص 95.

أحلامه منذ كان في كفالة جده ، عالماً مرموقاً لا يشغله شيء غير العلم ، يردد المغرب الإسلامي كله اسمه ، و يتطلع طلابا الجلوس إليه و التعلم عنه.

و هكذا غادر االآبلي تونس ، و ينهي بذلك هذه الفترة من فترات حياته و يترك تلاميذه يتأسفون خاصة عبد الرحمن بن خلدون ، و يمضي مع رسول السلطان في الأسطول الذي يتجه به إلى تلمسان.

و بمجرد وصوله تلمسان و قدومه على السلطان أبي عنان فقد أحله محل التكريم و الإحترام، و ضم في طبقة أشياخه من العلماء. و قد بقي في تلمسان ببقاء أبي عنان فيها ، و رحل عنها برحيله إلى فاس ، فاستأنف فيها حياته العلمية ، إلى أن وافاه أجله ، سنة 757 هـ عن سن يناهز 76 سنة[1].

مكانة الآبلي العلمية :

كان الآبلي على حد تعبير المقري الجد من الصدر الأوّل من العلماء أي من العلماء الذين يفرون من السلاطين و هم يطلبونهم. لقد فرَّ الآبلي من السلطان يوسف المريني ثم من السلطان أبي حمو موسى العبد الوادي ذلك لأنهما رغبا في استغلال مهاراته و كفاءاته لمصلحة السلطة. و إذا كان قد لازم مجلسا أبي الحسن المريني و ابنه أبي عنان فلأنهما مكناه من القيام لما كان يرغب فيه ، من تبليغ المعرفة لمن يرغب فيها ، لقد آمن أن للعالم رسالة هو مرغم على تأديتها تأدية كاملة لجيله ، رسالة من شأنها إبقاء شعلة العلم قائمة و مضيئة

---

[1] ذكر ابن مرزق في المسند ، أنه توفي في حدود 756 هـ ، و دفن ما بين المدينة البيضاء و فاس و حضر السلطان جنازته ، راجع المسند، ص 147.

أمّا ابن خلدون ، فيذكر أنه توفي سنة 757 هـ ، راجع التعريف ، ص 39.

أمّا يحيى بن خلدون فقد ذكر في بغيته ، أنّه توفي بفاس سنة 757 هـ في شهر ذي القعدة.

و لتنفيذ خطته انصب اهتمامه على التعليم فالتعليم في نظره و في نظر العديد من العلماء المسلمين السابقين عنه و اللاّحقين به هو أنجع وسيلة لتأدية الرسالة المنوطة بالعلماء.

و قد وصف الآبلي بالرجل الفطن ، الكثير الإطّلاع ، و الحفظ[1] و البارع في حل الألغاز و تصويب التصحيف.

طرق التعليم عند الأبلي :

يفرق الآبلي بين مستولين في التبليغ ، هناك منهجية خاصة بالحلقة و منهجية خاصة بالمشافهة . فالأولى موجهة للعامة من المتعلمين و الثانية تستخدم عند توجيه الخطاب للنوابغ من المتعلمين.

أ- منهجية الحلقة :

استعمل فيها الآبلي الطريقة الإلقائية و يشترط على المتعلم سلوكا ضابطا لسير الدرس.

و تتضمن هذه الشروط من جهة أخرى إصغاء المتعلم لما يتلفظ به المعلم و التركيز كلية عليه ، طريقة تيسر للمعلم التحكم في سيرورة الدرس من جهة أخرى ، فهي تفرض على المعلم التحضير المسبق و الدقيق لما يلقيه على طلاب العلم ، و هو بذلك لا يدع مجالاً للصدفة و الإرتجال.

---

[1] نفح الطيب – ج 7 . ص 245 ، انظر نفس المصدر ، ص 246. كتاب عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص 1024 ، نيل الإبتهاج لأحمد بابا ، ص 419 ، البستان لابن مريم ص 216 ، تعريف الخلف برجال السلف للحفناوي ، ص 105.

و كانت طريقته في معالجة المواضيع ترتكز على إلقاء محاضرة ، و كان يصوغ المعلومات في قالب حواري و في إطار منهجي واضح ييسر الفهم : فهو يطرح الإشكال ، ثمّ يضع الفروض ، ثمّ يحلل حتى يتسنى له تبني موقفاً.

فكان الآبلي بهذه الطريقة يثير اهتمام المتعلم فيتتبع الدرس بكل تفاصيله دون كلل ، و هو بذلك يقضي على سلبية الطريقة من حيث عدم مشاركة المتعلم خلال الدرس.

إن الآبلي استدرك هذا النقص بتقديم المعارف كبناء فكري، و هو الأمر الذي جعل المتعلم عنصراً يشارك في الدرس بكل قدراته العقلية، و بكل جوارحه ما عدا لسانه و صوته.

ب- منهجية المشافهة[1] :

أمَّا عند المشافهة فترتفع رتبة المتعلم و بصير خلالها عنصراً نشيطاً يشارك في سيرورة الدرس ليس بأمثلة ، بل بأجوبة و حله للمسائل المطروحة ، فهو يبني معارفه . و قد سمحت له هذه الطريقة من التفاذ إلى عقول و قلوب طلاب العلم النجباء و ذلك حسب استعدادهم ، ثم العمل على تنمية ملكاتهم في مواد معينة[2].

---

[1] تعني المشافهة تقديم معلومات و معارف ذات مستوى عالٍ لشخصي واحد ، و يرادفها لفظ أسرّه أي قدم أسرار علمية لمن يستحقها.

[2] نفح الطيب ، ج 7 ، ص 288

موقفه من التأليف و بناء المدارس :

إن الآبلي و على غرار علماء عصره الذي نهل من معارفهم ، يرفض التأليف الذي لم يقدم جريداً للقارئ . يرفض الآبلي ماسماه هو بتقييدات الجهلة، فإذا كان التأليف ينطلق من مبدإ نقدي ، اشتراط الإجتهاد و العمل بموجب الرؤوس الثمانية[1].

أمّا موقفه من المدارس[2] فهو لا يرفض المؤسسة التعليمية في حدّ ذاتها ، و إنّما يرفض المنطلقات السياسية التي من أجلها بنيت هذه المدارس. لقد لاحظ الآبلي أن السلطة المؤسسة للمدارس تخول لنفسها حق توجيهها ، في حين يرى الآبلي أن طلب العلم منزه عن أهواء ذوي السلطان ما عدا سلطان العقل . إن غاية المدرسة لا تلبي الحاجات الآنية للسلطة بل عليها أن توثر في المجتمع قصد البناء الحضاري.

فالتعليم المرفوض عند الآبلي هو الذي يهدف إلى تعميم مفاهيم معينة، و بث قوالب فكرية لا تعمل على إيقاظ الهمم بل روضت المتعلم على تنفيد ما أمر به[3].

---

[1] كان عادة القدماء من المعلمين أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب ، و هي : الغرض، و العنوان ، المنفعة ، المرتبة و صحة الكتاب و من أي صناعة هو و كم فيه من أجزاء و أي أنحاء التعاليم فيه.

[2] نفح الطيب ، ج 7 ، ص 272.

[3] البستان ، ابن مريم ، ص 299.

كما لاحظ الآبلي أن بناء المدارس تزامن في غالبيته مع بداية الجمود الفكري في العالم الإسلامي ، و هي بذلك وسيلة دعائية في أيدي السلاطين، أكثر منها أداة للنضج و النبوغ الفكري.

آثار الآبلي :

يمكننا الجزم أن الآبلي لم يصنف في علم من العلوم التي كان يتقنها، كما أنه لم يعثر عن تقييد أخذ عنه ، لأن أسلوبه التبليغي لا يساعد على التقيد ، فهو لا يملي الدرس و يرفض أن يقاطع أثناء الأداء. و هكذا يمكن لذي بصرٍ نافد أن يستشفّ بصمات الأبلي في مؤلفات تلاميذه المباشرين و على رأسهم عبد الرحمن بن خلدون ، فيروي ابن خلدون أهم خبر عن يغمراسن بن زيان ؛ خبر وصيته لولي عهده – عن لسان الأبلي.

من هذا المنظور ليس فقط صاحب فضل على تلاميذه النجباء ، إذ أنّهم و بفضله تمكنوا من المساهمة الفعالة في التراث المشترك للإنسانية.

الخاتمة

إن الصورة التي استطعت أن أتوصل إليها من خلال بحثي هذا عن الوضع السياسي و الثقافي للدولة العبد الوادية في دورها الأوّل ، لا يمكن أن تكون جامعة شاملة كما أريده ، بل هي صورة غير مكتملة في بعض جوانبها لأن الفترة المعالجة تعتبر طويلة ، و في نفس الوقت من المواضيع التي تفتقر إليها المكتبة التاريخية عموماً . لذا فإن هذا البحث عالج هذا الموضوع بقدر المستطاع لأنه يعتبر من المواضيع التي يصعب الخوض فيها بسبب انعدام النصوص المساعدة على ذلك.

وقد توصلت من خلال معالجة هذا الموضوع بالخلاصة التالية :

-يعود بنو عبد الواد إلى قبيلة زناتة. و كانوا يعيشون حياة البداوة و الترحال عبر المراعي، و هو حال جل القبائل الزناتية: كبني مرين، و بني توجين ، و بني راشد.

و لما تغلب الموحدون على المغرب الأوسط كان بنو عبد الواد سباقين إلى طاعتهم فأقطعوهم (ضواحي المغرب الأوسط). و أصبحوا سادة على تلمسان و ضواحيها.

و عندما تولى أمر تلمسان يغمراسن بن زيان ، و ذلك سنة 633هـ/1235م و تمكن من إخضاع بني مطهر و بني راشد و جمع كلمتهم في ظل الدولة العبد الوادية.

و سارع إلى إعلان استقلاله عن دولة الموحدين.

تمتد الفترة المعالجة من 633هـ/1235م إلى 737هـ/1337م أي مدّة زمنية تقدر بمئة و أربع سنوات ، منذ قيام الدولة العبد الوادية إلى تاريخ سقوطها في قبضة أبي الحسن المريني ، و قتله للسلطان العبد الوادي أبي تاشفين عبد الرحمن الأول ابن أبي حمو موسى الأوّل.

و قد تميزت هذه الفترة بالتقلب و الإضطراب حيث أصبحت كل دولة من دول المغرب الإسلامي الثلاث : الحفصية ، و العبد الوادية ، و المرينية ، تعتبر نفسها الوارث الشرعي و الحقيقي لتراث الموحدين ، فكانت كلّ واحدة تسعى للقضاء على الآخرين ، طمعاً في السيطرة على البلاد التي كانت في حوزة الموحدين من قبل. غير أن حال الدول الثلاث لم يكن يسمح لها بالهيمنة الكلية و حسم الموضوع، بسبب الضعف و قصر اليد من جهة ، و بسبب التركيبة الإجتماعية ، التي أصبحت بها القبائل و العشائر حيث تتميز باستقلال أكثر مما كانت عليه في زمن ما قبل سقوط الموحدين ، من جهة أخرى ، حيث صارت القبائل محل إغراء و استرضاء سلاطين الدول الثلاث.

و قد اضطرت دول المغرب الإسلامي الإعتماد على بعض القبائل العربية المستقرة ببلادها إعتماداً يكاد يكون تاما حيث صار من الصعب على ملوك هذه الدول الحفاظ على بلادهم حالة تخلي هذه القبائل عنهم ، حيث حالف بني عبد الواد قبائل زغبة التي استقرت بالمغرب الأوسط و عرب ذوي عبيد الله و ذوي منصور (المنبات ، أولاد حسين و العمارنة) من المعقل.

و على الرغم من ذلك لم تكن جميع القبائل العربية التي استقرت ببلاد المغرب الإسلامي تعطي الود خالصاً للدول النظامية التي استقرت بأرضها فما أن

تضطرب الأحوال السياسية للدولة حتى نرى بعضهم ثائرين أو مؤيدين للحركات الخارجية عليها.

كما توصلت من تتبع تطور النظام السياسي للدولة العبد الوادية خلال هذا الدور أنه مر بالمراحل التالية:

المرحلة الأولى : و تمتد هذه المرحلة من 633هـ/1235م إلى 707هـ/1307م سنة وفاة السلطان أبي زيان محمد بن عثمان بن يغمراسن ، و خلال هذه المرحلة بقيت روح البداوة السائدة بين الحكام و المحكومين، إذ كان السلطان يتجنب الإنغماس في مظاهر الأبهة، و كان في كثير من الحالات يعامل الناس بعقلية رئيس القبيلة، و مع ذلك فقد بذل يغمراسن جهداً كبيراً كي يرتقي بدولته إلى مصاف الدول المتقدمة أنذاك.

كما تتميز هذه المرحلة بروح العصبية العبد الوادية القوية التي منحت الدولة قوة و تماسكاً عظيمين ، ظهرا في المقاومة الشديدة للإعداء و في وحدة الصف و التفاني في الدفاع عن سلامة الدولة و فرض وجودها و إبراز كيانها.

لكن ظهور الخلاف و التآمر سرعان ما أدى إلى هذه الدولة في آواخر عهد أبي حمو موسى الأوّل ، ممّا أدى بولده أبي تاشفين الأوّل إلى إرتكاب خطيئته الكبرى بقتل والده و توليه الحكم ، و كانت هذه المؤامرة سابقة خطيرة في الدولة حيث أصبحت تقليداً متبعاً من قبل كثير من أمراء الدولة فيما بعد.

-المرحلة الثانية :

و تمتد من سنة 707هـ/1307م تاريخ إعتلاء أبي حمو موسى الأول عرش تلمسان إل سنة 753هـ/1352م سقوط تلمسان في قبضة أبي عنان المريني ، بحذف

12 سنة منها كانت خلالها محتلة من قبل المرينيين ، فخلال هذه المرحلة عرف النظام السياسي بصفة خاصّة و نظام الحكم بصفة عامة في دولة بني عبد الواد تقدماً ملموساً ، حيث انتقلت تلك النظم من مرحلتها الأولية الساذجة إلى مرحلة أخرى أكثر تطوراً و رقياً و ذلك بفضل الإصلاحات التي أدخلها السلطان أبو حمو موسى الأول على نظم دولته و بفضل الخطوات الهامة التي خطاها أبو تاشفين الأول في تطوير الدولة.

كما تتميز هذه المرحلة عما سبق أنها شهدت استفحال سلطان بني عبد الواد و اتساع نطاق نفوده شرقاً حتى شمل تونس في عهد أبي تاشفين الأول.

و في بداية هذه المرحلة ألغيت دعوة الحفصيين من منابر تلمسان و اقتصر الدعاء للسلطان العبد الوادي فقط.

لقد سارت دول المغرب الثلاث : بنو عبد الواد ، بنو مرين ، و بنو حفص، على نهج أسلافها في تشجيع العلم و ذويه ، إذ أن البذرة الموحدية قد أينعت شجرتها فأعطت ثمارها ، هؤلاء يقولون بالإجتهاد ، و هذا حافزمهم في تحرير الأفكار من الجمود ، و تنشيطها ، و دفعا إلى الحركة و العمل ، و لعل هذا يرجع إلى طريقة التدريس التي لوحظت بإحدى حواضر المغرب الأوسط و هي مدينة الشاعر ابن خميس – التي كانت تعتمد بالدرجة الأولى على البحث و التفكير ، و عدم الإكتفاء بالحفظ و هذا الجو كفيل بأن ينشأ عنه أو يتخرج في مدارسه علماء نوابغ ، قادوا الحركة الأدبية ، و العلمية.

كأبي إسحاق إبراهيم بن يخلف التنسي الذي نشأ بتنس، و توجه إلى بجاية ، و المشرق العربي لطلب العلم ، و قد تتلمذ على يده علماء كثيرون. و كان

شقيقه أبو الحسن التنسي الذي قام بالتدريس بعد وفاة أخيه في العاصمة العبد الوادية ، و نال حظوة كبيرة عند يغمراسن بن زيان و عند ابنه عثمان.

و من تلاميذ أبي اسحاق التنسي أبو عبد الله بن ابراهيم الآبلي الذي تتلمذ عليه المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ، و شقيقه أبو زكياء يحيى صاحب "بغية الرواد" "في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، و المقري الكبير ، و ابن مرزوق الجد ، و غيرهم، و من هذه الشخصيات. كذلك أبو عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القرشي الذي أنشأ ديوان الرسائل بتلمسان في عهد أبي حمو الأوّل ، و شرحه رسالة الشاعر ابن خميس ، و قد ظهر من خلال هذا الشرح أن ابن هدية كان يكره الفلسفة و الفلاسفة كرهاً شديداً ، و لعل كرهه لابن خميس كان نتيجة منطقية لموقف ابن هدية السلبي من الفلاسفة.

و ثمة ملاحظة تتعلق بعناصر الحركة الفكرية في المغرب الأوسط. في هذا العصر الذي اضطربت فيه الأوضاع السياسية، و هي أن هذه العناصر كانت تتجة قبل كل شيء إلى العلوم الدينية و الآداب بينما لا تحظ العلوم الدنيوية المحضة منها إلاّ بالقليل النادر.

و من جهة أخرى فإن كثيراً من هؤلاء العلماء الفقهاء ، الذين امتازوا بالتفوق في العلوم الدينية ، كالحديث و الأصول و التفسير و الفقه ، كانوا في نفس الوقت يمتازون بتمكنهم من الآداب و علوم اللغة ، و بعضهم ينظم الشعر، و لهذا سنحاول أن نقدم منهم من غلب عليهم التفوق في العلوم الدينية ، ثمّ نتبعهم بمن مزجو بين علوم الدين و الآداب و كذا من نبغوا في العلوم العقلية ، و هذا التصنيف لا يمكن أن يكون إلاّ أمراً نسبيا.

و ما يلاحظ كذلك أنّه لما كان يغلب على هذا العصر الطابع الديني فقد أدى هذا بدوره إلى انتشار و ازدهار التصوف و تغلغله في وسط العلماء و الصلحاء ، فاشتهر الكثير منهم بالتبتل ، و الزهد و نالوا احترام الجماهير و تقديرها العميق.

المصادر و المراجع العربية و الأجنبية

أ- المصادر :

إبن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن، ت 808 هـ /1406 م :

♦ كتاب العبر ، و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و البربر. الطبعة الثانية ، في سبعة مجلدات ، مكتبة المدرسة ، دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر بيروت 1961 - 1956م.

التعريف بابن خلدون و رحلته غربا و شرقا. تحقيق : الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، نشر لجنة التأليف و الترجمة و النشر بالقاهرة 1375 – 1951.

♦ مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، القاهرة ، لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى 1378هـ/1958م.

ابن خلدون يحي أبو زكرياء ت 780هـ/1378م :

♦ بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق الدكتور عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، المكتبة الوطنية، الجزء الأوّل 400هـ/1980م.

المقري

♦ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني ت 1041هـ/1631م.

♦ نفح الطيب ، من غصن الأندلس إلى الطيب ، و ذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، عشرة أجزاء ، تحقيق : الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ، نشر دار الكتاب العربي، بيروت ، لبنان ، بلا تاريخ.

الناصري :

♦ أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي ت 1315هـ/1897م

الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تسعة أجزاء ، تحقيق ولدي المؤلف الأستاذين : جعفر و محمد ، مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء، 1954 – 1956.

ابن أبي زرع :

أبو الحسن على الناسي ت 736هـ/1336م

♦ الأنيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس – مطبعة فاس الحجرية بلا تاريخ.

ابن الأحمر ، اسماعيل بن يوسف بن محمد ت 807هـ/1308م :

♦ روضة النسرين في دولة بني مرين ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، منشورات مطبعة القصر الملكي ، الرباط ، المطبعة الملكية .1962

العبدري محمد البلنسي كان حيا سنة 688هـ/1289م :

♦ الرحلة المغربية ، تحقيق ابن جدو قسنطينة ، مطبعة البعث 1964

ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد ا لله محمد ت 776هـ/1374م :

♦ الإحاطة في أخبار غرناطة – المجلد الأوّل، تحقيق، أ/ عبد الله عنان ، دار المعارف القاهرة 1956.

ابن عذاري : أبو عبد ا لله محمد المراكشي ت 693هـ/1295م :

♦ البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب : تحقيق : لبغي بروفنسال ، باريس 1930.

ابن قنفذ أبو العباس احمد بن حسين بن علي ت 810هـ/1414م :

♦ الفارسية في أخبار الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، و أ/ عبد المجيد التركي – تونس 1960.

البكري :

♦ المغرب في بلاد افريقية و المغرب : تحقيق – دي سلان – الجزائر 1911.
المراكشي ، عبد الواحد ت 647هـ/1249م.

♦ المعجب في تلخيص أخبار المغرب : تحقيق محمد سعيد الويان و محمد الربي العلمي ، القاهرة 1949.

الزركشي : أبو عبد ا لله محمد بن ابراهيم

♦ تاريخ الدولتين الموحدية و الحفصية، تحقيق ماضور محمد (تونس 1966).

الغبريني : أبو العباس أحمد بن أحمد عبد ا لله.

♦ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (الجزائر 1328 – 1910)

التنسي :

- نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان ، تحقيق محمود بوعياد ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1405 هـ / 1985 م.

ابن مرزوق : الخطيب محمد بن مرزوق ت 781—1379م

- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن. تحقيق : الدكتورة ماريا خيسوس بيفرا ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1401هـ/1981م.

الأدريسي : الشريف أبو عبد الله محمد ت 564هـ/1251م.

- وصف المغرب و أرض الودات و مصر و الأندلس ، المقتبس من كتاب نزهة المستشاق في اختراق الآفاق : تحقيق دوزي خويه ، بيروت 1866.

ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي ت 779هـ/1377م.

- رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، تحقيق علي المنتصر الكتاني ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1395هـ/1975م.
- الذخيرة السينية في تاريخ الدولة المرينية، حققه محمد بن أبي شنب، الجزائر، 1339هـ/1920م.

النباهي : أبو الحسن بن عبد ا لله بن الحسن المالقي

• كتاب المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء و الفتيا، نشرة ليفي بروفسال بعنوان قضاة الأندلس، القاهرة 1948.

ب- المراجع العربية و الأجنبية :

1- المراجع العربية :

ابن مريم محمد المليتي المديوني التلمساني ، كان حيا سنة 1025هـ/1611م.

• البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر، المطبعة الثعالبية 1326هـ/1908م.

الميلي – مبارك بن محمد الهلالي :

• تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ، الجزائر ، مكتبة الهضة الجزائرية ، 1963

أرسلان :(الأمير شكيب) :

• الحلل السندسية في الأخبار و الآثار الأندلسية ، مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ.

سالم : (د/ السيد عبد العزيز سالم)

• المغرب الكبير – العصر الإسلامي ، الأسكندرية 1966.

العبادي : (د/ أحمد مختار العبادي)

♦ دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس ، الأسكندرية 1968.

عبد الوهاب حسن حسني :

♦ خلاصة تاريخ تونس ط 4 ،1968

عنان : محمد عبد الله

♦ لسان الدين بن الخطيب ، حياته و تراثه الفكري – الطبعة الأولى ؛ نشر مكتبة الخانجي ، مطبعة الإستقلال الكبرى ، بيروت 1388هـ/1968م

♦ عصر المرابطين و الموحدين ، القاهرة .1964

د/ حاجيات : عبد الحميد

♦ أبو حمو موسى الزياني، حياته و آثاره، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1974.

الحفناوي : أبو القاسم محمد بن أبي القاسم

♦ تعريف الخلف برجال السلف ، جزآن ، الجزائر 1906.

ابن خميس :

♦ المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس، جمع و تقديم عبد الوهاب بن منصور – تلمسان ، مطبعة ابن خلدون 1365 هـ.

ابن أبي دينار (أبو عبد ا لله محمد بن أبي القاسم)

♦ المؤنس في أخبار افريقيا و تونس. تحقيق و تعليق شهام (محمد)

♦ كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم الجغرافي) لمحمد بن عبد المنعم الحميري ، تحقيق د/ إحسان عباس.

الطمار : محمد بن عمر

♦ تاريخ الأدب الجزائري ، الجزائر 1969.

بونار رابح :

♦ المغرب العربي (تاريخه و ثقافته) ، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1968 م.

طاهر ، توات : ابن خميس ، شعره و نثره

♦ نويهض – عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر – الطبعة الأولى – نشر المكتب النهار للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت 1971.

الجزائري محمد بن عبد القادر :

♦ تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر – بيروت ، دار اليقضة العربية 1964.

جوليان ، شارل أندري :

تاريخ افريقيا الشمالية ، تعريب محمد مزالي البشير بن سلامة، الدار التونسية، للنشر، تونس 1398 هـ/1978 م.

الجيلالي ، عبد القادر بن محمد :

- تاريخ الجزائر العام ، الجزائر ، مكتبة الشركة الوطنية 1965.

2- المراجع الأجنبية :

REFEREN CES :

1- L'ABBE, J.J.L. BARGES

Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom,

Paris, Benjamin, Duprat, 1859.

2- BRUNSCHVI G., ROBERT

La Berberie orientale sous les hafsides (des origines à la fin du XV siècle)

Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Tome premier, 1970, Tome second, 1949

Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord

au XV siècle (Abdelbasit Ben Khalil et Adorne); la rose éditeurs. 1936.

3- DHINA, ALALLAH

Les états de l'occident musulman au XIII^{ème} , XIV^{ème} et Xv^{ème} siècles

Institutions Gouvernementales et administratives

Thèse pour Doctorat d'Etat. Université de Paris X NANTERE.

Le royaume Abdelouadite à l'époque d'Abou Hamou Moussa,

1er et d'Abou Tachfine 1er, office de Publications Universitaires, Alger, 1985 .

4- JEAN , LEAN L'AFRICAIN

Description de l'Afrique, Librairie d'Amérique et d'Orient

Adien Maison neuve , Paris, 1981.

5- JULIEN , GARLES ANDRE

Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1966.

6- MARCAIS, GEORGES

Les arabes en Berberie (du XIème au XIVème siècle)

Constantine et Paris, 1913.

La Berberie Musulmane et l'Orient au moyen age.

Edition Montaigne, Paris.

Le Makzen des Beni Ab - el - Wad, Rois de Tlemcen

Bulletin, Trimestriel de la société de géographie et d'Archéologie d'Oran, Tome 61 (Mars - Juin 1940)

63ème année, PP 68 / 78

جـ- الدوريات :

مجلة الأصالة – وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية – الجزائر – العدد الثامن – ماي جوان ، 1972 م.

مجلة الأصالة – وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية – الجزائـر – العـدد 26- جويلية أوت سنة 1975 م.

مجلة الأصالة – وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية – الجزائر – العـددان49 و - 50 سبتمبر – أكتوبر 1977 م.

أعداد مجلة الثقافة ، وزارة الإعلام و الثقافة ، الجزائر.

مجلة تاريخ و حضارة المغرب ، كلية الأداب ، جامعة الجزائر ، من العـدد 01 إلى العدد.13

جدول الفهارس

فهرس القبائل و الأمكنة

– أ –

- أولاد نايل. 16
- الأدارسة. 48
- أكفادو. 13
- أوربا. 26–29
- افريقيا. 26–27–29
- افريقية. 97–99–103–120–122–132–132–139–193–198–200
- أرزيو. 29
- أزفون. 91
- أقبو. 92
- الأندلس. 32–36–40–61–62–70–72–73–77–96–109–118–132–133–153–166–147–177–182–187–188–199.
- إسبانيا. 42–83
- الأمم. 12
- أولاد منديل. 104–111–118
- أولاد عزيز. 113
- أولاد سلامة. 112
- أولاد حصين. 121–124–125

- الأندلسيون. 190
- إيسلي. 67-71-112
- أبي سليط. 67
- أشير. 125
- آبلة. 187-188

- ب -

- بجاية. 13-27-80-90-92-98-99-100-107-108-110-123-133-138-146-148-149
- برشك. 29-116-118-136-149
- بليدة. 19
- بلاد سوس. 41
- بوسعادة. 7
- بونة. 27
- بنو عبد الواد. 1-2-3-4-5-6-9-10-11-12-17-18-20-21-22-23-24-26-29-32-35-38-42-44-45-46-47-49-50-51-52-53-55-56-57-58-59-63-64-65-68-69-70-71-77-78-99-100-101-103-105-106-107-108-109-110-111-113-114-115-116-117-119-120-121-122-123-124-125-126-130-133-135-136-137-149-163-164-189-200
- بنو مرين. 3-5-10-11-20-33-34-35-36-37-42-45-46-47-48-49-50-54-55-60-61-62-63-64-65-67-68-49-70-71-73-74-77-78-79-80-

-113-112-110-107-106-104-101-100-98-97-92-90-87-84-83-82

193-190-189-163-150-149-128-127-126-125-124-120-119-115-114

- بنو حفص. 3-13-36-42-54-55-60-61-63-72-78-79-80-91-96-97-

125-117-112-111-110-109-108-107-106-105-104-103-100-98

- بنو توجين. 21-23-25-45-46-47-49-61-71-72-81-91-103-104-105-

126-124-115-114-112-111-110-106

- بنو ياكين. 19-47

- بنو وللو. 19-47

- بنو وصطف. 19-17

- بنو تمرت. 19-17

- بنو القاسم. 19-17-48

- بنو يكثيمن. 19-17

- بنو مطهر. 19-48-52-54

- ينو علي. 19

- بنو طاع الله. 19-48-50

- بنو دلول. 19-48

- بنوكمي. 19-48-50

- بنو معطى بن جوهر. 19-18

- بنو عامر. 20-21-62-80-120-121-123-124-126

- بنو يعقوب. 20

- بنو حميد. 20-21

- بنو يفرن. 45-46-48
- بنو ومانو. 45-46-47-49-57
- بنو يلومي. 45-47-49-57
- بنو هلال. 46
- بنو حماد.46
- بنو يعلى.46-48
- بنو بادين.47-111-122
- بنو زردال. 47
- بنو مصاب. 47
- بنو واسين. 45-46-49
- بنو راشد. 23-46-47-51-52-54-113
- بنو عبد المومن. 32-40-41-65-102
- بنو عسكر. 35
- بنو نصر. 61
- بنو حميان. 62-123
- بنو الأحمر. 72-73-77
- بنو وطاس. 83
- بنو ملاح. 93
- بنو يدلتن. 113
- بنو غانية. 122
- بنو يزيد. 123-125

- بنو سنوس. 127
- بنو العباس. 132-133
- البحر المتوسط. 5-29
- البطحاء. 23

- ت -

- تازمارت. 92
- تاوريرت. 15
- تافيلات. 15
- تاهرت. 15-24
- تامزيزدكت. 80-96-107
- تانسيفت. 37
- تاغزوت. 111-113
- تاقدمت. 111
- تافرقينت. 113
- توكال. 95-115
- تونس. 26-27-36-42-50-60-63-78-79-98-105-107-109-112-117-118-149-151-158-191-199-200
- تلمسان. 12-58-62-63-66-67-70-71-72-76-77-78-80-82-83-88-90-95-97-98-103-104-105-108-109-112-113-114-115-116-117-119-121-125-127-128-133-134-136-140-147-148-149-150-152

153-156-158-160-163-164-167-175-177-182-188-189-190-191-
192-193-195
- تسولة. 33
- تسالة. 24
- تنس. 24-27-29
- تفازي. 29
- تمبكتو. 29
- توات. 29
- تمزجزجت. 38
- تيكورارين. 47
- تيطري. 113-124-215

- ث -

- الثعالبة. 92-113-142-125

- ج -

- جشم. 36-64
- جرجرة. 15-92
- جبل راشد. 46-47
- جبل طارق. 162
- جبل المصامدة. 41
- الجزائر. 29-83-91-125
- الجزيرة الخضراء. 73

- الجعبات. 113

- ح -

- الحشم

- د -

- دبدو. 47

- درعة. 67-68

- دلس. 91

- الدواودة. 80

- ذ -

- ذوي عبيد الله. 61-62-120-24-127

- ذوي منصور. 121

- ر -

- رياح. 106

- رباط العباد. 191

- رباط تازة. 37

- الروم. 35

- الريف. 43

- الرياس. 97

- ز -

- زناتة. 3-5-41-42-44-45-46-48-49-50-51-52-53-62-64-71-89-95-98-103-111-112-115-120-122

- زغبة. 62-80-89-111-118-120-122-123-125-126-127

- زواوة. 123

- زاغري. 29

- الزاب. 45-91-108-112-113

- س -

- سويد. 62-89-95-120-124-126

- سجلماسة. 15-29-34-46-47-67-68-77

- سيدي بلعباس. 99

- سعيدة. 15-104-111

- سرسو. 111-113

- سبتة. 162-163-164-165-167

- ش -

- شمال افريقيا. 29-32-46

- شرشال. 29-116-146

- شلف. 24-88-181-92-104-111-115-116

- شتاتة. 107

- ص -

- صنهاجة. 46-113-123

- الصحراء. 44-445-46-49-56-62-63-73-80-122-123-126-128

- ط -

- طنجة. 26-27-73

- ع -

- عرب سفيان. 36
- عرب المنيات. 121
- عنابة. 97
- عجيسة. 107
- العطاف. 118
- العرب. 62-63-97-111-120-124
- العزفيون. 164
- العالم الإسلامي. 136

- غ -

- غرناطة. 73-77

- ف -

- فاس. 63-64-65-66-67-68-69-70-72-73-77-78-82-83-99-170-178-193-194-197-192-185
- فزاز. 65-66
- فرزوزة. 113
- فكيك. 46-47-64
- ابن فرحون. 151
- الفارابي. 186

- ق -

- قشتالة. 72-73

- قسنطينة. 95-97-98
- قلعة أولاد سلامة. 104
- قابس. 122
- القصبات. 113
- القبائل العربية. 53
- القبائل الحليفة. 18-20-21
- القبائل الغارمة. 18-21
- القيروان. 151-200
- القطراني. 68
- أبو القاسم بن زيتون. 139
- أبو القاسم عبيد الله الحسن. 144
- القاضي أبو محمد عبد الوهاب. 144
- أبو القاسم عبد الكريم. 145

- ل -

- لمتونة. 51
- لمدية. 88-104-106-111-113-114-115-116-119

- م -

- مغراوة. 21-25-45-46-49-61-91-103-104-106-110-111-115-116-117-118-119-120
- مرسية. 153
- مليكش. 21

- مديونة. 47
- مكناسة. 33-110-197
- متيجة. 15-24-62-91-115-116-124-125
- ملوية. 15-23-45-47
- مصر. 26-140-172-191
- مليانة. 27-80-104-106-115-117-118-119-149
- مازونة. 27-104-116-117-119
- مستغانم. 27
- مليلة. 27
- مالي. 29
- منسا. 29
- مراكش. 34-35-36-38-41-42-61-63-66-69-70-73-78-103-104-106-109-139-156-158-194-195
- منداس. 104
- مرية. 167
- مدريد. 187
- مالقة. 167
- الموحدون. 23-32-33-34-35-36-38-39-40-41-42-43-45-47-48-49-53-54-56-58-60-61-63-64-65-66-67-68-69-70-78-98-101-102-103-107-109-111-116-117-118-122-123-125-130-131-132-139-141-145-152-156-158

- المغرب الأوسط. 1-3-5-9-10-13-16-18-23-24-42-44-445-46-47-
49-50-51-55-64-83-92-99-100-113-114-115-116-119-120-122-
123-124-125-126-127-132-134-139-148-149-151-187
- المغرب. 4-29-32-33-36-37-40-42-60-61-62-63-64-65-66-67-91-
98-102-103-104-111-119-120-122-131-133-140-151-156-190-193-
196-197-198-199
- المغرب الإسلامي. 1-3-22-23-26-29-32-42-60-61-63-64-101-109-
132-133-137-138-150-151-156-158-196-197-201-205
- المغرب العربي. 60-188
- المرابطون. 133
- المنصورة. 83-108

- ن -

- ندرومة. 27-51-53-78-83-99
- النصارى. 87-112

- و -

- وادي ملوية. 37-45-47-120-121-127-163
- وادي صا. 64-83
- وادي فرتونة. 77
- وادي رهيو. 73-92
- وادي آش. 77
- وادي تلاغ. 69-70

- وادي السبت. 115
- وادي الصومام. 92
- وجدة. 38-67-71-83-92-99-107-121-127-128
- وهران. 15-24-29-50-62

- هـ -

- هوارة. 97
- هنين. 29-99-127
- الهساكرة. 195-196-198
- الهقار. 29

- ي -

- اليمن. 159
- اليهود. 87

فهرس الأعلام

– أ –

- الآبلي. 86–141–150–160–187–188–189–190–191–192–194–195–196–198–199–200–201–202–203–204–205
- أولاد الإمام. 136–139–140–149
- أحمد بن زكري. 138
- أحمد بن حنبل. 145
- ابراهيم بن هشام. 67
- ابراهيم بن إسماعيل. 51–53
- ادريس المامون. 36
- اسماعيل بن الأحمر. 5–6
- أبو إسحاق التنسي. 148–60
- أبو اسماعيل الصنرائي. 182
- أبو إسحاق أحمد بن محمد. 182

– ب –

- ابن بطوطة. 26–27
- أبو بكر. 37–65–66–67–68
- أبو بكر بن خطاب. 61–62–153–157–158–158–160–171
- أبكر بن محرز. 152

- أبو بكر بن جوهر. 152
- أبو بكر الغافقي. 152
- أبو بكر محمد بن عربي. 144
- أبو البركات محمد بن علي. 170
- البراذعي. 130
- ابن أبي زرع. 4
- ابن أبي يزيد. 130
- ابن أبي زيد القيرواني. 144

- ت -

- التنسي. 11-12-58-76-88-137-154-156
- تقي الدين بن تيمية. 150-172
- أبو تاشفين. 30-77-79-80-81-93-94-95-96-97-98-99-100-101-115-126-137-150

- ث -

- ثابت بن منديل. 18-19
- أبو ثابت المريني. 10-192

- ج -

- جابر بن يوسف. 51-53-58-60
- جلال القزويني. 150
- ابن جحاف. 86-87

- ح -

- حبابة الرومية. 34
- حمامة بن مطهر. 48
- ابن حبون. 50-51
- الحسن السعيد. 65-107
- أبو الحسن علي بن محمد الطبري
- أبو الحسن اللخمي. 144
- أبو حامد الغزالي. 145-146-184
- الحجار. 150
- أبو الحسين بن عبد الرحمن. 152
- أبو الحسن الخذاعي. 160
- ابن الحكيم. 166-167-168-173-175
- أبو الحسن بن كماشة. 167
- ابن حمادو. 182
- أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن. 183
- الحسن بن علي. 191
- أبو حمو موسى الأول. 4-5-19-30-31-77-79-80-81-87-88-92-93-94-100-115-119-125-136-150-192-193-194-201
- أبو حمو موسى الثاني. 78
- أبو الحسن علي. 76-77-98-99-100-101-106-115-128-150-151-193-197-198-199-200-201

- خ -

- خلوف المغيلي. 193-194

- ابن الخطيب. 59-140-152-153-155-172

- ابن خميس. 154-158-159-161-162-163-164-165-166-167-168-169-170-171-172-173-174-175-177-183-184-185-186

- الخونجي محمد بن ناماور. 142

- ابن خاتمة. 172-173

- د -

- دعدع. 87

- داود بن هلال. 21

- دقيق العيد. 148-160-191

- أبو دبوس. 68-69

- أبو داود

- ر -

- راشد بن محمد. 91-92

- الرشيد. 34-41-58

- ابن رشيق. 133

- ابن الربيع سليمان. 10-165-192-194

- ز -

- زيان بن محمد. 113

- زيري بن حماد. 116-149

- زيرم. 149
- أبو زيد عبد الرحمن بن أبي زكرياء. 5-6-7-19-20-47-48-86-89-100-107-135-139-197-199-200-201-205
- أبو زكرياء يحي. 4-5-11-12-30-52-76-91-93-94-152-154-157-171-195
- أبو زكرياء الحفصي. 15
- أبو زيد عبد الرحمن. 136-149-150-192-198
- أبو زكرياء الزواوي. 146
- ابن زيتون. 139
- ابن الزبير. 154

- س -

- سوت النساء. 105
- سلامة بن علي. 113
- سيد الناس. 114
- سحنون بن عبد السلام. 130-143
- سعيد العقباني. 150
- السعود بن خرباش. 65-66
- ابن سبعين. 146
- ابن سينا.
- أبو سعيد عثمان بن يغمراسن. 10-13-53-74-76-78-79-80-81-86-88-91-108-109-113-114-118-154-159-161

- أبو سعيد عثمان بن عبد الحق. 192-194
- أبو سرحان. 93-114
- أبو سعدي. 46
- أبو سعيد البراذعي. 143

- ش -

- شرير الزنجي. 65-66
- شمس الدين الأصهاني. 148

- ع -

- عبد المومن. 32-40-48-51
- عبد الحق بن منغفاذ. 47-48
- عبد الله بن قندوز. 50
- عثمان بن يوسف. 52-53
- عبد الحق بن محمد. 67
- عبد السلام الأوربي. 68
- عمر بن إبراهيم. 69
- عيسى بن مساي. 71
- عريف بن يحي. 89-126
- عبد الله بن زكرياء. 103
- عبد القوي بن العباس. 105-111
- عبد الله بن تافراتي. 106
- عابد. 118

- عمر بن منديل. 118
- عمر بن ويفرن. 119
- عبد الله بن مسلم. 121
- عيسى بن عبد القوي. 126
- عبد الله إدريس. 131
- عبد المهيمن الخضرمي. 167
- عبد الوهاب بن منصور. 169-175
- علي بن محمد بن ترروميت. 195-196
- أبو عبد الله المغيلي. 66
- ابن عثمان بن عبد الحق. 68
- أبو عامر. 82
- ابن علان. 91-125
- أبو عمران. 98
- أبو عصيرة. 108
- العباس بن منديل المغراوي. 105
- أبو العباس. 116-117
- أبو علي المليانى. 117
- العقاينة. 138
- أبو عبد الله شعيب الدكالي. 139-140-149
- أبو عبد الله محمد. 142
- أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي.

- ابو عبد الله مالك بن انس
- أبو عيسى محمد بن عيسى التزمذي. 143
- أبو عبد الرحمن شعيب النسائي. 143
- أبو علي الفارس. 144
- ابن عبد ربه. 144
- ابو عبد الله محمد بن ادريس. 145
- ابن عربي. 146
- أبو عبد الله الشريف. 150
- أبو عيسى ابن أبي السداد. 152
- العبدري. 154-157-158-169
- أبو عنان. 71-125-160-200-201
- أبو عثمان بن لبون. 169
- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي. 174
- أبو العباس بن البناء. 194-195
- أبو عبد الله محمد بن الصباغ. 197

- غ -

- الغبريني. 8

- ف -

- ابن فرحون. 151
- الفارابي. 186
- أبو الفرج الجوزي. 145

- ق -

- القطراني. 68

- أبو القاسم الخضاوي. 5-6

- أبو القاسم بن زيتون. 139

- أبو القاسم عمر الزمخشري

- أبو القاسم عبيد الله بن الحسين. 144

- القاضي أبو محمد عبد الوهاب. 144

- أبو القاسم عبد الكريم. 145

- م -

- معروف بن سعيد. 21

- محمد العبدري. 27

- محمد بن يوسف. 95-115

- محمد بن عبد القوي. 71-72-112-113-114

- موسى بن علي الكردي. 80-96-97

- محمد بن عطية. 91

- مصامح. 91

- محمد بن منديل. 117-118

- مالك بن أنس. 130

- مسلم بن الحاج. 143

- محمد بن عبد السلام. 140

- محمد بن اسماعيل النجاري.

- محي الدين بن الظاهر. 156
- محمد الثالث النصري. 166
- محمد بن علي الغنى. 167
- محمد بن إبراهيم بن عيشون. 167
- محمد بن عبد الرزاق. 167
- محمد بن عبد الله التلمساني. 149
- محمد بن غلبون. 188
- المستنصر. 112-117-158
- المرتضى. 65-66
- موسى علي الغربي. 101
- منصور المليكشي. 105
- منديل بن عبد الرحمن. 116
- المراكشي. 130
- المأمون الموحدي. 131
- المهدي. 131
- أبو محمد القاسم بن علي. 144
- أبو المعالي. 145
- المقري الكبر. 150
- ابن مرزوق 150-160
- ابن مريم. 8-9-151-153
- أبو المعراف. 152

- أبو موسى بن يوسف. 157
- المهدي البوعبدلي. 169-183
- أبو موسى عيسى. 136-149-150-192-198
- أبو موسى عمران المشرالي. 138
- المرازقة. 138

- هـ -

- هلال القطراني. 93
- ابن هدية القرشي. 169-170-171-182-184-186

- ي -

- يغمراسن بن زيان. 3-20-21-23-35-36-37-38-39-14-57-54-53-52-
50-58-58-59-60-61-62-63-64-66-67-69-70-71-72-73-76-78-79-
80-81-82-84-88-95-96-103-104-105-106-108-109-110-111-112-
113-114-116-117-118-120-123-126-127-133-148-149-152-153-
154-156-188-205
- يعقوب بن عبد الحق. 67-91-110-112-113-117-118-162
- يحي المعتصم. 33
- يحي بن غاينة. 51
- يحي بن مكنن. 69
- يوسف بن حبون. 91
- يحي بن موسى الجمى. 96
- يحي بن عطية. 14

- يوسف بن يعقوب. 119-161-190-193
- يعقوب بن موسى. 118
- يعقوب المنصور. 120
- يوسف بن تاشفين. 133
- يحي بن علي القبسي. 167

فهرس الموضوعات

المقدمة 01

الإشكالية 01

صعوبات البحث 02

المنهج المتبع في البحث 02

أهم مصادر البحث 04

المدخل 13

الإطار الجغرافي 13

1- إقليم الدولة و حدودها 13

2- التضاريس 15

3- المناخ 16

الخصائص البشرية 18

1- قبيلة الأسرة المالكة 19

2- الحلفاء 20

3- القبائل الغارمة 21

النشاط الإقتصادي 22

أ- النشاط الفلاحي 22

ب- النشاط التجاري 26

جـ- الصناعة التقليدية 29

الفصل الأول : ظروف نشأة الدولة العبد الوادية

1- الأوضاع السياسية لمنطقة المغرب الإسلامي قبيل قيام الدولة العبد الوادية 33

2- أصل بني عبد الواد 45

3- نشأة الدولة العبد الوادية 53

4- عوامل نشأة الدولة العبد الوادية 55

أ- العامل الإجتماعي 56

ب- العامل الإقتصادي 57

جـ- العامل السياسي 58

5- يغمراسن بن زيان و دورد في قيام الدولة العبد الوادية 58

6- العلاقات العبد الوادية المرينية 63

7- التنافس العبد الوادي المريني 65

8- التحالف العبد الوادي الموحدي 68

9- التنافس العبد الوادي المريني و أثره على الأندلس 70

10- التحالف الثلاثي 73

الفصل الثاني : تطور العلاقات العبد الوادية المرينية مع خلفاء يغمراسن بن زيان

1- ولاية السلطان أبي سعيد عثمان 76

2- أبو زيان محمد الأول 86

3- أبو حمو موسى الأول 88

أ- سياسته 90
ب- عملياته العسكرية 90
جـ- اغتيال أبي حمو 93
4- أبو تاشفين عبد الرحمن الأول 94
أ- سياسته 95
ب- التحالف المريني الحفصي 98
جـ- استيلاء أبي الحسن على المغرب الأوسط 99
5- العلاقات العبد الوادية الحفصية 103
أ- الولاء للحفصيين 105
ب- موقف الموحدين من التحالف الجديد 107
جـ- إسقاط التبعية الحفصية و إعلان الإستقلال 108
6- علاقة الدولة العبد الوادية بالقبائل الزناتية و العربية 111
أ- بالقبائل الزناتية 111
بنو توجين 111
مغراوة 115
ب- بالقبائل العربية 120
عرب زغبة 122
بنو يزيد 123
بنو عامر 123
الثعالبة 124
حصين بن زغبة 125
سويد 126
ذوي عبيد الله 127

الفصل الثالث : الحياة الثقافية

المدخل 130

التعليم و مؤسساته العلمية 135

مرحلة التعليم الإبتدائي 135

مرحلة التعليم الثانوي 135

مدرسة ابني الإمام 136

المدرسة التاشفينية 137

طرق التدريس 139

الإختصار و مضاره 141

محتوى البرنامج المدرس في ذلك العصر بالمعاهد العليا 142

العلوم الدينية 145

1– أبو إسحاق التنسي 148

2– إبنا الإمام 149

العلوم اللسانية 151

1– أبو بكر محمد بن داود 152

حياته 152

شيوخه 152

قدومه إلى تلمسان 152

وفاته 153

مكانته في الشعر 154

مكانته في الكتابة 155

أسلوب الرسائل الديوانية في هذا العصر 156

مراسلاته 157
أثر أبي بكر بن خطاب في الحركة الأدبية بتلمسان 158
2- أبو عبد ا لله بن خميس 159
حياته 159
وجوده في سبتة 162
إقامته بغرناطة مع الوزير ابن الحكيم 166
تلاميذه و أصحابه 167
شخصية ابن خميس الأدبية 171
مختارات من شعره 174
شوقه و حنينه إلى تلمسان 175
3- أبو عبد ا لله بن هدية 182
التعريف به 182
من أعماله 183
العلوم الطبيعية 187
أبو عبد ا لله محمد بن إبراهيم الآبلي 187
حياته 187
رحلته إلى الشرق 189
رحلته إلى الغرب 192
مكانة الآبلي العلمية 201
طرق التعليم عند الآبلي 202
موقفه من التأليف و بناء المدارس 204
آثار الآبلي 205
الخاتمة 206
المصادر و المراجع 212

جدول الفهارس

فهرس القبائل و الأمكنة 223
فهرس الأعلام 236
فهرس الموضوعات 248